الدكتور ديزيره سقّال



مفتاح الآلهة

(قراءة في الميثولوجيا القديمة ومدارس الأسرار وطقوس التكريس الأولى)

دار المكتبة الأهليّة

الدكتور ديزيره سقال



مفتاح الآلهة

(قراءة في الميثولوجيا القديمة ومدارس الأسرار وطقوس التكريس الأولى)

مقدمة

صار معروفًا أنّ تاريخ المجتمع الإنساني قد مرّ بمراحل فكريّة مختلفة، عكست تطوّراته في شتّى الصعد، واتجاهات الفكر في كلّ مرحلة من المراحل.

وبالعودة إلى الفكر الدينيّ، نجد أنّ هذا الفكر ينمو ويرقى، مع رقيّ العقل الإنسانيّ، بشكل عامّ، وأنّ طبيعة العبادات والطقوس تنمّ عن صورة المجتمع الذي تنمو فيها. لهذا السبب، نجد مجتمعاتٍ تتبنّى أفكارًا وديانات شبيهة بأفكار شعوب أخرى ودياناتها، إلاّ أنّها تبقى دون تلك، في مستوى طقوسها، وفهمها لتلك الديانة والطقوس، بفعل المستوى الراقي، أو الأقل رقيًّا، الذي وصل إليه فكرها.

هكذا، فإنّ دراسة في الميثولوجيا التي عرفتها الشعوب القديمة في منطقة الشرق، من الهنود، إلى الفرس، إلى السومريين، وصولاً إلى اليونان، من شأنها أن تلقي الضوء على هذه المسألة.

ونحن نظنّ أنّ مصدر هذه الميثولوجيات القديمة واحد، نظرًا إلى تشابهاتها الكبيرة، وهو قارّة ضائعة عرفت تطوّرًا عقليًا لافتًا، وازدهارًا كبيرًا، خرجت منها الحضارات القديمة، واستقرّت في مناطق مختلفة من هذا الشرق وبعض الغرب؛ وكانت هذه القارّة المذكورة قد أسّست لها مستعمرات في منطقة حوض المتوسط، غرق أكثرها في البحر، بفعل الكارثة التي لحقت بالمنطقة، وذهبت بالقارة الأمّ؛ وثمّة مكتشفات وبعض الآثار التي عثر عليها في قعر المتوسط، قريبًا من الشواطئ، تؤشّر إلى تلك الممالك القديمة.

من جهة أخرى، فإنّ عددًا المستنيرين قد أسّس، منذ الأزمنة القديمة، مدارس سريّة، تعنى بشرح ما في الميثولوجيا من أسرار، لأنّ هؤلاء فهموا أنّ ما في هذه الميثات لا يؤخذ بظاهره، بل لا بدّ للولوج إلى جوهره. ولكنّ هؤلاء المستنيرين الذين احتاجوا إلى تأملات كثيرة، وتفكير بعيد عن الترّهات والتعصّب للوصول إلى الحقائق التي وصلوا إليها، بالعقل والضمير، عرفوا أنّ الكشف عن هذه الأسرار لا يجوز أن يكون علنًا، لأنّ الناس لا يمكنهم أن يفهموا جوهر تلك

الأفكار ذات الغاليّة الروحانيّة، فالمطلوب إعداد العقل من أجل أن يستوعبها. لهذا السبب أخفوا حقائقهم في رموز بعضها جاء بشكل طقوس، وبعضها الآخر جاء بشكل رسوم، وألفاظ، وأشكال، توصل دراستها إلى فهم جوهر ظواهر الوجود، بطريقة عقليّة معيّنة. من هنا كانت مدارس الأسرار القديمة التي مثّلت كلّ مدرسة منها نهجًا معيّنًا في فهم الظواهر المذكورة، واعتمدت إسراريّة خاصّة بها، ليست مختلفة، في جوهرها، عن إسراريّات المدارس الأخرى. وكان السرّ الأعمق، عند القيّمين على الأسرار، والمسارّين الكاملين، هو التوحيد، أي أنّ ثمّة أشكالاً متعددة سُمّيت آلهة، ولكنّها تصبّ جميعًا في قدرة إله واحد، يرعى الوجود، ويمثّل كلّ إله منها زاوية من قواه التي يدير بها الكون والمخلوقات. كما آمن أكثر رعاة مدارس الأسرار تلك بأنّ في الإنسان روحًا خالدة، تختلف عن الجسد، عليه أن يرقى بوعيه إليها، ليصل إلى المعرفة الحقّ، ويدرك الغاية من وجوده ومن الوجود عمومًا، كما سنُظهر في الدراسة.

وهذه المدارس كانت نواةً قديمة، في معارفها، للديانات التوحيديّة التي جاءت من بعد، فجمعت قوى الآلهة الميثيّة في إله واحد، نسبت إليه التكوين، وعبدته مصدرًا للوجود والإنسان. لهذا السبب نجد في الديانات التوحيديّة كلّها رموزًا متعددة، كانت في الميثولوجيات القديمة، سواء أكان هذا في اليهودية (وخصوصًا في اليهودية)، أم في المسيحية، أم في الإسلام. ولا يَعني بقاء الرمز أنّ الديانة الوثنيّة قد تسرّبت إلى الديانات التوحيديّة، بل يعني أنّ جوهر المفهوم الإلهيّ هو الذي بقي خالدًا، في حين أنّ المفهوم التعدديّ الذي ظهر فيه هذا الإله قد تلاشى وانتهى. والتوحيد الذي ظهر في الديانات المتأخّرة، نسبيًّا، تمّ بفعل رقيّ عقليّ، أوصل إليه تطوّر المجتمع والعقل البشريّين، وانتقال الحضارة الإنسانيّة، شيئًا فشيئًا، إلى مستوى فهم ظاهرة التجريد التي يقوم عليها مفهوم الإله الواحد.

عسانا، بهذا البحث، أن نكون قد قدّمنا إيضاحًا لمسألة الرموز والطقوس التي تطالعنا كلّ يوم في حياتنا، والتي تسرّبت، ولا تزال تتسرّب، كطريقة في التعبير وفهم الأشياء، إلى الأخويّات والمنظّمات الفكريّة السريّة في عالمنا الحديث، هذه الأخويّات والمنظّمات التي شكّلت ولا تزال تشكّل مجتمعات تثير الكثير من الجدل، في كلّ مكان. بل أكثر: فبالعودة إلى تلك الرموز القديمة التي عرفها المستنيرون في شرح رموز الميثولوجيا، والدلالة على مفهوم التوحيد في جوهرها، يمكننا أن نجد أنّ كثيرًا منها لا يزال موجودًا في المجتمعات المشار إليها.

الفصل الأول

مدارس الأسرار والميثولوجيات القديمة والتكريس

الفصل الثاني

[illegible]

[illegible]

١ – **مقدمة**: ترى العين البشرية المظاهر المادية بصورة عامة، وتبيّن الأحجام والألوان. كما تميز الأعضاء الإنسانية الأربعة الأخرى المحسوسات على أنواعها: فالأذن تتبيّن الأصوات، والأنف يميّز الروائح، واللسان يعرف الأطعمة، والأصابع والجلد يتبيّنان الملامس.

على أنّ ثمة أمورًا أخرى لا بدّ لنا من معرفتها بغير الحواس المذكورة، كالأحاسيس، والتسلسل في الأمور، والفكر على أنواعه، وغير هذا.

ولكنّ الظواهر قد لا تبدو في كل الأحوال على ما هي عليه وحسب، بل يمكن أن تكون لها وجوه أخرى مستترّة خلف مظاهرها، أو خلف ما يمكن لَحْظُهُ فيها مباشرةً. عندئذٍ نحتاج إلى قراءة أخرى لاستكمال الفهم والوصول إلى جوهر الأشياء. وعليه، فإنّ ثمة ظاهرًا وباطنًا في الأشكال والمظاهر الطبيعيّة المرئية؛ ولقراءة الباطن ننطلق من الظاهر.

وهذه البنية الثنائيةُ التكوُّنِ تسمّى "الرمز"؛ فهو مشكَّل من طبقتين: الأولى مباشرة يسهل الوصول إليها، والثانية غير مباشرة (مضمرة) لا يمكن الوصول إليها إلا بالجهد العقلي، وإعمال التفكير والمنطق والعقل. فمعرفة الرموز تأتي نتيجة الجهد العقلي والمنطقيّ، وهو المسؤول عن أمرين: الأول قراءة الباطن والكشف عن علاقاته، وبالتالي الوصول إلى الأبعاد الروحانيّة التي تختبئ خلف المنظر المباشر، والثاني الحكم على صحّتها من خلال عملية معقّدة، مترابطة، تسمى التفكير والمنطق والتحليل.

من هنا، كانت النشأة الأولى للفكر البشري عندما راح الإنسان يسبر غور ما يحيط به بوعيه بعد أن يتعرّفه بأحاسيسه، وينفذ إلى دلالاته العميقة المستترّة خلف الظاهر. وقد واكب هذه المرحلةَ تطوّر وازهار للحضارة البشرية، لأنّ التعقيد الذي يحتاج إليه الفكر البشري ينعكس في متطلّبات للمجتمع تدفع حكمًا بالحضارة إلى النموّ والتوسّع.

ومع نموّ الفكر وولوجه إلى عمق الظواهر، راح الإنسان يفكّر في مسائل الوجود الكبرى، فيتساءل عن حُكم الخَلْق، ويتساءل عن الغاية من الوجود، وعن قوى الطبيعة وظواهرها، وعن أمور الحياة والموت، وبشكل عام عن الأسباب والغايات، فعرّف القوى الطبيعية بالآلهة في المرحلة الأولى، ثم بالإله الواحد في مرحلة لاحقة، ووضع نظامًا فكريًا يحاول فيه أن يحاكي نظام الوجود، ويقرأ من خلاله قوى الطبيعة، وأسرار الحياة والموت.

ولّما كانت الناس في نشوئها وتطوّرها ورقيّها تتفاوت في المعارف، تأسست الأسرار، وخبّأ العقل طيّات المعرفة في الرموز التي احتوت ظاهرًا وباطنًا، فكان الظاهر لعامة الناس، وكان الباطن حكرًا على من ارتقى فكره لسَبر دواخل الحقائق. هكذا نشأت مدارس الأسرار والإسراريات.

٢ – انتشار مؤسسات الأسرار القديمة: وقد انتشرت مدارس الأسرار في الحضارات القديمة، وعكست مدى رقيّ الفكر الإنسانيّ في معارج المعرفة، من أسرار "إيزيس" و"أوزيريس" الفرعونية، إلى أسرار "الميترا" الفارسيّة، إلى أسرار "أورفيوس" و"باخوس" وآيلوزيس اليونانيّة، إلى أسرار ساموتراس الكلدانية، إلى أسرار الهند وسواها. لذلك فإن مفتاح معرفة الماضي يكمن في معرفة أسراره.[١] ويقول ألبرت بايك إنّ المعرفة الباطنية (الرموز) كانت مهد كلّ الديانات وكل القوى الإلهية والظلامية والاجتماعية.[٢]

لقد كانت أصول الأسرار مع أول معلّمي البشرية، الذين يُدعَون "أبناء فينوس" (الزهرة)، وقد شكّلوا نواة "المحفل الأبيض الكبير" (أو أول أخوية بيضاء). وكان رأس

١ – Charles H. Vail, **The ancient mysteries and modern masonry**, N.Y: Masony publishing and Masonic supply co., 1909, p. 13

٢ – Albert Pike, **Morals and dogmas**, Charlestone, 1971, p. 413

هؤلاء يُعرف بأسماء عديدة، منها "الأصل الأول للتراتبيّة الباطنية" و"الكومارا"، تساعده مجموعة من المختارين المسارّين الحريصين على تطوّر البشرية الشابّة آنذاك، ومجموعة أخرى تدعى "أغنيشْفاتّاش" agnishvattas. وقد تحوّل عدد كبير منهم إلى آلهة في العرف البشري عبر الحضارات. هكذا تأسست أول تراتبيّة للعلوم الباطنية والروحانية السريّة في الأرض. وكانت هذه المعارف مشاعًا، يتعلّمها الجميع. ولكنّ بعض الحكّام والمسؤولين (الدينيين وغير الدينيين) استغلّ قوته في خلال حكمه، فبات من الضروريّ أن تُحجَب المعرفة عمّن لا يستحقها. وكان الشرط الأول عندئذ أن يستحقّ المعرفةَ طالبُها. وحرص الملوك الكهّان على هذا الأمر عبر السلالات المقدّسة الملكيّة في خلال قارّة أتلانتيس.[1] لكنّ بعضهم كان قد اكتسب المعرفة من قبل، وجعلتهم إساءة استخدام المعرفة عمالقة شرّ؛ فتحدّوا حكّام المعرفة البيضاء، وصاروا يمارسون ما دعي بـ"السحر الأسودَ"، ما ولّد صراعاتٍ قاسيةً انتهت بسقوط الشرّ، حين غرقت القارّة في المحيط. إلا أنّ ملوك المعرفة البيضاء الخيّرين، قبل غرق القارّة، كانوا قد هاجروا إلى شاطئ سلامة خارج القارة. وسيأتي تفصيل هذا في مكان لاحق. وقد نقل هؤلاء الملوك معارفهم معهم إلى أرض مصرَ، ثمّ إلى بلاد الكلدان الذين تحدّرت إليهم معارف الأتلانتيين المتقدّمة، كما نقلها بعضهم إلى وسط القارة الأميركية حيث ظهرت حضارة المايا.

وكذلك في الهند، حيث حافظ المايو، وهم الملوك الكَهَنة، على التعاليم والمعارف، ومنهم تحدّر الملوك الآريّون، وكانوا بدورهم في معارفهم أبناء حضارة عريقة أخرى هي الحضارة الليمورية - نسبة إلى قارة ليميرية الضائعة التي غرقت في المحيط قبل حضارة أتلانتيس، كما سنبيّن في الفصل الآتي. ثم انتقلت هذه المعارف الهندية شيئًا فشيئًا إلى الغرب، لتظهر معارف الفرس وحضارتهم، وتنتقل بدورها غربًا لتتصل بمعارف الأتلانتيين الباقية في مصر وبلاد آشور وكنعان. ومن هؤلاء جميعًا انتقلت المعارف إلى اليونان القديمة.

---

١ - Ibid, p. 14 - 15

وكان يحافظ على الأسرار في تلك الأيام مُسارّون كبار نهلوها من نظام متطوّر قديم. ومن هؤلاء انتقلت إلى الشرق والغرب.

وتتحدّر الأديان من مفاهيم طبيعيّة على علاقة بنظام الحياة والموت، غنوصيّة ومعرفيّة. ومصدر كلّ الديانات رجال مقدّسون شكّلوا أخويّة معلّمين روحانيين، وعلّموا الناسَ في العالم وفقَ حاجاتهم، وصاروا الحرّاسَ الروحانيين لكلّ الأعراق، وهذا ما تؤكّده الكتب الدينيّة كلّها.

هكذا لم يكن الإنسان البدائيّ البعيد عن الحضارة متروكًا لمصيره، بل قادته قلّة مستنيرة سرًا نحو الحضارة شيئًا فشيئًا.

وبالعودة إلى تجربة إساءة استخدام السلطة والقوّة التي عرفها الأتلانتيون، كان لا بدّ من الرموز والأسرار، لأنّها تُخفي الحقيقة في الباطن، فيكون ظاهرها للعامة، وباطنها وجوهرها للخاصة من المسارّين الذين تُكشَف لهم حقائقها العميقة، كيلا يساء استخدامها، أو تُستخدَم بأنانيّة؛ ذلك لأنّ هدف الأديان، أساسًا، هو تطوير الجنس البشري والإنسان، وتعريفه بقضايا الطبيعة الكبرى والأساسية التي تتحكّم بالوجود، وهي قضايا الحياة والموت على أشكالها، كما تتراءى في الطبيعة النباتية والحيوانية والبشرية. وهذا التطوير يعطي الإنسان في كثير من الأحيان أقصى ما يطمح إليه: الخلود، ويبعد عنه همّ الزوال – تلك المشكلة الوجودية التي عاناها منذ أقدم الأزمنة. لهذا السبب، أُعطِيَت الناس الأسرار بحسب مستوى فهمها، فأُظهِر للجهّال والعامة قشرتها الظاهرة، وما يمكنهم أن يفهموه منها، في حين كانت تُكشَف للمستنيرين أسرارُها وحكمتها والمعارف العميقة التي تختزنها.

وكان المعلمون الكبار ينقلون الأسرار والمعارف بشكل خاص من خلال الرموز والحكايات الرمزية.[1] حتى "فيثاغورس" قسم تعاليمه قسمين: ظاهرية وباطنيّة، وحرّم

---

١ – Ibid, p. 19

كتابتها، تمامًا كما فعل القدامى الذين علّموه هذه الأسرار. ومثل هذا، كانت تعاليم مصر القديمة للأسرار، وكان شكل أبي الهول يرمز إلى ضرورة الكتمان لما في أعماق الهيكل المحيط به، وهو هرم "خوفو" الذي يتّصل به عبر السراديب الخاصة بالتكريس الإسراريّ. وكذلك في الأسرار الهرمسيّة حيث جاء في القَسَم: "وأنتَ، يا "تُوتُ" و"إسليبيوس" و"آمون"، تختبئ أسرارَك المقدّسة في نواحي قلبك، ولا تنبس بكلمة عن محتواها."[1]

على أنّ المعلّمين كانت لهم وسائلهم الخاصة في تدوين أسرارهم حتى لا يتمكن من التوصّل إليها أحد غير المسارّين. فالطرق الكاباليّة، مثلاً، ثلاثة، هي: الجيماتريا (علم الأرقام) التي تقوم على معاني الكلمات الرقمية (إذ يعطون أحرفَ الكلمة المعانيَ التي تحتملها كأرقام)، والتيمورا التي تكشف بها الكلمةُ أسرارَها بالتناقض (تقليب أحرف الكلمة)، والنوتاريكون وهو الاختزال، ويمكن مقارنة هذه الطريقة بالكتابة الاختزالية. وهذا النظام، نظام الحروف – الأرقام، كلدانيّ الأصل، أخذه العبريون عنهم، وطبّقوه في الكابالا؛ فالكلدان فسّروا نشأة الكون بها، وبها أيضًا كتبوا كتبهم المقدسة، ومثلهم فعل "فيثاغورس" في تفسيره، وكذلك الغنوصيّون.

إنّ هدف التكريس والإسراريّة تعليم الإنسان الاتصال بعالم من القوى التي تفوق تلك التي يعرفها. ولكنّ هذا الاتصال لا بدّ له من تحضير وتطهير ذاتيّ من خلال تعليم وعمل مشتركين، وتعرُّف إلى معاني الرموز والإشارات في كلّ شيء، ولا سيما في الأسرار التي تُلقَّن.[2] من هنا فلا بدّ للتكريس والطقوس من أن تكون تجارب إيجابيّة، لأنّهما يربطان المكرَّس بقوى طبيعيّة وروحانيّة كبيرة.[3] وبالتالي تُعَلِّمُ الأسرارُ الإنسانَ أن يتطوّر فكريًا وروحيًا، وبالتالي تفترض نموًّا روحيًا مميّزًا للإنسان، ووعيًا فائقًا، وذلك لفهم الحكمة

---

١ – Ibid, p. 22

٢ – Victor Popow, **Ritual – It's importance and meaning**, in: the cornerstone society, www.Cornerstonesociety. Com, p. 2

٣ – Ibid, p. 4

الإلهية، وطبيعة الله من خلال تطوّر مخلوقاته. وارتقاء الإنسان روحيًا يوصله، في النهاية، إلى ضرب من الاتّحاد بالذات الإلهية، أو بالوعي الإلهيّ، وهذا ما يسمّى "الإشراق". فـ"الغرض من الاحتفالات في الأسرار هو ربط الإنسان بجوهر العالم وبالألوهية."[١] وقد ذكر بعضهم أنّ الإله في التكريس الإسراريّ يمكن أن يتجلّى لعين المُسارّ بأشكال مختلفة، أو بنور يتّخذ هالة بشريّة أو غير بشرية.[٢] وفي هذا المجال، صرّح "شيشرون" أنّ تأسيس أسرار إيلوزيس (التي سنأتي على تفصيلها لاحقًا) كان أعظم مكتسبات أثينة والمجتمعات الأخرى التي عرفت تلك الأسرار، لأنّ مفاعيلها كانت تُحضّرُ الإنسانَ وتخلّصه من تقاليده البربريّة، وتلقّنه مبادئَ الأخلاق الحقيقيّة التي تربطه بالحياة الوحيدة الجديرة به كإنسان.[٣] وفي الواقع، فإنّ الاسرار تطهّر روح الإنسان، لأنّ هذه يجب أن يكون مسكنها الحقيقيّ دوائر الأنوار، حيث تتّحد بالله. والأسرار أيضًا تعلّم الإنسانَ - كلَّ إنسانٍ - أن يتفحّص الحقائق الروحية الكامنة فيه، وتقوده إلى الطريق المناسبة لهذا.

وكان القدماء يهيّئون طالب الأسرار مدة ثلاث سنوات تقريبًا ليصير جاهزًا نفسيًّا وعقليًا لقبولها، وذلك من خلال سلسلة كشوف معرفيّة مقنعة؛ وحين يصير جاهزًا يُنقَل إلى داخل الحرم المقدس من أجل أن يُكشفَ له الغرض الحقيقيّ من تكريسه.[٤] ومن تلك الإسراريّة تحدّر كبار الفلاسفة القدماء المبدعين في الفلسفة[٥]، أمثال "طاليس"، و"فيثاغورس"، و"أفلاطون". وكان "موسى" نفسه الذي ربّاه الفراعنة[٦]، وتمّ تكريسه

---

١ - Charles H. Vail, **The ancient mysteries and modern masonry**, p. 25

٢ - Ibid, p. 26

٣ - Ibid, p. 29

٤ - Un vétéran de la maçonnerie, **Manuel maçonnique**, Paris: éd. Hubert, 1820, p. 13

٥ - Ibid, p. 14

٦ - يقول فرويد في موسى: "موسى كان فعلاً مصريًا. وفي غالب الظن مصريًا نبيل الأصل. وقد جعلت الأسطورة من هذا المصري يهوديًا." (سيغموند فرويد، موسى والتوحيد، تعريب: جورج طرابيشي، بيروت: دار الطليعة، ط٤، ١٩٨٦، ص ١٧). ويقول: "موسى، محرر الشعب اليهودي ومشرّعه، كان مصريًا ، لا يهوديًا... (و)احتاج الشعب إلى أن يجعله يهوديًا. وكان الباحثون قد لاحظوا منذ زمن بعيد

كاهنًا أكبر في حضرة "أخناتون"، أوّل داعية للإله الحقيقيّ الواحد، الذي اتّخذ مع اليهود فيما بعد اسم "يهوه". ويبدو أن الإله اليهودي الأول الذي كان في أساسه مصريًا لم يلبث أن تغيّر مع الوقت حين اختلط العبريون من اليهود بسكان منطقة سيناء الذين كانوا يعبدون إلهًا هو "يهوه"، إله البراكين والغضب، فتحولت ملامح الإله الشمسي المصري مع الوقت إلى ملامح هذا الإله الغضوب العنيف.

وكانت شريعة "موسى"، في ذاك الوقت لا تزال محاولة غير مكتملة لتطبيق مبادئ الإسرارية، ولم يُكتب لها الاكتمال إلا مع المسيحية (الكاثوليكية خصوصًا)، التي نشرتها في العالم كله.[1]

بهذا نفهم أنّ الأسرار والإسراريات كانت طريقًا للوصول إلى الحقيقة والنور، لأنّ القدماء خبّأوا معارفهم العميقة في رموزهم، وحجبوها عن العامة. وكلما شاع تقدّم

أن اسمه مشتق من مفردات اللغة المصرية..." (المرجع نفسه، ص ٢٣). ويقول: "وإذا كان موسى، الذي أتاهم بدين جديد، مصريًا، فكل شيء يحمل على الاعتقاد بأن هذا الدين الجديد كان فعلاً وحقا الدين المصري." (ص ٢٥). ويقول: "إذا كان موسى حقا وفعلاً مصريًا، وإذا كان قد أعطى اليهود ديانته ذاتها، فقد كانت ديانة "أخناتون"، ديانة "آتون"." (المرجع نفسه، ص ٣٣). ويقول: "وإذا لم يكن من قبيل المصادفة أن اسم "آتون" المصري يذكر باللفظة العبرية Adonai وبالاسم الإلهي السوري "أدونيس"، وإذا كان هذا التشابه نتيجة لتماثل في المعنى واللغة، فإنّ في مستطاعنا ترجمة العبارة اليهودية على النحو التالي: "إصغي يا إسرائيل، إن إلهنا "آتون" (Adonai) هو الإله الأوحد." (المرجع نفسه، ص ٣٤). ويقول: "من الصحيح أيضًا أنّنا إذا تساءلنا من اين جاءت اليهود عادة الختان ما أمكننا أن نجيب إلا بالقول: "من مصر"." (المرجع نفسه، ص ٣٦). ويقول: "إن الدين الموسوي كان في أرجح الظنّ ديانة مصرية." (المرجع نفسه، ص ٣٧). ويقول: "إننا نقتبس الفكرة القائلة بأن الديانة التي جاء بها المصري "موسى" قد هجرت بعد أن اغتاله اليهود." (المرجع نفسه، ص ٥٠) ويقول: "من المستحيل أن يكون شخص عظيم كالمصري "موسى" قد مثل بلا مواكبة أمام شعب أجنبي. بل كان يرافقه بالتأكيد حاشية: أنصار مقربون، كتبة، خدم. هؤلاء جميعًا كانوا اللاويين الأوائل. وحين يجعل المأثور من "موسى" لاويًا، ففي ذلك تشويه ظاهر للوقائع. فاللاويون كانوا بطانة "موسى"... وفي وسعنا الافتراض بأن عددًا كبيرًا من بطانة "موسى" هؤلاء، قد أمكن لهم النجاة من من النكبة التي نزلت بالنبي وبالديانة التي أسسها." (المرجع نفسه، ص ٥٢)

١ – Un vétéran de la maçonnerie, **Manuel maçonnique**. p. 14 - 15

الحضارة وتطوُّر العقل وتوسّعه، ابتعد الإنسان عن الروح. ونحن اليوم في غمرة حضارتنا ومجتمعاتنا يبدو أنّنا مفصولون عن روحنا، وعن سبب وجودنا، وما يُفترَض فينا أن نكون.

وفي ها المجال، كتب "يونغ" ما معناه أنّ الإنسان الحديث اليوم يعرف أنّ عقلانيّته التي دمّرت استجابته لأدنى مستويات الرموز والأفكار وضعته تحت رحمة عالم الحالات النفسية السفلى؛ فقد حرّر نفسه من الأوهام، ولكنه فقد مثُله الروحية إلى حدّ خطير. وهو يدفع ثمن حَرْفِهِ العالم عن مساره وتفسيخه.[1] فقيمه الاجتماعية تنهار، وكذلك مُثُله.

٣ – خاتمة:

هكذا كانت الأسرار القديمة ضميرَ الوعي الكونيّ بشكل عام، وكانت الرموز التي اختبأت الأسرار في أعماقها مصدرها الطبيعة بشكل عام، وما فيها من هندسة رائعة تظهر لمن يتأمّل ناموسها وقوانينها التي تطّرد في أشيائها. والنظر الملّيّ في هذه القوانين العامة هو الذي جعل القدماء يستنبطون المعرفة والحكمة، ويقدّرون عمل الخلق على شتى المستويات.

ولكن كيف بدأت هذه الأسرار، وما كانت وظيفتها في غمرة الميثولوجيا القديمة وعوالم الآلهة؟ وكيف كان الطالب يُسارّ في الحرم المقدس الخاص بالتكريس؟ وكيف كان هذا التكريس يتمّ؟ هذا ما سنتناوله في الفصول الآتية.

---

١ – Victor Popow, **Ritual – It's importance and meaning**, p. 2

الفصل الثاني

قارتا ليمورية وأتلانتيس والأسرار



١ – مقدمة: لا شكّ في أن الحضارة الإنسانية قديمة، والأسرار فيها كذلك. وإذا أردنا العودة إلى ينابيع تلك الحضارة وأسرارها كان علينا أن نعود إلى أزمان موغلة في القِدَم لنكتشف ينبوع الأسرار فيها، وتوزّعه من المركز المعرفيّ إلى الخارج من حوله. ومن المعروف أن الكرة الأرضية عرفت تحوّلاتٍ في شكل قشرتها بفعل العوامل الطبيعية والتكتونية التي جعلت القارات تنفصل شيئًا فشيئًا عن بعضها، ما يعني أنّ عدد القارات في الماضي كان مختلفًا، وشكل الأرض كذلك، وهذا أمر أثبته العلماء. كما أثبتوا أنّ قارتين من القارات الأرضية قد غرقتا تحت مياه البحر، واحدة تحت مياه المحيط الهادئ هي قارة ليمورية، والأخرى أحدث منها، هي قارة أتلانتيس التي حمل اسمها المحيط الأتلانتيكي (المحيط الأطلسي).

والمعلومات عن هاتين القارتين قليلة عمومًا، ولا سيما القارة الأولى التي ذكرنا. في حين أن القارة الثانية ذكرها "أفلاطون" وتكلم عليها وعلى بعض حروبها في محاورتي "كريتياس" و"تيموتاوس"، وقد استقى معرفته بهما من مدارس الأسرار المصرية التي تعلّم فيها. هاتان القارتان هما أمّ الحضارات البشرية.

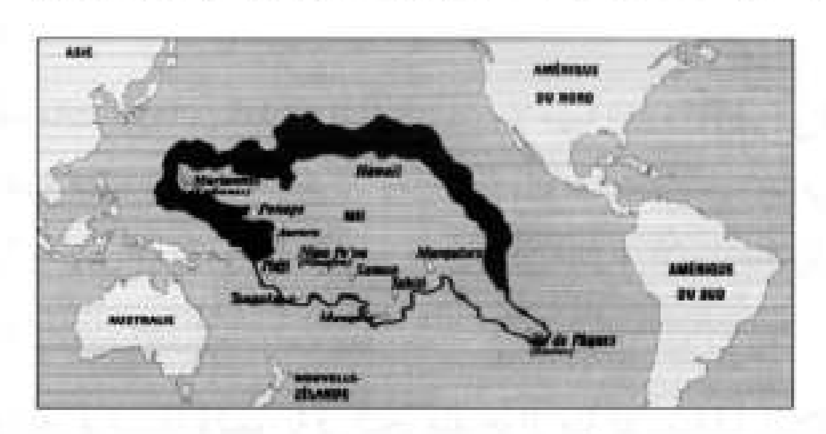
٢ – ليمورية: غرقت قارة ليمورية في البحر منذ حوالي مئة ألف سنة قبل الميلاد. وكانت هذه القارة تصل القارة الأميركية المعروفة اليوم بجنوب آسية، وبأوقيانية (راجع الرسم).



(الرسم ١: في الصورة قارة ليميرية الضائعة في الوسط، كما صارت في المرحلة النهائية قبل غرقها، وكانت متصلة قبل ذلك بأستراليا وآسية وأميركا)

أما المناطق الأخرى، كأفريقية والقسم الأكبر من آسية وأميركة، فكانت مغمورة بالمياه، أو أنّها كانت مناطق موحلة ومستنقعيّة ومائعة لا تصلح للسكن[١]. على هذه القارة ولدت الحضارة البشرية.

وقد أسماها بعضهم قارة "المو" Mu، نسبة إلى شعب المو الذي تحدّرت منه قبائل المايا القديمة في أميركة الوسطى، وعدد من قبائل الهنود الحمر بأميركة. وقد رسم بعضهم خارطة لتمركز المو في المكان الذي اعتبر القارة واقعة فيه قبل غرقها، أو على الاقل في ما بقي منها بعد أن بدأت القارات بالتفكك والانفصال عن بعضها (الرسم ٢).



(الرسم ٢: الجزيرة في الوسط هي أرض المو، وهي بقايا من ليمورية كما يظهر من مقارنة الرسم ٢ بالرسم ١)

فالجزيرة الوسطى هي التي بقيت من قارة ليمورية، وهي التي اعتبرت أرض المو، كما يبدو في الرسم ٢، وكانت من قبل ملاصقة لأسترالية وآسية وأميركة.

ويبدو أن حجم الليموريين كان أكبر بقليل من أحجامنا اليوم، لأنّ معدّل الطول عندهم كان حوالي مترين. ولم تكن أرجلهم طويلة، ولكنّها كانت قوية. وكذلك رقابهم

---

١ - Wishar S. Servé, **La Lémurie continent perdu du Pacifique**, trad: inconnue, Paris: éd. Rosicrutiennes, 1974, p. 43

كانت أطول من رقاب الناس اليوم[1]. ومع الوقت، بدأت هذه القارة تغرق شيئًا فشيئًا في المحيط الهادئ، واكب هذا فعل انفصال القارات عن بعضها، أو تلاه، لذلك بدأت الهجرات الجماعية نحو القارة الأميركية خصوصًا، وآسية، وأسترالية، وربما يكون بعضهم وصل إلى قارة افريقية مرورًا بالقارة الثانية الضائعة التي تربط بين أميركة وأفريقية: أتلانتيس[2]. وقد ارتبطت بليمورية نظريات تقول إنها هي كانت جنة عدن المذكورة في "سفر التكوين"[3]، فالجنة كانت واقعة بين الهند وتسمانية، وهي قارة تشبه على الأرجح قارة أتلانتيس[4]. ولكن لا يمكننا التعويل على هذه النظريات.

وهذه القارة الضائعة كانت تحتوي على أعراق قديمة بقاياها تظهر في أعراق الهنود الحمر الأميركيين، والإسكيمو، وبعض سكان آسية الشرقية الساحلية، وأوقيانية. هذه الأعراق انتشرت في بعض القارات المتباعدة، ولا سيما القارة الأميركية، وسطًا وجنوبًا، وشمالاً، لأن المهاجرين من الليموريين عبروا إلى القارة الأميركية خصوصًا، في الغرب، وإلى الهند وشرقي آسية القريبة من البحر، في الشرق، وظهرت في تلك المناطق بعض البقايا من حضاراتهم القليلة. وهذا ما يفسّر انتشار فنون متشابهة للعمارة في مناطق متباعدة من الكرة الأرضية عرفتها الحضارات القديمة، كأهرام المايا وأهرام مصر، أو صورٍ من رموز متوسطية وأخرى غريبة عن المتوسط في الهند خصوصًا، على الرغم من اختلاف تلك الحضارات عن بعضها وبُعدها؛ فمردّ هذا إلى كون تلك الحضارات في الأصل حضارة واحدة قديمة تشتتت بعد غرق القارة الأم[5]، وقد عبرت من خلال قارة أخرى غرقت

---

١ - Ibid, p. 75

٢ - Ibid, p. 112

٣ - Sämuel Aun Weor, **La révolution de bel**, e-book, Colombie, 1ère éd. 1950, p. 36

٤ - Shumati Ramaswamy, **The lost land of Lemuria**, London: University of California press ltd, 2004, p. 56

٥ - Loc. Cit.

بدورها، هي أتلانتيس. وقد رأى بعضهم أنّ بعض الأعراق التي كانت في مصر الفرعونية كانت من أصل ليموريّ(١).

ويبدو أنّ هذه الشعوب عرفت نوعًا من الأسرار، انتقلت منها إلى بقاياها في القارات المنفصلة عنها بعد أن غرقت قارتهم؛ ولكنّها لا تزال غامضة، وإن تكن ترسباتها في عقائد بعض الهنود الأميركيين الحمر، أو في بعض الأعراق الآسيوية بأقصى الشرق، وفي بعض أوقيانية، وهي بمعظمها عبادات وعقائد نالها الكثير من التحريف والتغيير عبر الزمن. وحتّى الميثولوجيا التي عرفوها لم تكن واضحة بالنسبة إلينا، ولا يسعنا هنا أن نميز إن كانوا وصلوا إلى الطور الميثولوجي، أو أنّهم كانوا في المرحلة الطوطمية. ولكنّ بعضهم يرى أنّهم كانت لهم عبادات متطورة، ولم يكونوا طوطميين، ولا دليل يؤكد هذا الزعم.

وكانت مرحلة ليميرية هذه أولى المراحل البشرية التي نما فيها العقل الإنساني، وعبر نحو الحضارة. وهي مرحلة لم يسعها أن تستمر لأنّ الكارثة التي حلّت بتلك القارة كانت موغلة في القدم، ولم يكد يبقى شيء من آثارها.

٣ ـ أتلانتيس والآلهة/ التاريخ والرموز ونشوء الأسرار:

أ ـ أتلانتيس: **القصة الأفلاطونية والموقع الجغرافي**: أوّل ما جاء ذكر قارة أتلانتيس في محاورتي "أفلاطون": "كريتياس" و"تيماوس". فهو في "كريتياس" يذكرها في معرض كلامه على الحرب التي جرت بين الأثينيين والملوك الآتين من خارج جبال

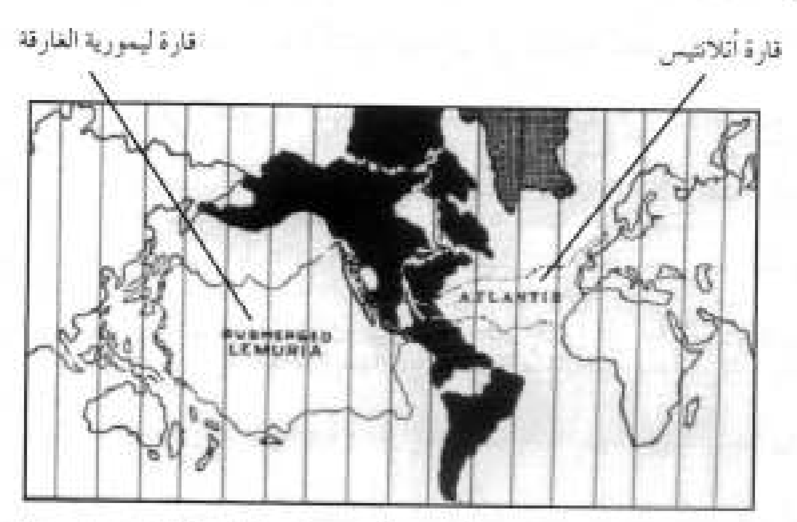
١ ـ Wishar S. Servé, **La Lémurie continent perdu du Pacifique** p. 114

هرقل (أي من المحيط الأتلانتيكي). هؤلاء، كما ذكر "أفلاطون" أتوا من قارة كبيرة "أكبر من ليبية وآسية"، كما ذكر، ثم غرقت في البحر بفعل الزلازل، فصارت أرضها معبرًا طينيًا لكلّ المسافرين من أوروبة إلى المحيط (الأتلانتيكي)، وذكر أيضا أنّ هذا كان منذ تسعة آلاف سنة[١]. والكتاب يتناول في كلامه تفصيلات عن هذه القارة يعمد إليها "أفلاطون" في محاورته لدعم حججه الفلسفية في كلامه مع "سقراط" و"هرموقراطس"، و"كريتياس"، و"تيماوس"، حيث يبدأ بالكلام على توزّع الآلهة الأرضَ بينهم، وابتعادهم عن الحروب، وقيادتهم للبشر، وكيف ظهرت الشرور بعد أن سقطت القارة واستلم الحكم في الممالك بشر كانوا قد لجأوا إلى الجبال، وكانوا جاهلين للفنون والحضارة والفكر[٢].

ويذكر في محاورة "تيماوس" أيضًا أن قارة أتلانتيس كانت أكبر من ليبية وآسية معًا، وأن هذه القارة كانت معبرًا إلى بحر أكبر بكثير من المتوسط حتى إنّ المتوسط إذا ما قورن بحجمه يكون بمنزلة مرفإ له. ومن خلال جبال أتلانتيس كان يمكن الوصول إلى أوروبة وتيرانية، وإلى ليبية ومصر[٣]. وذكر أنّهم كانت لهم مستعمرات في ليبية وصولا إلى مصر، وفي أوروبة وصولا إلى تيرانية[٤]. ثم يذكر مجددًا أنّ هذه القارة غرقت في البحر، وأنّ بعض المناطق الضحلة التي نجدها في المحيط الأتلانتيكي هي بقايا هذه القارة[٥].

١ – Plato, **Critias**, e-book: Geutenberg project, p. 6 - 7
٢ – Ibid, p. 7
٣ – Plato, **Timaeus**, e-book: Geutenburg project, p. 7
٤ – Ibid, p. 62
٥ – Ibid, p. 7

بهذا يكون "أفلاطون" قد حدّد لنا موقع القارة المفقودة، كما حدّد لنا في محاورتيه هاتين دمارها ومستعمراتها التي يبدو أنّها كانت على شواطئ حوض المتوسط. والرسم ٣ يحدد موقع القارة:



(الرسم ٣: خارطة تظهر موقع كل من أتلانتيس وليمورية التي كانت آنذاك قد غرقت في المحيط)

ويبدو أن أتلانتيس كانت قارة ذات حضارة راقية، حتى إنّ بعضهم نسج من حولها القصص الغريبة المختلفة تمامًا عمّا رواه "أفلاطون". ومن هذا أنّها كانت أرضًا سكنتها مخلوقات من كوكب آخر منذ حوالي ثلاثين ألف سنة، وأنّ هذه المخلوقات خلّفت فيها بعض النصوص التي تعكس تلك الحضارة، منها بقي في العهد العتيق كـ"الرجال الآلهة"، وكتاب أخنوخ"، والرامايانا، والمهابهاراتا، والفيدا وسواها...[١]

لكننا سنحاول الكلام على هذه القارة ورمزيتها من خلال ما جاء في كتابي "أفلاطون" السابقي الذكر، لأنّ "أفلاطون"، كما هو معروف، درس في مدارس الأسرار بمصر، والفراعنة يمتّون بصلة مباشرة إلى الأتلانتيين – وهذا ما سنأتي على ذكره.

١ – Michael Tsarion, **Atlantis alien visitation and genetic manipulation**. California: Angels & work publishing, 1st. ed. 2002, p. 1

ب – كيف كانت قارة أتلانتيس: بناء على ما جاء في كلام "أفلاطون"، إنّ الآلهة قد تقاسمت الأرض[١] وفقًا لألوهية كلّ واحد منهم. فبنى كلّ إله معبدًا له في أحد أقسام المملكة التي صارت تخصّه، كما وضع نظامًا كهنوتيًا وطقوسًا للعبادة. وكان "بوزيدون" قد أعطي البحرَ وقارة أتلانتيس[٢]، واسماها بعضهم باسمه (قارة "بوزيدون").

وكانت تلك القارة "الأفضل في العالم"، على حد تعبير "أفلاطون"[٣]، وفي وسطها جبل كان مقرًا لثلاث كائنات بشرية، بدائيّة اقامت فيه: "إيفينور"، وزوجته "لوسيبا"، وابنتهما "كليتو" الرائعة الجمال. وما لبث "بوزيدون" أن تودّد إلى "كليتو" بعد موت والديها، وتزوجها، وأنجب منها خمسة توائم، فقسم القارة عليهم، ورأّس "أطلس" ابنه الأكبر عليهم، وسمّى "بوزيدون" الجزيرة التي أقام عليها أتلانتيس، والبحر الواسع المحيط بها المحيط الأطلسي نسبة إلى ابنه "أطلس"[٤]. وكانت هذه القارة تبدو كأنّها تتألف من جزيرة واحدة كبيرة ولكنها في الواقع جزيرتان كبيرتان متلاحمتان، تسمى الكبرى دايتا، والصغرى بوزيدونيس، بالإضافة إلى عدد كبير من الجزر الصغيرة التابعة لهما، ولا سيما في جهة الغرب. وكان في وسط الجزيرة الصغرى سهل مديد، كما نفهم من "كريتياس"[٥]، يحدّها من الغرب والشرق والشمال سلسلة جبال بركانية، وفي الجنوب سهل أصغر من سهل الوسط، تحدّه جبال أيضًا، وفي وسطه أقام "بوزيدون" معبده[٦].

وكان "بوزيدون"، قبل ولادة أولاده، قد قسم القارة وسواحلها مناطقَ مركزية رائعة من اليابسة والماء: منطقتين من اليابسة، وثلاثة من الماء أحاطت بالجزيرة المركزية في

---

١ – Plato, **Critias**, p. 7

٢ – Ibid, p. 9

٣ – Ibid, p. 8

٤ – Manly P. Hall, **The secret teaching of all ages**, S. F: H. S. Crocker, company incorporated, 1928, p. 81

٥ – Op. cit, p. 9

٦ – Gerry Forster, **The lost continent rediscovered**, U. S: Adventures unlimited press, 2001, p. 3

الوسط، يسقيها نبعان: بارد، وحارّ. ويبدو أنّ هذه القارة كانت تعرف ثمارًا طيبة وزراعة مزدهرة[١]، فالبحيرات المائيّة جعلت الزراعة تزدهر.

وقيل إنّ الإله "بوزيدون"، عندما حصل على أتلانتيس، بنى له ولزوجته "كليتو" بيتًا على الهضبة الوسطى من الجزيرة، وحفر ثلاث خنادق مائيّة حوله ليحمي زوجته وأبناءه العشرة. وكان مركز المدينة الأساسي دائريًا، مبنيًا على هضبة تحيط به الجبال[٢].

وقد استمر ابناء "أطلس" يحكمون القارة، فتمكّنوا بحكومتهم الحكيمة وصناعتهم الراقية من جعل أتلانتيس جديرة باسم بلاد الآلهة لرقيّها. وكانت موارد البلاد الطبيعية لا حدّ لها: من معادن ثمينة، وحيوانات برية مدجّنة، وعطور، وغير هذا.

وقد شاد الأتلانتيون القصور والمعابدَ والمرافئ، وأتقنوا الملاحة، وحفروا قناة تربط المحيط الأطلسي بالجزيرة المركزية حيث كانت القصور ومعبد "بوزيدون"، كما أقاموا جسورًا وأقنية ربطت كل أقسام القارة الجزيرة ببعضها[٣].

كما استخرج الأتلانتيون صخورًا بيضاء وسوداء وحمراء من الأرض للبناء، وأحاطوا كلّ مناطق اليابسة بأسوار. وكان في وسط الجزيرة المركزية من جهة سهلها الجنوبي معبد خاص محاط بجدار من الذهب لـ"بوزيدون"، ذكرناه قبل قليل، وفيه تمثال له ولزوجته "كليتو". داخل هذا المعبد ولد أبناء "بوزيدون" العشرة، وكان أبناؤهم يقدّمون له فيه ما يقدّمون. كما وُضع في الداخل تمثال لـ"بوزيدون" واقفًا على عربة تجرّها ستة جياد مجنّحة، وحوله مئة حوريّة تمتطي كلّ منها دلفينًا. وخارج المعبد تماثيل عشرة لأبناء "بوزيدون" وزوجاتهم.

---

١ – Ibid, p. 4

٢ – Ibid, p. 6

٣ – Manly P. Hall. <u>The secret teaching of all ages</u>, p. 81

ويبدو أنّ الأتلانتيين كانت لديهم مستعمرات خارج الجزيرة، في أوروبة الجنوبية، وشمال أفريقة، كما ذكر "أفلاطون"[1]. وقد خاض الأتلانتيون حروبًا مع الأثينيين في أوروبة.

وكان كلّ قسم من القارة يحكمه ملك، وجميع هؤلاء الملوك متعاهدين على التعاون. وكانوا يجدّدون قسَمهم على البقاء متعاونين كلّ خمس سنوات أو ستّ في أثناء حجّ يقومون به إلى معبد "بوزيدون" الذي سبق ذكره وسط طقوس احتفالية خاصة. وكان القانون الأول لديهم ألاّ يشهر أحدهم سلاحًا على الآخر. كما كان للمتحدّرين من نسل "أطلس" القرارُ في مسائل الحرب والسلم[2].

أما بالنسبة إلى دمار القارة، فيبدو أن "أفلاطون" تكلّم على دمار القسم الأخير منها، أي جزيرة "بوزيدونيس". فمن المعروف أنّها سقطت تحت ضربات الزلازل والبراكين، وغرقت في المحيط. ولكنّ هذه الكارثة الطبيعية لم تأتِ دفعةً واحدة، بل جاءت على دفعات، كانت آخرها في العام الذي ذكره "أفلاطون".

ويبدو أن الدراسات الجيولوجية والجغرافية تقول إنّ هذه القارة قد تمّ دمارها على أربع مراحل. كانت المرحلة الأولى قبل حوالي ثمانمئة ألف عام، والثانية حصلت قبل مئتي ألف، والثالثة قبل ثمانين ألفًا، وكانت كارثة كبيرة ذهبت بمعظم القارة، تاركةً الجزيرة التي أسماها أفلاطون بوزيدونيس؛ وقد غرقت هذه الجزيرة في الكارثة الرابعة الأخيرة التي حصلت منذ حوالي تسعة آلاف وخمسمئة عام[3].

---

١ – Plato, **Timaeus**, p. 7

٢ – Manly P. Hall, **The secret teaching of all ages**, p. 84

٣ – W. Scott-Eliotthe, **Story of Atlantis and Lemuria**, U. S: the theosophical publishing house ltd, 1st. ed, 1896 [illegible], p. 8

وفي هذا السياق، عُثر على وثيقة قديمة للمايا هي الآن في المتحف البريطاني، عمرها ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة، تدعى "وثيقة تروانو"، فيها وصف لدمار جزيرة بوزيدونس آخر ما بقي من أتلانتيس، جاء فيها: "العامَ السادسَ من خان، في الحادي عشر من مولوك، بشهر زاك، بدأت زلازل تجتاح الجزيرة، واستمرت بلا انقطاع حتى الثالث عشر من شوان. وقد تمّت التضحية ببلاد جبل الطين، وأرض مو: فبعد أن ارتفعت مرتين، اختفت فجأة في أثناء الليل، وقد هزّت حوضها قوى البركان بشكل مستمرّ. ولأن تلك القوى كانت محصورة، أدّت إلى غرق الأرض وانبثاقها مرات عديدة، وفي مواضع مختلفة. وفي النهاية، غاب السطح، وغرقت عشر بلاد وتبدّدت حين لم تتمكّن من الصمود في وجه هذا الهياج الطبيعيّ بسكّانها الأربعة والتسعين مليونًا، وذلك قبل ثمانية آلاف سنة وستين من كتابة هذا الكتاب.[1]"

ج – أتلانتيس خارج القارة/ المملكة الأوزيريسية:

ذكرنا أنّ الأتلانتيين كانت لهم ممالك خارج قارتهم. وقد أشار إلى هذا "أفلاطون". والدليل على صحة كلامه أنّ تقاليدهم كانت منتشرة في بلاد الغال بفرنسة منذ القديم. وقد أشار بعض المؤرخين الرومان ("تيماجينوس") إلى هذا الأمر. ويبدو أنّ بلاد الغال عرفت في الماضي ثلاثة شعوب رئيسة:

١ – الأول هو الشعب الأصلي الذي كان مقيمًا في البلاد، وهم من بقايا قارة ليمورية كما يرجّح بعضهم.

٢ – والأتلانتيون الذين جاءوا من الخارج، وأسسوا مملكة.

٣ – والآريون الغاليّون[2].

---

١ – Ibid, p. 15

٢ – Ibid, p. 14

وقد وصف المصريون القدامى أنفسهم بأنّهم حُمرُ العرْق، تمامًا كهنود أميركة[١]، ما يعني أنّ بينهم وبين العرق الهندي الأحمر قرابة ونسبًا، وهذا العرق هو الذي تحدّر منه الأتلانتيون الأصليون.

وكانت للأوزيريسيين، وهم من بقايا الأتلانتيين، مستعمرات في وادي البحر المتوسط، وخصوصًا في شمال أفريقية. وقد حملوا اسم المؤسس الحقيقي لمملكتهم: "أوزيريس". وكانوا على سلام ووفاق مع الآخرين المتحدّرين من عرقهم آنذاك. وفي الواقع فإنّ في قاع البحر المتوسط أكثر من مئتي مدينة غارقة بفعل العوامل الطبيعية، عُثِر على بعضها، ومعظمه مدن ذات حضارة متطورة.

ويبدو أن الأتلانتيين كانوا عمومًا ميّالين إلى السلام، ولكنهم أقوياء في القتال إذا اضطرهم الأمر إليه، وهذا الأمر بيّن في توافق ملوكهم على تقاسم السلطة وتعاهدهم على عدم القتال، ما يعني أنّهم كانوا أصحاب ديانة بيضاء وقوى خيّرة بصورة عامة.

ولكن ينقل بعضهم أنّ عبادة سوداء شاعت في أتلانتيس قبل دمارها، هي عبادة "أبناء بَلبال"، أسسها أمير هو "بلبال" الذي سيطر عليه أخوه الشرير "سيت". والعبادة المذكورة سلبيّة في قيمها وعاداتها، تناقض القيم التي قامت عليها مملكة أتلانتيس القديمة. ويقال إنّ هذه العبادة كان مركزها الأساسي في معبد بداخله هيكل "ماترا"، يقع على قمة جبل "أسوريس"، حيث كانت تُقام احتفالات خاصة[٢]، كما كان طلبة الأسرار فيها يخضعون لاختبارات معيّنة من أجل قبولهم في إسرارية المعرفة السوداء[٣].

وكان أحد الأمراء يدعى "أوزيريس" رافضًا لتلك العبادة، بسبب ميله إلى قوى الخير، وهو متحدّر من سلالة أتلانتيس المالكة. وبسبب ولائه لإله الشمس وحبّ الشعب له

---

١ – Ibid, p. 11

٢ – Sâmuel Aun Weor, **La révolution de bel**, p. 43

٣ – Ibid, p. 44

عمل "سيت" على إقصائه من السلطة في أتلانتيس مع زوجته "إيزيس" وأختها "نفتيس"، وحاول أن يقتلهم. لهذا هجروا القارة مع أتباعهم، ثم أسّسوا مملكة في حوض المتوسط، وأقاموا علاقات طيبة مع جيرانهم. وبسبب حكمتهم ومعارفهم الراقية، انضمت إليهم قبائل متعددة، فنشأت مملكة "أوزيريس"[1]. وقيل إن "أوزيريس" نفسه هو الذي صمّم وأشرف على تنفيذ قلعة بعلبكّ بأحجارها الضخمة[2]. ولكن يبدو أنّ ما نُفّذ منها لم يكن إلاّ جزءًا مما صمّمه "أوزيريس" الملك، فلم يُقدّر لمشروعها أنْ يتمّ لأن البناء المذكور كان من الممكن أن يكون بناء هائلاً كالأهرام نفسها. وقد اعتبر بعضهم أنّ "أوزيريس" هذا هو "نمرود" التوراتي نفسه باني برج بابل.

وقد امتدّت مملكة "أوزيريس" إلى شمال أفريقية كلّها لتصل إلى نهر الستكس الذي يُعرف اليوم باسم نهر النيل. وتمكّن الأوزيريون من أن ينشروا ظلالهم على أراضي حوض المتوسط كلّها، وبنوا المدن على أراضيه الخصبة، وكان أكثرها في مناطق قريبة من الشواطئ، غرقت كلّها تحت البحر[3]، وعثر الغطّاسون مؤخرًا على بقايا بعضها، وحُمل إلى السطح.

في خلال هذه المرحلة، لم ينسَ حكام أتلانتيس الذين يحركهم "سيت" "أوزيريسَ"، وكانوا منزعجين كثيرًا من بنائه المملكة الواسعة خارج القارة التي كانت في تلك المرحلة قد ضربتها الكوارث الطبيعية، وفصلت بعض أقسامها، وذهبت ببعض جزرها إلى قاع المحيط. والكارثة الكبيرة التي ضربت الجزيرة منذ ثمانين ألف سنة، قيل إنّها جاءت على دفعتين متتاليتين وقسمتاها خمسة أقسام، غرقت تباعًا ولم يبقَ منها سوى الجزيرة

---

١ – Gerry Forster, **The lost continent rediscovered**, p. 12

٢ – Loc. Cit.

٣ – قد يكون غرق هذه المدن التي شواطئ المتوسط بعد دمار أتلانتيس الأخير بفعل الترددات التكتونية التي عرفتها المنطقة مرة بعد مرة.

التي اسماها "أفلاطون" بوزيدونيس؛ ثم غرقت هذه أخيرًا ونجا مَن نجا من أهلها، عابرًا بالزوارق والسفن إلى قارات محيطة: إلى أميركة، وأوروبة، وأفريقية. وكان من بين هؤلاء "سيت" وأتباعه. وقد بذل هؤلاء جهودًا كبيرة للسيطرة على بعض المستعمرات الأتلانتية في المملكة الأوزيريسية بأوروبة وأفريقية(١).

وقيل إن "سيت" وضع اللوم على "أوزيريس" في غرق القارة – أو ما بقي منها – زاعمًا أنّه طلب من إلهه أن يدمّرها لانتصار الشر فيها. وقرر أن يقتله. فتسلّل إلى قصره مع بعض الأتباع، ودخل عليه وهو مختلٍ في معبده يصلي، فقطع رأسه، وقطّعه كيلا يتعرفوا إليه. إلا أن "أيزيس" زوجته تفقّدته ليلاً ولم تعثر عليه، ولكنها عثرت على أشلائه مع أختها "نفتيس"، وعرفت أن قاتله هو "سيت". وكان "حورس" ابنه الشاب معهما. فتأصّلت فيه رغبة الانتقام.

وخلف "حورس" والده على عرش المملكة الأوزيريسية، وأعلن الحرب على "سيت" عمّه الذي كان قد سيطر على منطقة الشمال الشرقي عند آخر حوض المتوسط. وقامت بينهما حروب عديدة قاسية سقط فيها قتلى كثيرون من الطرفين، فاتّفقا على هدنة. غير أنّ رغبة الانتقام لم تفارق "حورس".

ومع الوقت، تحوّل "أوزيريس" إلهًا في عيون شعبه، وكُرّمت ذكراه كثيرًا؛ فبنوا له قبرًا صخريًا أجوفَ، هرَميّ الشكل، فوق هضبة صخرية، قريبًا من نهر الستيكس (النيل). وصودف أنّ نصبَ أسدٍ متمدّد مواجهًا للشمس المشرقة كان في ذلك المكان، قيل إنّه كان معبود جنس بشري انقرض منذ عصور بعيدة جدًا. واستعمل الأتلانتيون من أتباع "أوزيريس" تقنياتهم ومعارفهم في بناء الهرم المذكور، واختاروا له الشكل الهرميّ ليقاوم فعل العناصر الطبيعية. وضمّ هذا الهرم مخطوطاتٍ لمعارفَ وحِكَم أتلانتيّة، بل كان تصميم

١ – Ibid, p. 13

الهرم نفسه وشكله يخفيان دلالات كثيرة ورموزًا لمعارف مهمّة كان الأتلانتيون يملكونها. ولعل الهدف من بناء هذا الهرم كان إسرار المختارين في المعارف التي لا يجوز أن تنتشر بين العامة لعمقها وخطورتها.

وما لبثت "إيزيس" أن ماتت بعد بناء قبر زوجها. ومجددًا بنى المهندسون الأتلانتيون لها هرمًا ثانيًا، وجعلوا فيه أسرارًا جديدة تتعلّق بالكون والمصير.

وفي خلال حكم "حورس" حلّت بأتلانتيس الكارثة الأخيرة، فاختفت نهائيًا في البحر، وغرقت رؤوس الجبال التي بقيت ظاهرة بعد الكارثة السابقة، وضاعت أرض بوزيدونيس في الأعماق بين الحمم المتدفّقة؛ وبهذا زال السور الجبليّ الباقي من القارة بين المكسيك وإسبانية. ونتيجة لهذه الكارثة، ارتفع منسوب المياه على شواطئ المتوسط وأُغرقت ممالك أتلانتينية كثيرة كانت قد بنيت على السواحل، ما اضطرّ أهلها إلى التراجع نحو مناطق أعلى في الداخل، ولا سيّما في أفريقية حيث كانت مملكة "حورس" في ليبية (السهل الليبي). وانتشر الأتلانتيون والأوزيريسيون بين مراكش ومصر، واستقروا أخيرًا في مصر. وقد أثرت هذه الأحداث الطبيعية في نهر الستيكس وأخصبَ الطميُ واديَه، فصارت المنطقة شديدة الخصوبة، ما دفع الأتلانتيين إلى تأسيس مملكة قويّة هناك تشبه مملكتهم في أتلانتيس، حاملين إليها معارفهم.

بعد غرق القارة بوقت قليل نسبيًا، مات "حورس"، وذكر وهو يموت أنّ زورق "رع" الإله يحمل أباه "أوزيريس" لينبعث مجددًا في أولاده وأحفاده كلّ يوم، وأنّه ذاهب الآنَ إلى لقائه وهو يطير عبر السماء[١]. و"رع" هذا إله أتلانتيني مرتبته بعد "بوزيدون"[٢]. وقد اعتبروا أنّ زورق "رع" يحمل "أوزيريس"، ويبعثه الإله إلى الحياة صباحًا، ليعيده إلى

١ – Gerry Forster, **The lost continent rediscovered**, p. 17

٢ – Ibid, p. 18

مملكة الموت مع حلول المساء، وبشكل مستمرّ؛ فربطوه بأشعّة الشمس التي تبعث الطبيعة. واعتبروا عينَ "حورسَ" (من خلال صَقره) تواكب زورق "رع" السماويّ، وصار عند الناس إلهًا بدوره؛ كما اعتبروه يحمل إلى "أوزيريس" أرواحَ الموتى التي عليه أن يقاضيها على أعمالها.

ومع أنّ "حورس" لم تُتح له فرصة الثأر من عمّه، إلا أنّه واجهه شديدًا، ومنعه من الاستئثار بالمملكة الأوزيريسية، وبهذا الفعل استطاع أن يضعفه، وبالتالي أن يجرحه جرحًا مميتًا، فيخسر إحدى عينيه. وبذلك انحدر "سيت" ليصير في سلّم الآلهة إلهًا للعواصف من الدرجة الثانية، لا يستطيع أن يعبّر عن كآبته إلا بالعواصف والرعود. وبعد موت "حورس"، بنى الأتلانتيون له هرمًا ثالثًا أصغر ليصير المعلم الثالث قرب معلمي أبيه وأمه.

ويعتبر "دونيلي" في كتابة الشهير "أتلانتيس" أن مصر كانت مستعمرة أتلانتية[١]، ولكنّها ازدهرت بعد غرق القارة. وقد اعتبر الأتلانتيون أنهم يتحدّرون من اثني عشر إلهًا عظيمًا: "بوزيدون" وزوجته البشريّة "كليتو"، وأولادهما العشرة[٢]. وبناء على ما جاء في العهد العتيق، فإن الفراعنة يتحدّرون من "حام"، وهو ابن "نوح"[٣]. كما أنّ مملكة الموتى الفرعونيّة كانت في "الغرب"، والقبور كانت دائمًا غربي شاطئ النيل، كما كان العالم السفلي "خلف الماء"، لأنّ جسد الميت كان يعبر المياه في قارب من شرقي النيل إلى غربيه حيث القبور[٤].

هكذا يمكننا أن نقول إنّ شكل الأرض كان مختلفًا عمّا هو اليوم، لكنّ قوى الطبيعة غيّرت معالمها. فما هو الآن قاع المحيط الأطلسي (الأتلنتيكي) كان أرضًا وقارةً. وقد

---

١ – راجع: Ignatius Donnally, **Atlantis**, pdf books. Co. za (site: Google), p. 222 - 230

٢ – يذكرنا هذا بأسباط إسرائيل الاثني عشر.

٣ – لجأ "نوح" من الطوفان في العهد العتيق، كما نجت بعض المجموعات من غرق أتلانتيس. لعلّ في هذا إحالة إلى قصة غرق القارة.

٤ – Gerry Forster, **The lost continent rediscovered**, p. 37

دفعت الكوارث التي لحقت بها ما بقي من شعبها إلى الانتقال والهرب نحو الغرب باتجاه أميركة الوسطى خصوصًا، ونحو الشرق باتجاه أفريقية وأوروبة وآسية. وكانت تلك المناطق مأهولة بدورها. هكذا قامت علاقات ثقافية خاصة ومميزة.

وكانت في مناطق أوروبة العربية، ولا سيما أيرلندة، حضارة متقدمة، انتقل صانعوها شيئًا فشيئًا نحو الشرق، يقوده مُسارّونَ كبار، نحو آسية المركزية. ثم انطلقت من هناك مستعمرات إلى باقي المناطق، فوصل بعض الأتلانتيين إلى الهند، وتفاعلوا مع شعبها الذي كان من بقايا حضارة أقدم، هي حضارة ليمورية، والـ"فيدا" تنقل لنا تعاليم حضارة عريقة وشعب كانا هناك.

ثم انبثقت حضارة فارس، وحكمة "زرادشت"، بتفاعل مع بقايا الليموريين والأتلانتيين. وانتقل كلّ هذا إلى منطقتي ما بين النهرين ومصر أيضًا، آتيًا مع قوافل الهاربين من أتلانتيس إلى بلاد البابليين والكلدان الكنعانيين والفراعنة.

ثم برزت حضارة في أوروبة الشرقية - الجنوبية، وتحديدًا في اليونان، وكانت إسراريات مهمّة سنأتي على ذكرها لاحقًا في الفصول الآتية، وظهر شعر "هوميروس" و"آشيل" و"سوفوكليس" وغيرهم[1]. وفي الهند كان الريشيون السبعة (حكماء الهند) قد تلقّوا معارفهم من الحضارتين السابقتين ولا سيما أتلانتيس.

د - ملاحظات حول قصة المملكة الأوزيريسية: قد تكون القصة التي نقلنا عن "أوزيريس" و"إيزيس" و"سيت" و"حورس" صحيحة وقد لا تكون. ولكن بعض الملاحظات يمكن أن تُستخلص منها:

١ - Rudolph Steiner, **Egyptian myths and mysteries**, N. Y: anthroposophic press inc, 1971, p.5-6

١ – أن النظرية تنطلق من كون الشعب الأتلانتي قد خرج من قارته وأقام مستعمرات في الخارج.

٢ – أن الملوك الأتلانتيين كانوا في مستهلّ الأمر آلهة وأبناء آلهة، ما يعني أنّ ثمة نظرية تعتبر الآلهة القدامى ملوكًا عظامًا ألّهتهم المخيلة الشعبية. وفي هذا المجال يقول بعضهم إنّ "الآلهة كلهم كانوا في الماضي البعيد رجالاً بارزين بين الناس، وكانت لهم مكانة ممتازة في حياتهم، ثم قدّسهم الناس بعد مماتهم[1]."

٣ – أنّ "أوزيريس" مرتبط رمزيًا بالحياة والموت، وهو يرتبط بالشمس (حرارة الشمس، أو شعاع الشمس).

٤ – أن بناء الأهرام يعود إلى أصل أتلانتي.

٥ – أن التقدّم المذهل الذي عرفته المملكة الفرعونية كان مردّه إلى شعب جاء من الغرب، من القارة التي غرقت بالتحديد. وثمة ارتباط بين العرقين الأتلنتي والفرعوني.

٦ – أنّ ثمّة التقاءً مهمًا بين الميثولوجيا الأتلانتية ورموزها ودلالاتها وبين الميثولوجيا الفرعونية ورموزها ودلالاتها، وباقي الميثولوجيات اللاحقة.

٧ – أن الميثولوجيا الأتلانتية قامت بدورها على أسرار خاصة بالمُسارّين، لأنّ معبد "بوزيدون"، كما جاء في الرواية، لم يُسمح بدخوله لعامة الناس.

هـ – مقاربات من قصة أتلانتيس/ بين أتلانتيس والوقائع الفكرية والرمزية والتاريخية:

على الرغم من كون أتلانتيس الغارقة في البحر واقعًا أثبته البحث الجغرافي والتنقيب عن الآثار الضائعة، فإنّ تحويل الأحداث التاريخية إلى رموز أمر شائع. لهذا فإنّ الحدث

١ – فراس السواح، دين الإنسان، دمشق: دار علاء الدين، ٢٠٠٢، ص ٢٠٤

المركزيّ (وهو الحدث التاريخيّ نفسه) تتشعب منه أحداث وتفاصيل قد لا تكون واقعية كلّها، ولكنّها تصبّ في خدمة الحدث الأساسي الذي صار رمزًا.

وهكذا تتحوّل أتلانتيس التاريخية في فلسفة "أفلاطون" رمزًا كبيرًا. ففي حين يستعيد هذا الفيلسوف ما حصل للقارة منذ تسعة آلاف وخمسمئة سنة، يحوّل مسار الأحداث فيها إلى رموز تخدم غرضه الفلسفيّ، ويستعين كثيرًا بتوزيع الأرقام (فلسفة الأرقام الفيثاغوريّة) والأشكال الهندسية – ولا سيّما الدائرة والمثلث – من أجل ان ينقل فكرة خاصة في سياق خاصّ. ولعلّ نسل الآلهة الذي اختاره ("بوزيدون" + "كليتو" + أبناؤهما العشرة في خمسة أزواج) قد جعله مساقًا لافتًا لجملة أفكار سنأتي على تفصيلها. كذلك شكل أتلانتيس الدائري (وهو على الأرجح شكل جزيرة بوزيدونيس التي بقيت من القارة ثم غرقت في المرحلة النهائية) له دلالاته الرمزية الخاصة، ومثله الشكل المثلث الذي نتوصل إليه من خلال الجزر العشرة المنقسمة ثلاثًا رئيسة كبرى، وسبعة صغرى تابعة (٣ + ٧ = ١٠).

في هذا المجال، تمثّل أتلانتيس في قصة "أفلاطون" التي نقلها في "كريتياس" و"تيماوس" الطبيعة الثالوثية لكلّ من الإنسان والكون. وتمثّل الملوك العشرة أبناء "بوزيدون" (خمسة أزواج) الأرقام العشرة الأولى (١ – ١٠) التي تحكم كلّ طبيعة. أما الأرقام فهي بدورها تحت سيطرة الأحاديّة (الرقم ١)، وهو أكبرها وأعظمها[١]. وفي الواقع، فإنّ التصوّف اليهودي الذي تمثل في الكابالا يقوم على الأرقام وفلسفتها. فالرقم ١ يمثل الوحدة والكامل والتام الذي لا ينفصل ولا يتجزّأ، ويمثل القدرة الإلهية. إنّه مصدر كل شيء، وهو الحرف الأول في الأبجدية اليهودية (الألف)، فيه التناقضات كلّها ولكنها لا تصير في داخله تناقضات، ومنه ينبثق كلّ رقم تالٍ. إنّه المذكر والمؤنث،

١ – Manly P. Hall, **The secret teaching of all ages**, p 83

والسلبي والإيجابي، ومصدر كل الأشياء. بمعى آخر إنه الله ("يهوه") الذي تنطلق من ذاته عملية الخلق. وهو السفيروث الأولى (الروح الملائكيّة الأولى) التي لا بدّ منها لاستكمال ظهور السفيروثات التسعة التالية. والواحد أيضًا رقم لا يصدر مطلقًا من الثالية الإلهية لا بتربيعه carré ولا بتثليثه cube، كما لا يصدر عن سرّه هو ولا عن مركزه، ويختزن في ذاته العمليات كلّها. إنّه يتحول في المنطقة الإلهية أو الروحية أو الطبيعية بخصائصه الذاتية الجذرية، أو بصدورات مناسبة لهذه الخصائص الذاتية، ولكن المميزات التي يعكسها في كلّ هذه المناطق لا تكون إلا إلهية. وهو من خلال هذه التحولات في المناطق المذكورة، ومن خلال الصدورات المناسبة لخصائصه الذاتية، يحمل الواحد حياته وروحه أيضًا في المناطق الثلاث التي تشكل شجرة كبيرة يبقى جذرها كامنًا في المنطقة الروحية، كما في الأرض – الأم، وأغصانها وثمارها في المنطقة الطبيعية من خلال عملية التكعيب cube. فالنقطة المشتركة في المناطق الثلاث (الإلهية والروحيّة والطبيعية) وعوالمها هي الواحد[1].

وبصولجان "بوزيدون" الثلاثي تمكّن هؤلاء الملوك من السيطرة على سكّان جزر أتلانتيس الثلاثة الكبرى، والسبعة الصغرى. من الناحية الفلسفية، تمثل الجزر العشرة القوة الثالوثية (من ثلاثة) للألوهية العظمى، والأوصياء السبعة الذين يَنحنون أمام عرشها الأبدي (الجزر الكبرى: ٣، والجزر الصغرى: ٧ = ١٠). وفي الواقع، فإنّ الكابالا أيضًا تقوم على فلسفة الأرقام، فالرقم ١ ينبثق منه الرقم ٢، وهو الرقم الشَفعيّ pair الأول في سلسلة الأرقام،، ويمثّل المؤنث والسالب، والنقيض الأول للمذكر، كما يمثّل الوحدة مكرّرة والوحدة التي صارت كُسْرًا fraction، فهو ينقسم نصفين (١ – ١)، ويمثل في شجرة السفيروث الحكمة، وهو الانعكاس السالب للوحدة، ومصدر الأخطاء العقلية الإنسانية[2]. والرقم ٣ يمثل الوِتْر impair، والمذكر، والفعل. وينقسم بلا باقٍ. وهو

١ – Papus, **La science des nombres**, Paris: la diffusion scientifique, 1ère éd. P. 13

٢ – Ibid, P. 15

الوحدة مكررة ثلاث مرات (٢ + ١) ويدعى الثالوث، وفي شجرة السفيروث يمثل الذكاء الكونيّ، وهو الرقم الأول لكل خلق[١]. إنه العلاقة المستمرة القائمة بين الرقمين ١ و٢، أي بين النقيضين، وهذه العلاقة تمثّل تكاملاً بينهما، التكامل الذي يقوم على ائتلاف الأضداد وتكاملها في الطبيعة نفسها.

وإذا كانت أتلانتيس الدائرة النموذجية، وتمثل العقلانية الكاملة، فإنّ غرقها يعني يعني تراجع العقلانية والضمير الواعي المنظّم أمام الوهم واللاعقلانية والجهل المميت. والدائرة نفسها شكل هندسيّ بعيد الدلالات، ولكنّه شكل يمكن أن يمثل، من جملة ما يمثل، اللانهاية، لأنّه لا بداية له ولا نهاية، ووسطه هو الإنسان (أو الوجود الأصغر)، لأنّه يبعد بشكل متساوٍ عن أيّ مكان من محيط الدائرة لجهة الداخل.

وفي الواقع، فإن كلاً من قصة غرق أتلانتيس وقصة السقوط التوراتية ترمزان إلى مساهمة الوعي الروحي في اكتمال المعروفة، وهو شرط أساسي لتطور الوعي[٢].

وفي مركز الوسط من جزيرة أتلانتيس الكبرى كان جبل شامخ جدًّا يرتفع، ويمتدّ ظلّه على مدى يساوي طوله خمسة آلاف ملعب مدرّج، وارتفاعه يلامس طبقة الأثير. إنّه الجبل المحوريّ للعالم الذي يمثّل هنا الرأس البشريّ خارجًا من أطراف الجسد الأربعة. وعلى رأس هذا الجبل معبد الآلهة، وهذا مشابه لجبل الأولمب وكذلك لأورشليم السماوية في التفكير اليهودي والعهد العتيق. وفي الواقع، فإنّ قصة أتلانتيس هي مفتاح فهم الميثولوجيا الإغريقية. فالآلهة الميثولوجية عند الإغريق كانت في أول الأمر بشرًا، وبسبب الجلال في مواقفها أو في أعمالها وإنجازاتها صُعّدت أعمالها وقواها ودلالاتها، فصارت آلهة. بل أكثر: فلعلّ الجنّة التوراتية التي أُخرجَ منها "آدم" (وبالتالي البشر معه) مطرودًا، وأقفلها

---

١ – Ibid, p. 16

٢ – Manly P. Hall, **The secret teaching of all ages**, p. 84

سيف من النار كانت نفسها رمزًا للجنّة القديمة: أتلانتيس، ثمّ دمرتها الزلازل والبراكين التي صار يرمز إليها في القصة اليهودية سيف النار[1]. وكذلك في العهد العتيق ذكر لدمار سدوم وعامورة بالنار (الزلازل والبراكين)، وهذا يشبه بدوره دمار القارة بالزلازل والبراكين خصوصًا.

وقصة الطوفان أيضًا (طوفان "نوح") يمكن أن تعود في دلالاتها وجذورها إلى قصة أتلانتيس الغارقة في المياه، وكان الناجون منها مؤسسي حضارة جديدة في مكان آخر من العالم (الممالك الأتلانتية). وفي هذا المجال، أظهر العهد العتيق الأعراق البشرية التي تحدّرت من شعوب بحر المتوسط، ولكنّه لم يُظهر الأعراق الأخرى من سود وصفر وحمر، لقد ذكر الآريّين، والكوشيّين والفينيقيّين والعبريّين والمصريّين. لذلك فإنّ الأعراق الأخرى لم يشملها الطوفان المذكور في التوراة، ولم يكن، بالتالي، طوفانًا كونيًا. وهو قد دمّر بلدًا (أو منطقة من العالم) ونجا منه "نوح" وأسرته، ولكنّه لم يدمّر كلّ العالم المعروف، فلم يشمل أميركة وآسية وأوروبة وأفريقية. إنّ الوقائع تدفعنا إلى اعتبار ما جاء في "سفر التكوين" إمّا قصة رمزية، وإما يتناول ما حدث لبلد (أو منطقة) دمّرتهما المياه، وهذا ليس وضع أميركة وآسية وأفريقة وأوروبة واسترالية، فهو بلد آخر[2].

من جهة أخرى، نجد الرموز الأتلانتية ظاهرة بين الرموز المسيحية والوثنية معًا: كالشمس (في الرموز المسيحيّة، وعبادة الشمس في الرموز الوثنيّة)، والنور، والصليب (وهو رمز يظهر كذلك في الهند [السفاستيكا، أو الصليب المعقوف] الذي يرمز عندهم

---

١ – .Loc. Cit وهنا يلاحظ أن العهد العتيق يقول إنّ الإنسان ("آدم") كان يعيش في جنة عدن بهدوء وسعادة، و"أفلاطون" يقول إن سكان أتلانتيس كانوا كذلك قبل دمارها. وجاء في التوراة أن أبناء الآلهة تزوجوا من أبناء البشر، وكذلك يقول "أفلاطون" إن سكان أتلانتيس ضعف جنسهم لأن أبناء الآلهة تزوجوا من أبناء البشر. (قارن: Ignatius Donnally, **Atlantis**, p 47)

٢ – Gerry Forster, **The lost continent rediscovered**, p. 28

إلى العناصر الأربعة، وفي الصين...) والأفعى، وسواها... وكلّها كانت من أسس العبادة الأتلانتية ومن رموزها[1].

بالإضافة إلى ما ذكرنا، نجد في عدد من الميثولوجيات عند أمم مختلفة قصصًا عن آلهة جاءت خارجة من البحر، أو عن مخلوقات هائلة تابعة للآلهة خارجة منه كالكراكان. وبعض هذه الآلهة علّم الناسَ الفنونَ، كما هي الحال في الميثولوجيا الهندية. ونجد في بعض الميثات الكلدانية "أوانيس" المخلوق الخارج من البحر يعلّم البرابرةَ الكتابةَ والقراءةَ والزراعةَ والحصاد والفلكَ، ويضع أنظمة عقلانية للحكومات[2]. ولكن كلّ هذه القصص مردّها إلى كون الأتلانتيين يغزون العالم ويستعمرونه، وينشرون حضارتهم في المستعمرات، حتى حلّت الكارثة الأخيرة ببقية قارتهم، فزالت المملكة الرئيسة، وبقيت بقاياها في المستعمرات: في مصر أيام الفراعنة[3]، وما بين النهرين (الكلدان والسومريين والبابليين)، وفي الممالك الكنعانية، وفي بعض الممالك الأوروبية، وفي أميركة الوسطى القريبة من الجزيرة الغارقة (حضارة المايا)... ويبدو أنّ بعض الملوك كان قد بدأ يبتعد عن الإشراق في المعرفة، والسلم، ويميل إلى الحرب، فنقل هذا معه إلى المستعمرات، ونقل أيضًا تعدُّد الآلهة والحقد واللاعقلانية.

لقد كانت الأمبراطورية الرومانية نفسها تطورًا للحضارة التي عرفتها أوروبة؛ وكلْتا الحضارتين تنهلان من مَعين واحد: حضارة أتلانتيس[4]. وفي الواقع، نجد على ضفّتي

---

١ – Manly P. Hall, **The secret teaching of all ages**, p 84

٢ – Ibid, p. 85

٣ – نقل "هيرودوتس" عن بعض كهنة الفراعنة أنّ تاريخهم يعود إلى حوالي أربعة عشر ألف سنة قبل عصره (أي قبل الميلاد). وقد أدخلوا هذا المؤرّخ إلى معبد فسيح أروه فيه تماثيل ثلاثمئة وواحد وأربعين من كبار الكهنة كان كلّ منهم قد خلف الآخر. ويبدو أنّ حضارة مصر الموغلة في القدم كانت أعظم بكثير منها في زمن الفراعنة المتأخرة (Ibid, p. 88 – 89)، كما كانت في القدم تعبد إلهًا واحدًا (أي أنها كانت ديانة موحّدة) ولكن الفساد ما لبث أن تسرّب إلى تلك العقيدة في مراحل لاحقة، فظهر تعدّد الآلهة، على الرغم من أنّه فيه الكثير من الترميز.

٤ – Ignatius Donnally, **Atlantis**, p 91

المحيط الأطلسي الفنون نفسها تقريبًا، والأديان والعقائد والعادات والتقاليد المتشابهة، ولا يمكننا أن نقول إنّ حضارات رومة والإغريق ومصر القديمة وما بين النهرين وفينيقية قد ابتكرت الفنون بعفوية وبشكل مستقلّ عن بعضها، أو ظهرت تقاليدها وعاداتها بشكل مستقلّ. ونجد، بالمقابل، في البيرو تقاليد كثيرة مشابهة للتقاليد الفينيقية: فكلّ منهم كان يحاكم الخائن بدفنه حيًا، وكان لكل منهم كهنة كبار يتوارثون منصبهم، إلخ[1]... وكانت لمعظم الأمم عادات وتقاليد ترتبط بالطوفان. ونحن نجد الآريين يتحدرون من هندستان باتجاه المتوسط، كما نجد الصينيين يستعيرون الاختراعات من هندستان، ويزعمون أنّهم يتحدّرون من منطقة ليست بعيدة عن المتوسط. لهذا السبب كان المتوسط الشاطئ المركزيّ للعالم القديم، وفيه كان انتشار الممالك الأتلانتية القديم أولاً.

وفي مجال آخر، يرى الفينيقيّون أن الكتابة اخترعها "توت" (الذي صار "هرمس" الأول)، وكذلك المصريون عزوا اختراع الكتابة إليه، وهو من عصر قبلهم جميعًا. فقد قيل إن "توت" هذا هو ابن "زوس" و"مايا"، وهذه الأخيرة هي ابنة "أطلس" (أكبر أبناء "بوزيدون")، وهي نفسها "مايا" التي نجدها في أميركا الوسطى[2].

من جهة أخرى، اعتبر العرب أنّ العرب العاربة كان أولهم العاديّون (أبناء "عاد")، و"عاد" هذا هو حفيد "سام". ولعلّ هؤلاء كانوا الأتلانتيين أو من بقي منهم في المنطقة التي تقع في حدود بلاد العرب. وكانوا عمالقة، مَديدي الحياة. أما "عاد" فقد خرج من منطقة الشمال الشرقيّ، وتزوّج آلاف النساء، وأنجب أربعة آلاف ولد، وعاش ألفًا ومئتي سنة. وتكاثر خلفه. ثم خلَفه في الحكم ولداه "شَديد" و"شدّاد". وكانت القبائل التي حكمها عاد ألف قبيلة، تتألف كل واحدة منها من عدة آلاف من الأشخاص.

---

١ – Ibid, p. 95

٢ – Ibid, p. 139

ثم فتح "شدّاد" العراق وسورية، ويبدو أن الكنعانيين كانوا أنفسهم من القبائل التي حكمها. وغزا هذا الحاكم مصر أيضًا.

وبنى "شداد" قصرًا رائعًا تزينه العواميد وتحيط به الحدائق، وكانت تلك إرم ذات العماد، التي حاول بها أن يحاكي الجنّةَ. إنه يحاكي جنّةَ أتلانتيس الضائعة. ونجد في تصوير العاديّين وصفًا لبنّائين عظام ولأبنية رائعة، ولحضارة كبيرة دثرت. وكان دمار "عاد"، كما جاء، بفعل كارثة كبيرة لم تُبقِ منهم إلا على بقايا متناثرة (قيل إنهم ابتعدوا عن الإثم فنجوا)، وقد أحاطت بمملكتهم سحابة سوداء هائلة، تلاها إعصار شديد ذهب بكل شيء[1]. وجاء بعدهم "عاد" الثانية (وهم من الأتلانتيين الذين نجوا من الكارثة. وكانت دولتهم في سبأ. وقد استمرّ حكمهم ألفَ عام.

وقد تمثّل العاديّون في بعض معالم البناء الفرعونية، تمامًا كما تمثّل فيها المصريون. وأما معبدهم فقد كان هرميًّا محاطًا بالأبنية. وعرفوا هم أيضًا الأعمدة المطليّة بالذهب والفضّة. وكان هؤلاء يعبدون إلهًا شمسيًّا ولا يصوّرونه، من غير أن تكون له كهنة، ويبدو أنّهم آمنوا بخلود الروح[2].

---

١ – جاء في القرآن الكريم وصف بسيط جدًّا لدمار عاد، ولكنه متكرّر، كما جاء ذكر الأرض التي سكنوها، وهي الأحقاف: "واذكرْ أخا عادٍ إذْ أنذرَ قومَه بالأحقاف..." (الأحقاف/ ٢١) أما الآيات التي ذُكر فيها دمار "عاد" فالآتية، جاء: "أنذرْتُكُمْ صاعقةً مثلَ صاعقةِ عاد وثمود." (فصلت/ ١٣) وجاء: "فأرسَلْنا إليهم ريحًا صَرصرًا في أيّام نَحِساتٍ..." (فصلت/ ١٥) وجاء: "بل هو ما استَعْجَلْتُم به ريحٌ فيها عذابٌ أليم، تدمّرُ كلَّ شيءٍ بأمرِ ربّها فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنُهم." (الأحقاف/ ٢٤ – ٢٥) وجاء: "وفي عادٍ إذْ أرسلْنا إليهم عليهم الريحَ العقيم ما تَذَرُ شيئًا إلا جعلتْه كالرميم." (الذاريات/ ٤١ – ٤٢) وجاء: "إنّا أرسلنا عليهم ريحًا صرصرًا في يوم نحسٍ مستمر، تنزع الناسَ كأنّهم أعجازُ نخلٍ منقعر." (القمر/ ١٩ – ٢٠) وجاء: "وأمّا عاد فأُهلكوا بريح صرصر عاتية سخّرَها عليهم سَبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيّام حُسومًا، فترى القومَ فيها صرعى كأنّهم أعجازُ نَخلٍ خاوية." (الحاقة/ ٦ – ٧)

٢ – Ignatius Donnally, **Atlantis**, p 171

و – الإسرارية القديمة في أتلانتيس: جاء في قصة أتلانتيس أنّ "بوزيدون" قد بنى له معبدًا على هضبة السهل الجنوبي للجزيرة، وهذا المعبد حرم مقدس فيها. كما أن الملوك الذين خلفوا أبناءه والمتحدّرين منه كانوا يجتمعون في هذا الحرم، ويقومون بطقوس خاصة في حجّهم، ويجدّدون القسم الذي يقول إنّهم لا يشهرون السيوف على بعضهم.

ومعنى هذا أنّ هناك طقوسًا خاصة تقام، وهذه الطقوس لا يحضرها إلا الملوك الذين كانوا يتحدّرون من بوزيدون. فهم وحدهم الذين كانوا مسارين آنذاك، وكانت لهم إسراريّتهم الخاصة، وهي تعاليم سرية ذات فلسفة خاصة، لأنّ الإسراريات تكون كذلك، وتحتاج إلى تدرّج في تلقين تلك المعلومات وممارستها من أجل إتقانها.

وإذا عدنا إلى ما قلنا من أنّ الأتلانتيين كانت لهم مستعمرات خارج أتلانتيس، وأن مصر إحداها، عرفنا أنّ الإسراريات التي كانت تتم داخل الأهرام مصدرها الأول هو تلك القارة الضائعة، وأن شيئًا كثيرًا من تقاليدها قد بقي في الطقوس الإسرارية المصرية، ولا سيّما طقوس "أوزيريس". على أنّ شكل تلك الطقوس الأولى لا يمكن معرفته أو التيقّن من طبيعته لأنّ أيّ مستند لم يشر إليه أو يذكره. وعلى هذا لا يمكننا أن نتعرّف إليه، ولكنّنا نستنتج وجوده من أسرار مصر وبقايا أتلانتيس.

٤ – خاتمة: بعد هذا، يمكننا أن نقول إنّ الطقوس الأولى التي عرفتها البشرية مصدرها القارة المفقودة أتلانتيس. وهذه الطقوس كانت على نوعين: الأول للعامة، ويظهر في الآلهة المتعددة التي شاعت بينهم، وفي الميثولوجيا التي تتحكم بتلك الآلهة، حيث يكون كل إله سببيّة لمظهر أو قوة من مظاهر الطبيعة وقواها. والنوع الثاني كان أسرارًا لا تُعطى إلا للخاصة من المسارين، لأنّها تحتاج إلى سموّ في الفكر والمعارف لا يستطيع أن يبلغه أيّ كان، ومن غير هذا السموّ يستحيل فهم تلك الأسرار.

ولعلّ ما تحدّر من طرق إسرارية في المعابد القديمة، في الهند، وبلاد فارس، ومصر، وما بين النهرين، واليونان وسواها، ليس إلاّ مظاهر مختلفة ومعدّلة للتكريس الأتلانتي الأقدم الذي انتقل إلى الشعوب المحيطة والممالك والمستعمرات خارج القارة بعد دمارها.

فكيف كانت تلك الإسراريات؟ وكيف كانت طقوس التكريس فيها؟ الفصول الآتية ستحاول أن تلقي نظرة على هذه المسألة.

الفصل الثالث

الهند وأسرارها

١ – **مقدمة:** من المعروف أنّ الهند وبلاد فارس قد عرفتا حضارة راقية ونفوذًا قويًا في محيطهما. بل إنّ بلاد فارس نفسها تحولت في وقت من الأوقات إلى أمبراطورية قويّة لها مستعمرات تمتدّ حتى مصر وبلاد البيزنطيين.

وكانت الديانات الهندية والفارسية تقوم على فلسفة خاصة وأسرار عميقة لا يُنقَل جوهرها إلا إلى مسارين يختارونهم من أكثر الناس رجاحةَ عقل، ويعلمونهم تلك الأسرار. وكانت تقوم على معلومات واسعة طبيعية ودينية وأخلاقية وعلمية، ولها حُفّاظ من الكهنة الذين توارث أكبروهم الكهانة عن بعضهم، ونقلوها إلى المسارّين. وكانوا يمتحنون طالبي الأسرار امتحانات صعبة جدًا ومُهْوِلة قبل أن يوصلوهم إلى المعرفة، من أجل معرفة قوّة احتمالهم وقدرتهم على كتمان الأسرار التي يتعلمونها مهما كانت الظروف. فمن لم يكن قادرًا على اجتياز الامتحانات يخرج من دائرة الأسرار.

٢ – **الهند والكهنة في الهندوسية:** البرهمان هو خالق كل شيء في الوجود، وبالتالي مالك كل شيء فيه. ولشدة كرمه يتمتّع الناس بمباهج الدنيا[١]. إنّه هو المصدر الأساسي لمبدإ الحقّ والعدل الإلهيين الهنديّين. وقد كانت السلطة بيد البراهمة (الكهنة الهنود) في الهند منذ آلاف السنين، وكان الملوك عملاءَهم لا حاكميهم. أما العامة فكان عملها يحفظ الرفاهية للطبقة العليا، بمعنى أنّها كانت طبقة مستغَلّة في حين أن الطبقة العليا مستغلّة. وكانت المعابد مخازنَ الثرواتِ التي كدّسها عمل الناس.

وكان الناس بعد الانتهاء من الطقوس وتقديم الذبائح يعودون إلى أعمالهم، ويعود الكهنة إلى إلى مساكنهم حيث يستغرقون في دراسة العلوم والفلسفة والدين. ثم انتفض

١ – Louis Jacolliot, **Occult science in India and among the ancients**, tr: Willard L. Felt, N. Y: Lovell company, 1884, p. 22

الملوك على الكهنة، وأطاحوا بسلطانهم، فحملوا لقب "أرباب الخلق"، وتركوا للكهنة أن يعلّموا الشعب أنّ ملوكهم هم الذين اختارتهم الآلهة، مقابل إعطاء الكهنة كلّ الخيرات التي تؤمّن لهم كلّ ما يطلبون. واستمرّ هذا حوالي عشرين ألف سنة كما قيل[١].

وقد استعمل البراهمة كلّ طاقتهم لإنقاذ الشعب من الجهل، ووضعوا أسرارهم في رموز إسرارية خاصة لا يحصل عليها إلا من يختارونهم بعد الامتحانات العسيرة، وبعد تدريب شاقّ وإذعان يمتدّان أربعين عامًا.

وفي الواقع، فإنّ أقدم فلسفات الشعوب وأولاها تكمن في دياناتها[٢]. وفي الفيدا أقدمُ الأناشيد التي تنقل فلسفة الطبيعة والوجود بشكل لافت: فالشمس حرارة السموات، والنار حرارة القلب، وهي في آن مفيدة ومدمرة؛ أما الرياح العاصفة (الهواء)، والرعد، والبرق، فتعانق كلّها السموات. وهذه العناصر هي العناصر الأهم في الفيدا الآرية.

لكنّ العناصر تتحوّل إلى آلهة في الفيدا، فالإله يمثل سببيّة من سببيّات الطبيعة – كما هي الحال في الميثولوجيات –، وفعلاً لافتًا متكررًا فيها[٣]. وقد تمّ تصوّر العالم بثلاث طرق: بفعل هندسة، وفعل تجدُّد، وفعل تضحية إلهيّة. أما الإله الأكبر الذي يعلو جميع الآلهة ويظل فوقها فهو "إيكاديفا"، وله أسماء أخرى[٤]. وكلا "البراهما – واسباتي" (وهو لاحقة القوة في صلاة البراهما ومزاميره)، و"في" لاحقة الكلام في ألفاظ الفيدا يحيلان إلى الحقيقة المطلقة. وكلٌّ مِنْ كُتُب الفيدا الأربعة ينقسم ثلاثة أقسام، فيشكل مجموعُ الأقسام اثني عشر كتابًا أساسيًّا.

---

١ – Loc. Cit.

٢ – Hervey Witt Griswold, **Brahman**, forgotten books (e-book), N. Y: The Macmillan company, 2001, p. 21

٣ – Ibid, p 23 21.

٤ – Ibid, p. 35

وكانت الأسرار ثلاث مستويات، موزعة على ثلاثة درجات: الأولى تشمل كلَّ كهنة الديانة الشعبيّة، ويعملون في المعابد وبين الناس. وقد تعلّموا الكلام من خلال الكتب الثلاثة الأولى للفيدا. كما عُلّموا إدارة الاحتفالات الدينيّة والذبائح. لذلك كانوا على اتّصال دائم ومباشر بالناس، ومعلّميهم المباشرين وحكمائهم Guru.

والدرجة الثانية كانت تشمل طاردي الأرواح الشريرة exorcists، والعرافين، والمتنبّئين الذين كانت مَهمّتهم أن يعملوا على توجيه المخيّلة الشعبية، وتحريكها في الأوقات الصعبة، من خلال الظواهر الخارقة. لذلك كانوا يقرأون ويفسّرون الأثارا–فيدا، وهي مجموعة من الأحكام السحرية.

أما براهمة الدرجة الثالثة فلم يكونوا على علاقة بالناس، لأنّ دراستهم كانت تشمل كلّ القوى الفيزيائية والميتا – فيزيائية (فوق – الطبيعية) في الكون. ولم يكونوا يظهرون في العلَن إلا في حال حصول بعض الظواهر الخارقة التي لم يكن يُسمَح لمشاهديها بمعاينتها عن كثب. وقد قيل إنّ الآلهة والأرواح كانت حاضرةً لمساعدتهم في أي وقت من الأوقات[1]. وللوصول إلى هذه الدرجة، كان لا بدّ من المرور بالدرجتين السابقتين . ولا يرقى الكاهن من درجة إلى أخرى قبل مرور عشرين سنة. وكان كهنة الدرجة الثالثة يدرسون ويفسّرون كتاب "أغروشادا – باريشكاي"، أي كتاب الأرواح، ويكون الكاهن في هذه المرحلة قد بلغ الثمانين من عمره، وهو الكاهن الروحي المرتبط بالمعادلة الإلهية التي تختصرها الحروف الصوتية لأعظم صوت في السلّم الصوتي: أوم Aum (الحرف الأول: الخَلق – الحرف الثاني: المثابرة – الحرف الثالث: التحوّل).

وكان البراهماتا (عظيم البراهمة) يسكن قصرًا فخمًا يحيط به واحدٌ وعشرون حائطًا، ولا يظهر على الملإ إلا مرة واحدة في السنة، محاطًا بهالة من الأبهة والمجد، حتى يبدو

١ – Ibid, p. 23

لهم أنّهم في حضرة إله[1]. وكان الناس يظنونه خالدًا، لذلك كان انتخاب الكهنة لخلَفه، بعد موته، يبقى سريًّا، وبعيدًا عن الأعين. وكان يُحرَق، ويُذرّ رماده فوق نهر الغانج المقدس.

٣ – الديانة الهندية/ بين الميثولوجيا والرموز: يمكننا أن تقول إنّ "الهندوسية أشمل وأعمق من الدين. إنّها صفة لملامح المجتمع الهنديّ بنظامه الطبقيّ، ومكان كلّ طبقة فيه. إنّها الحياة الهندية بأسلوبها الخاص الذي يُعتَبَر في ذاته شعيرةً من الشعائر. إنّها خليط من الأمور المقدّسة والأمور الدنيوية جميعًا... إنّها الاتجاهات الروحيّة والخلقيّة والقانونيّة. وهي، إلى جانب ذلك، مبادئ وقيم وعادات توجّه الحياةَ الهنديّة وتسيطر عليها."[2]

وأساس الهندوسيّة عقائد الآريين الذين غزوا الهند، ثم تطوّرت هذه العقائد بفعل اختلاطهم بشعوب كثيرة، ولا سيّما الإيرانيين، ثمّ تأثّرت بالفكر والفلسفة الهنديّين، حتى تبلورت في صيغتها الأخيرة[3].

وتُبنى الهندوسية على "الفيدا". والهنود يعتقدون أنّه كتاب موحًى به، ليس له مؤلّف؛ في حين يرى الباحثون أنّ "الفيدا" قد وُضعت على مراحل، في خلال حوالي عشرين قرنًا، (أي منذ حوالي ثلاثة آلاف سنة: ٢٠٠٠ ق. م.)، وهي ثمرة وقت طويل من الفكر والفلسفة والشعر والدين والحكمة والظروف الخاصة[4].

وفي "الفيدا" تنعكس آراء الآريين في الهند. وهو عبارة عن أربعة كتب:

---

١ – Ibid, p. 25

٢ – أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط١١، ٢٠٠٠، ص ٣٣

٣ – المرجع نفسه، ص ٣٧

٤ – المرجع نفسه، ص ٣٨

أ – الريغ فيدا: وهو أقدمها على الأرجح، يعود إلى حوالي ثلاثة آلاف سنة، وفيه ألف وسبعة عشر أنشودة دينيّة. وأشهر آلهته "أندرا" إله الآلهة، و"أغني" إله النار وراعي الأسَر، و"فارونا"، و"سوريه" إله الشمس.

ب – الياجور – فيدا: وفيه العبادات النثريّة المرتبطة بتقديم القرابين عند الكهّان.

ج – الساما – فيدا: وفيه أناشيد إقامة الصلوات والأدعية.

د – الآثار – فيدا: وفيه مجموعة كتابات سحريّة للرّقي والسحر وما أشبه ذلك مما هو مرتبط بالفكر الهندي القديم الذي يرى أنّ العالم مليء بالشياطين والجنّ والارواح الشريرة، وقد تركت الآلهة العالمَ لهم، ولم تعد تكترث له، فلجأ الناس إلى الرقى ليحموا أنفسهم، وهنا يأتي دور الكهنة الذين ينتمون إلى هذه الطبقة.

وينقسم كلّ جزء من الفيدا، بدوره أربعة اقسام:

أ – الأول اسمه سَمْهِيتا، وهو مجموعة منظومات مخصّصة لتقديم القرابين، وهي كذلك في كلّ من الريغ – فيدا، والساما – فيدا، والياجور – فيدا، في حين أنّها في الآثار – فيدا أناشيد وأدعية يرفعونها للآلهة قبل زحف الآريين لكي تعضدهم.

ب – البَراهْمَن: وفيه بيان أنواع القرابين التي تُقدّم للآلهة، ومواسمها وتفصيلاتها.

ج – الأرانيكا: وهو الغابيّات، أي الإرشادات التي يقدمونها للشيوخ الذين يتركون بيوتهم في الثمانين من عمرهم، ويتنسّكون في الغابات والكهوف.

د – الأوبانيشاد: وهي الأسرار الصوفية الموجّهة إلى الرهبان الذين عكفوا عن الحياة العاديّة للعبادة ودراسة باطن الحياة وتأمّلها؛ فهو "مذهب الروح" الذي يبتعد عن الآلهة في الأقسام السابقة، ويقرب من العرفانية(١).

---

١ – المرجع نفسه، ص ٣٩ – ٤١

وتتجسّد صورة الكون في الهندوسية بشجرة تضرب جذورها في السماء، أمّا جذعها وأغصانها ففي الوجود العامّ. وأغصان هذه الشجرة هي: الأثير، والعناصر الأربعة: الهواء، والنار، والماء، والأرض (التراب)، وفي هذه العناصر يظهر البراهمان الذي يدعى أيضًا "إسفاتّا": مبدأ الخير في العالم، وأوّل طرف من أطراف الثالوث الإلهي (تريموري): الروحِ الكليّة والمبدإ الكليّ؛ ويحيط بهذه الروح الكليّة "الفيشنو" الذي يُعتبر إلهًا ينام فوقَ الغَمر. وهو تمثيل للقوة التي تحفظ العالم؛ كما يحيط بهذا الإله أيضًا "سيفا" الذي يحتوي البراهمان، وهذا الإله الثالث يمثلونه بصورة ملك راقص، متعدّد الأذرع والعيون، لا جنس له، لأنّه عندهم يشمل الكونَ[1].

وكلّ إله من هذه الآلهة الثلاثة يمثل طرفًا لمثلث، أو يمثل كلّ منها مثلثًا داخل الآخر: الأول من جهة الداخل هو "أسفاتّا"، والثاني في الوسط هو "فيشنو"، والثالث لجهة الخارج هو "سيفا"؛ والعلاقة بين البراهمان و"فيشنو" أساسيّة، لأنّ الأول يمثّل الوجود الأكبر macrocosmos، والثاني يمثّل الوجود الأصغر microcosmos، وهو الألوهيّة التي لا مادّة فيها (النور)، ولا صفات، وليس عرضة للتغيير[2].

ويمثّل هؤلاء الثلاثة معًا: "إسفاتّا" و"فيشنو" و"سيفا" الثالوث الإلهيّ المتداخل: الأب، والابن، ومبدأ الخلق. إنّهم العالم المتجسّد للنور، و"المتضمّن نور الأبوّة الأوّليّة، "فيشنو" الألوهة المُتمَظْهِرة خَلْقًا غَمْريًّا طاهرًا؛ والروح المبثوثة في الكون "سيفا" الذي يتدخّل في الشؤون البشرية لكلّ إنسان."[3]

ويرى بعضهم أنّ الهنود جمعوا آلهتهم كلّها في إله واحد له ثلاثة أقانيم (أو ثلاثة أسماء)، هو موجِد العالم، وحافِظه، ومُهلِكه وَرادُّه إليه. فهو البراهمَن (مِن حيثُ هو موجِد

---

١ – بولس طوق، النار والنور في الفكر العالمي، بيروت: دار نوبليس، ط٢، ٢٠٠٠، ص ٩٠ – ٩١

٢ – المرجع نفسه، ص ٩١

٣ – المرجع نفسه، ص ٩٢

العالم)، وهو "فيشنو" (من حيث هو حافظه)، وهو "سيفا" (من حيث هو مُهلكه)[1]. و"البيروني" نفسه يرى أن الهنود في الأصل موحدون، ولكنّ العامة بينهم مشركة بسبب جهلها: "واعتقاد الهند في الله أنّه، سبحانه، الأول الأولي من غير ابتداء ولا انتهاء، المختار في فعله، القادر الحكيم الحيّ المُحيي، المدبر المبقي، الفرد في ملكوته عن الأضداد والأنداد، لا يشبه شيئًا، ولا يشبهه شيء[2]."

وقد تصور الهنود الوجود قبل الخَلق مملوءًا بالظلمات، وخاليًا من الأوصاف (وهذا هو العدم). ثمّ خلقَ الخالقُ (البراهمان – "إسفاتّا") الكونَ من ذاته، فصار الكونُ مرئيًا بعناصره الخمسة، يفيض بالنور. واقتضت حكمة البراهمان أن يوجِدَ المخلوقات، فأوجد الماء أولاً، ووضع فيه جرثومةً صارت بيضةً ذهبيّة فيها ذاتٌ صَلبة، تشبه البراهمان، هي جَدٌّ لكلّ الكائنات. وقسم البراهمان البيضة قسمَين، فكانت السماءُ والأرض والكائناتُ منهما. ثم خلق البراهمان الزمانَ والكواكبَ والأنهار والموجوداتِ الأخرى[3]...

فالبراهمان موجود بذاته، لا تُدركه الحواسُّ، ولكنّ العقل يُدركه. وهو مصدر العالم كما رأينا[4]. وقد جاء في الفيدا: "فارونا" في السماء، ، و"أغني" في الأرض، و"أندرا" في الهواء[5].

ويتّخذ كلّ إله في الكون أسماءه بناء على أفعاله. فـ"سيفا" هو الإله "رودرا" أيضًا، إله الخير، ويرتبط بالخصب وبقوى الإخصاب، وبـ"أندرا" حامل الصاعقة، وقاتِل التنّين

١ – أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٤٦

٢ – أبو الريحان البيروني، في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، حيدرآباد: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٨، ص ٢٠

٣ – أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٥٠

٤ – البراهمان "هو الأرضية غير المتغيّرة لكلّ عرض متغيّر... (و)القاع الكليّ غير المشخّص للوجود الذي صدر عنه كلّ ما عداه من الناس والآلهة ومظاهر المادة." (فراس السواح، دين الإنسان، ص ٢٥٤)

٥ – أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى، ص ٤٨

الذي يحبس المياهَ، ورافع القَحط عن الناس[1]، مع شريكَيه السماويين "الإسفان" – وهم أبناء إله السماء –، ومجموع "النزاتيا" هم راسمو الفجر. وتؤازر كلّ هؤلاء ألوهة أنثوية هي "لاوسا" إلهة الفجر التي تحارب الظلمات، و"سوريا" إلهة الشمس. وخلف هاتين الإلهتين الإله "سافيتار"، وهو الألوهة التي تحرّض النورَ على محاربة الظلام. بهذا يكتمل الثالوث الأنثوي بمقابل الثالوث الذكريّ، لأن سافيتار يقف خلف الألوهتين الأنثيين.

وإذا كان البراهمان هو النور الصافي ومبدأ الخلق، فإنّ "سافيتار" هو العقل المبدع للكون، ويقترن بدوره بالبراهمان، وهو نور العقل البشريّ، أي "موقظ العقول"، لذلك يُرْمَز إليه بالشمس التي ولَدها العملاق الكونيّ "بوروشا"[2]، وهي ابنة "ديوس" إله السماء. وهذا الإله – الأب هو السماء البارقة التي ترعى ارتقاء الكون، يحوبها الإله "فارونا" بطلاً مُلْهِمًا بنوره، رائيًا لكلّ شيء، مُعاقبًا الخطأة، وممثّل السموات. والإلهة "سوريا" هي عينُه، وله أيضًا ألفا عين أخرى، هي النجوم. إنّه الحضور الإلهي في العالم، وضمير الإنسان[3].

واللافت هنا أنّ إلهًا فارسيّ الأصل (ولعلّه هندي الأصل انتقل إلى فارس) يظهر في هذه العلاقة هو "ميترا" إله النور، فـ"فارونا" يلازمه. و"ميترا" أيضًا هو صائن الشريعة التي تسيّر الإنسانَ والكون؛ وهو محرّك البشر. أمّا نار العالم الأرضي التي أشعلها البشر فهو

---

١ – قصة هذا الإله مع التنين والقحط وردت على النحو الآتي: "يقوم الإله "أندارا" (أندرا) بقتل التنين السماوي الذي يحتجز مياه الأعالي في بطنه، ويستلقي على قمم الجبال العالية في هيئة سحابة لا شكل لها، فيتمزق أشلاء بعد أن تصيبه صاعقة الإله في بطنه، ويتدفق الماء من جوفه ليسيل عبر السهول والوديان، وتعود الطبيعة سيرتها الأولى بعد الجفاف الذي حلّ بها. وبموت التنين الذي اغتصب سلطة الآلهة تتراجع التي جاءت معه إلى العالم الأسفل، ويعود آلهة العالم العلوي إلى مساكنهم في قمم الجبال يصرّفون أمور الكون... وكان أول عمل لـ"إندارا" (أندرا) بعد انتصاره هو إعادة بناء مدينة الآلهة التي استحالت يبابًا خلال... حكم التنين، فأتمّ ذلك على أحسن وجه... فهلّل الآلهة لـ"أندارا" (أندرا) وأعلنوه ملكًا ومخلّصًا..." (فراس السواح، دين الإنسان، ص ٢٥٧)

٢ – تُصوَّر هذه الإلهة في الميثولوجيا الهندية بعربة تجرها سبعة أحصنة، وهي بشكل عصفور، وقد تُصوَّر بشكل ثور أيضًا. (بولس طوق، النار والنور في الفكر العالمي، ص ٩٤)

٣ – المرجع نفسه، ص ٩٢ – ٩٦

"أغني"، ولُقِّبَ بـ"كاهن أزورا". وهو أيضًا إله نار السماء المضيئة في البرق، وإله الألفة الأُسَرِيّة الذي يُبعد الشرور، وقائد أرواح الموتى ورواعيها، والجثث تُحرَق بعد الموت لتكون برعايته[1]. وهذا الإله نفسه هو النار التي سرقها "ماتاريسفان" وقدّمها للبشر[2].

نلاحظ بعد هذا العرض السريع للديانة الهندوسية أنّ الثالوث الهندي هو أساسها: ويقوم على إله له ثلاثة أسماء: براهمان، وهو الخالق الأول وعلّة الكون، والواجب الوجود الذي لا يكون من غيره شيء. إنّه أصل الموجودات وفَيض النور. وصورته الثانية المنعكسة هي "فيشنو"، وهو حافظ العالم والموجودات، وصورة الخصب والكثرة وتجدُّد الحياة؛ و"سيفا" الذي يمثل الموت والزوال، لأنّه مُهلك العالم، ولكنّه في الوقت نفسه يعيده إليه، أي إلى خالقه الذي يعيد خلقَه مرة أُخرى في دورات متكاملة. وبالتالي فإنّ هذه هي صورة الأب، والابن، والعلاقة الدائمة بينهما.

كما نلاحظ أنّ براهمان (و"فيشنو" ابنه) يرتبطان بالنور. فالثاني فيض من الأول. والنور الصافي هو أساس الخلق الذي أعطاه البراهمان فأنهى الظلمات التي كان فيها الوجود قبل أن يوجد (أي أنهى حال العدَم التي كان عليها). فالنور مرتبط بالحياة، وهو رمز الوعي الذي يعطي الإنسانَ حياتَه.

ويمكننا أن نعتبر البراهمان هو الروح التي تحيي الجسد، ولا يكون الجسد فاعلاً من غيرها؛ كما أنّها قسم من الله – روح الكون الكلية. أما الـ"فيشنو" فهو العقل الذي يجب أن يضيء مسالك المعرفة البشرية والتصرفات، فيحمي الإنسان من الزلل والأخطاء. في حين أن "سيفا" هو الجسد نفسه الذي يتعرض للموت والتلف؛ ولكنّ هذا الجسد هو هيكل الروح، ولا بدّ من الحفاظ عليه لكي يتكامل قدر الإنسان في الحياة. هذه هي انعكاسات

١ – المرجع نفسه، ص ٩٩
٢ – المرجع نفسه، ص ١٠٠

الوجود الأكبر في الوجود الأصغر، وهي رموز الميثة الهندوسيّة في دلالاتها الإنسانية. وفي الواقع، لا يتكامل الإنسان إلا بهذه الثلاثية: الروح، والعقل، والجسد (هيكل الروح الذي تفعل من خلاله).

والثلاثيّة الأنثوية في الكون تتشكل من اثنين أنثويين، وألوهة ثالثة هي في الأساس ذكريّة ولكنها تصير أنثويّة أيضًا لارتباطها بالإلهتين الأنثيين: فـ"لاوسا" هي إلهة الفجر (وهي ترتبط هنا بالبراهمان مصدر النور)، وهي إلهة أنثى كما رأينا، و"سوريا" إلهة الشمس، وهي ترتبط بـ"فيشنو" الإله الحافظ للعالم، النائم فوق الغمر، وهي إلهة أنثوية أيضًا؛ في حين أن "سافيتار" إله ذكريّ في الأصل، ولكنّه يرتبط هنا بالألوهة الأنثوية، فكأنّه إله لا جنس له، تمامًا مثل "سيفا"، وهو يمثله في الثالوث. فالثلاثية الأنثوية تكمل الثلاثية الذكرية، بمعنى أنّ كلّ طرف له الطرف الآخر المناسب في الوجود البشري.

ولا يمكن أن تُفهَم النظريّة الهندوسيّة إلا من خلال مفهوم التقمّص الذي يرتبط بالكارما. فـ"الأتمان" هو كلّ الأرواح الفردية الموزّعة بين الخلائق. وهي من الروح الإلهيّة. والإنسان يقوم بأعماله في هذا العالم، ولكنّه يرتكب أخطاء يدفع ثمنها في الحياة اللاحقة. ويقوم مبدأ التعويض على هذا الأساس، لذلك ترتبط حياته اللاحقة وتفاصيلها بحياته السابقة.

ويمكننا أن نفهم مبدأ الكون والحياة والولادة والموت في الهندوسية (والبوذية أيضًا) بأن "الأكوان السابقات والتاليات تجثم في حيّز واحد، وتتبدّى متتابعة في زمان دائريّ وعَوْد أبديّ، كلما انتهت دورة بدأت أختها، وكلّما انحلّ كون وآل إلى الفناء متلاشيًا في جوهر المطلق الأبديّ نشأ كون جديد يعيد سيرة سابقه الأول، فتاريخ الكون لا يسير في زمن خطّيّ باتّجاه واحد، بل في زمن دوريّ ينتقل من النضج إلى الانحلال، فالنضج

مرة أخرى... إنّه زمن الطبيعة التي لا تعرف المئات والألوف من السنين، بل الدهور الجيولوجية والكونية[1]."

٤ – الأسرار الهندية والتكريس: كان الهنود يحتفلون بالأسرار في معابد ضخمة مبنيّة داخل الصخور، وفي أهرام مظلمة. ولعلّ معبد إيليفانتا هو أقدم معبد في العالم، يبلغ في مساحته مئة وخمسًا وثلاثين قدمًا مربّعًا، ويبلغ ارتفاعه ثمانيَ عشرة قدمًا. تحمله أربع عواميد ضخمة، وحيطانه مغطّاة بالتماثيل والنقوش والرسوم والزينة. وكانت معابد سالسيت توازي هذا المعبد روعةً، ومع أنّها كانت داخل الصخور، إلا أنّ أشكالها الخارجيّة كانت هرَميّة، وكانت في داخلها غرف كثيرة، وأقبية سريّة، من بينها قبوّ مربّع كان المُسارّ في مرحلة إسراريّته الأولى يُقادُ إليه، ويوضَع فيه.

وكانت الأسرار الهندية موزّعة على أربع درجات. وكان يمكن للمرشّح أن يؤدّي اختباره الأول في الثامنة من عمره، وهذا الاختبار عبارة عن تكريس خاصّ للزنّار (أو الرباط المقدّس) وهو حبل له ثلاث جدائل. يواكب هذا التكريس عدد من الاحتفالات، ثم ينتهي بقراءة مطوّلة يتلوها معلّمه (هي بعض مقاطع من الفيدا).

وبعد الاحتفال، كان المسارّ يُكسَى بإزار كتّانيّ، ويضع "البرهما" (الكاهن الذي يعلّمه) على أذنه اليمنى رباطًا لكي يبدأ بتعليمه ما يجب أن يعرفه من أجل الدرجة الثانية. ويخضع الطالب لتكفيرات قاسية، ويتعلّم الحفاظ على طهارة جسده من إغراءات الخارج، ويخصّص وقتًا مناسبًا لتعلُّم الكتب المقدسة.

وعندما يبلغ العشرين كان يُسمَح له بالتقدّم للامتحان إذا نجح في إتمام المرحلة التحضيريّة للدرجة الثانية. في هذه المرحلة كان يُطلَب إليه تقشُّف أكبر. وعندما يُنجز

---

١ – فراس السواح، <u>دين الإنسان</u>، ص ٢٦٠ – ٢٦١

اختباراته وتعلّمه في هذه المرحلة يُسارّ. وكان يخضع لامتحان "الباستوس"، وهو امتحان صعب ومخيف يُدعى "باب باتالا"، أي الجحيم، يخضع له مُطهّرًا بشارة الصليب (صليب معقوف، أو صليب السفاستيكا الذي تمثل أطرافه العناصر الأربعة [راجع الرسم]) على أنحاء جسمه. وهذا هو امتحان الموت الروحانيّ.



شكل الصليب السفاستيكا في الوسط داخل دائرة، وهو يرمز إلى محور الكون كله حول إله انبثق منه (مصدر الكون)

وكان المسارّ، بعد أن يبلغ كمال تقشّفه، يُقاد ليلاً في الظلام إلى كهف مُعَدّ خصيصًا لاستقباله. وكان داخلُ الكهف مضاءً إضاءة قويّة بنور يماثل ضوءَ شمس الظهيرة. في هذا المكان، كان الكهنةُ الكبار الثلاثة يجلسون بأثوابهم الباذخة في الشرق والغرب والجنوب، ويمثلون الثلاثي "براهمان" و"فيشنو" و"سيفا" مع حاملي الأسرار من حول المُسارّ بأثوابهم المقدسة. وكان الناقوس المقدّس يدعو المرشّح إلى وسط هذا المجمع؛ وعندئذ يبدأ الاحتفال بدعاء فيديّ خاصّ؛ ثمّ يؤدّي المسارّ القسمَ المقدّس، ويُطهّر بالماء وبالأدعية، ويخلع حذاءه ليدلّ على أن الأرض التي يطأها طاهرة وغير ملوّثة، ويطوف المعبد ثلاثًا، وهو يردّد في كلّ مرة يبلغ فيها جنوبه: "أمثّل بالشمس، وأتبع دورتها الخيّرة[١]." وفي نهاية هذه الرحلات، يسلّم المُسارّ إلى مرشد روحيّ، ويُقاد إلى صمتِ تأمُّلٍ مناسبٍ يسبق الاحتفالات اللاحقة، ليمرّ من بعدُ في سبعةِ كهوف مظلمة، وبين أصوات العويل والصراخ المفجعة، يسمع انفجارًا مفاجئًا قويًّا، وتظهر له بروق ملتمعة، ثمّ يعود إلى الصمت العميق

١ – Charles H. Vail, **The ancient mysteries and modern masonary**, p. 43

والظلام. وتظهر له، شيئًا فشيئًا، أشباح وظلال مختلفة الأشكال، لبعضها عدّةُ أيدٍ وأرجل، وبعضها لا يد له ولا رجل؛ وتمثل هذه الأشباح كلّ أنواع الآلهة، وباقي المقدّسات.

ولا يلبث المسارّ أن يرى "فيشنو" من خلال تجسيد له. وفي أثناء الظهور الخامس، يسير خمس خطواتٍ قائمة الزوايا. وكانت كلّ هذه الاختبارات لتعليم المسارّ عددًا من الدروس، ولتجسد له عددًا من الحقائق، كما هي الحال، مثلاً، في الكهف السابع من كهوف الإسراريّة، حيثُ تُمثّل له سبعة أقسام للعالم اللامرئيّ، أو مواضع المكافأة والعقاب السبعة.

وبعد كلّ هذه الرحلات والاختبارات، يدقّ الناقوس، وتنفتح الأبواب كلّها، فيُقاد المسارّ إلى الجنّة - وكانت هذه مكانًا وسيعًا شديد الإضاءة، تزيّنه تماثيلُ ووجوه مشرقة، وترصّعه الجواهر والأحجار الكريمة.

ويقال للمسارّ، وعيناه مسمّرتان على شخص الإله، أن ينتظر نزولَه في ألسنةِ النار الهَرَميّة المحيطة به، ما يُلهِب قلبَه بالمشاعر، ويضاعف إخلاصَه الروحيّ. ثمّ يُعطى اسمًا جديدًا بعد أن بلغَ مرحلة كبيرة من التطهُّر، ويقدّم إلى البراهما الأكبر الذي يكون مركزه وسط مجموعة من الكهّان تستقبله كأخٍ ومُسارّ، وتُلبسه ثوبًا أبيضَ جديدًا، وتضع على رأسه إكليلاً، وتُجلسُه في مكان مرتفع، مشرف، وتعلّمه الإشارات والرموز وأسرار الأخويّة، وتَسِم جبينَه بالصليب المعقوف، أمّا صدره فتَسِمه بصليب تائيّ (وهو صليب بشكل حرف التاء الفرنسي الكبير الخطّ) - ما يرمز إلى البراءة والحياة الأبدية؛ ويُزَنَّر خصره بحزام، ثم يُعطى الاسم الإلهيّ الذي لا يعرفه غير المُسارّين، ويُعرّفه مساعدو البراهما (الكاهن الأكبر) بمعاني الرموز المختلفة التي تحيط به في المكان، وبأسرار العلوم والمعارف المخبّأة تحت ظلام هذا القبو المقدّس[1]. وكانت بعض التعاليم الهندية مخبّأة في رموز ذات

١ - Ibid., p. 42 - 44

أشكال خاصة يراها كل الناس لأنها على أبواب المعابد، ويكون فهمهم لها سطحيًا، أما المسارّون فوحدهم من يقدر على سبر أغوار معانيها العميقة[1].

٥ – خاتمة: بعد هذا العرض، يتّضح لنا أنّ الديانة الهندية ليست مجرد آلهة يؤمن الناس بها، بل هي مجموعة أسرار عميقة ذات دلالات خاصة، تُدرّس عند الإسرارية حتى يلمّ بها المسارون، ويفهموا عمقها وأغوارها.

كما يتّضح لنا أنّ الهنود والبراهمة عمومًا كانت لهم ولا تزال طقوس لتكريس المسارين، ولتعليمهم جوهر الديانة وأسرارها، ودلالات الآلهة وعلاقاتها بالوجود والطبيعة والإنسان. ولكنّ هذه الطقوس الإسرارية لم تتوقف عند الهند، بل كان لها وجود في حضارات قديمة أخرى، سنتوقف عندها تباعًا في الفصول الأخرى.

---

١ – Ibid, p. 45

الفصل الرابع

الأسرار والتكريس في بلاد فارس

١ – **مقدمة:** كانت حضارة فارس من أهمّ حضارات العالم القديم، وقد تركت أثرًا في كلّ الحضارات التي تاخمتها، من الهند إلى الفراعنة إلى ما بين النهرين، إلى الإغريق. وفي الواقع فإنّنا لا يمكننا أن ننفي تأثّر المسيحيّة نفسها والإسلام أيضًا ببعض ما في الديانة الفارسية القديمة وعلومها. إنّ التاريخ الفارسي يعكس تفاعلات كثيرة بين الفرس وسواهم من الشعوب المجاورة، وهي تفاعلات تظهر بوضوح في الحضارة العربية اللاحقة (في العصر العباسي خصوصًا)، ولكن في الهند كذلك، وفي ما بين النهرين، حين كان لتلك البلاد صراع سياسيّ وعسكريّ في مراحل متعدّدة مع الفرس.

ولكنّ ما يهمنا في هذا المجال هو التأثير الفكريّ الديني الذي خلّفته الحضارة الفارسيّة (والديانة الفارسيّة بصورة أخصّ) في من حولها. وهنا لا يسعنا إلا أن نذكّر بأنّ المسيحيّة المعروفة متأثّرة إلى كبير بالديانة الفارسيّة القديمة، وتحديدًا بالزرادشتيّة. والأسرار الفارسيّة المجوسيّة مهمّة في هذا المجال، وكذلك التكريس الذي عرفته معابد الفرس لطلاب المعرفة السريّة. هذا الفصل يتناول هذه المسائل.

٢ – **الديانة الفارسية ورموزها:** "الله عند "زرادشت" هو السيّد المهيمن الحكيم، "أهورا مزدا"، خالق السموات والأرض، وهو الأول والآخر... روحه المقدّسة هي التي تُقيم الحياة، وتخلق الرجال والنساء."[١] فـ"أهورا مزدا" هو مصدر الكون، يفيض منه النور وطاقته الخلاقة التي فيها قوّة الخلق، يوصلها "سْبَنتا" إلى المخلوقات الأخرى[٢]. وهكذا، فإنّ الوجود اللامتناهي للإله القادر الخالق ("أهورا مزدا") يعكسه التناسق،

١ – جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، تعريب: إمام عبد الفتاح إمام، الكويت: سلسلة عالم المعرفة (١٧٣)، ١٩٩٣، ص ٩٠

٢ – بولس طوق، النار والنور في الفكر العالمي، ص ١١٣

والنظام، والقاعدة، والمبدأ في السموات والأرض. وليس الله مسؤولاً عن الشر، بل المسؤول عنه هو "أهريمان" (الشيطان)، وهو بدوره جوهر، شأنَ الله. وثمّة قدرات إلهيّة ستّ، ثلاثة منها ذكور، وثلاثة إناث، تجلس أمام العرش الإلهيّ، وتساعد "أهورا مزدا"، تُدعى "أمهراسباند"، أو الملائكة المقربين[1]. هؤلاء يحرسون العناصر الأربعة التي منها يتكوّن العالم: الماء والتراب، والهواء، والنار (الحرارة)، يساعدهم كذلك "اليازات" أي الطاهرون. هؤلاء المساعدون كُثر بعددهم، تواجههم حشود هائلة من الأرواح الشرّيرة. من هنا فتاريخ العالم هو تاريخ الصراع بين الخير والشر، وينقسم بدوره أربعة مراحل، كلّ مرحلة مدّتها ثلاثة آلاف سنة؛ المرحلتان الأولى والثانية كان فيها كلٌّ من "أهورا مزدا" و"أهريمان" يجهّز قوّته للدخول في الصراع، والمرحلة الثالثة هي مرحلة الصراع، والرابعة هي مرحلة انهزام "أهريمان" وأتباعه[2].

والناس هم الصورة البشريّة لذات "أهورا مزدا" السماوية التي تُدعى "الفرافاشي" Fravashi، وهم أحرار في اختيارهم للخير أو للشر[3]، لأنّ كلاً منهم مسؤول عن أعماله التي سيُحاسَب عليها في الآخرة. فعقائد الفرس تقرّر أنّ نهاية العالم ستكون بفعل حادث فلكيّ ضخم، يصطدم فيه كوكب بالأرض، فيفنى "أهريمان" وأتباعه (المرحلة الرابعة التي ذكرنا)، وتتطهّر الناس في مُنصَهَر النحاس، ويجمع "أهورا مزدا" بعد ذلك الخلائقَ في حياة جديدة، ويحاسبهم على أعمالهم[4]. تلك صورة اليوم الأخير في الدّيانة الزرادشتية.

---

١ – جفري بارندر، المعتقدات القديمة لدى الشعوب، ص ٩٢
٢ – المرجع نفسه، ص ٩٣
٣ – المرجع نفسه، ص ٩٤
٤ – يسر محمد سعيد مبيض، اليوم الآخر في الديانات السماوية والديانات القديمة، قطر: دار الثقافة، ط١، ١٩٩٢، ص ٤٣

وفي يوم الحساب، تجتاز أرواح الموتى جسر "شنفات" الذي يفصل بين العالم الأرضيّ والعالم الآخر[1]، ويقف في آخره ثلاثة قضاة عند باب العالم الآخر، بينهم الإله "ميترا" - وسيأتي الكلام عليه - حيث نُصِب ميزان توضَع في كفّة من كفّتيه حسنات الميت، وفي الأخرى سيّئاته، ويُحكم عليه؛ ثمّ تذهب الروح بعد هذا إلى واحد من ثلاثة أمكنة، بحسب أعمالها: إما إلى دار الجحيم، وهي مكان الظلام والبرد، وإمّا إلى النعيم حيث موضعُ النور مع "أهورا مزدا"، وإمّا إلى مكان واسع بينهما، فسيح بين الأرض والسماء، فيه برد وحرّ، ينتظرون فيه رهبةَ الحكم الأخير (وهذا المكان الوسط يشبه كثيرًا "المَطهر" في الديانة المسيحية)[2]. أمّا الجنّة التي يكون فيها "أهورا مزدا" فمكانها في أقصى شمال جبال "هرابيرازيتي" التي ترتفع فوق النجوم، باتجاه النور اللانهائيّ، حيث الجنّة في "منزل النغَم"، وهو أعلى الجبال وأمّها، وهو الجبل السابح في العزة الإلهية: "الغاروثمان"[3]. وهذه هي المرحلة الرابعة للعالم (التي تدعى "فراشكارت"، حيث يكون التبدّل الشكليّ الذي يحققه "الساوشيانت"، أي "المنقذون"، وهم المتحدرون من سلالة الإله "أهورا مزدا". والتأمّل في الحكمة الإلهية (النورانيّة) هو الوسيلة التي تمكّن الإنسان من تجاوز المساوئ إلى عالم النور[4].

و"ميترا" إله آريّ الأصل، "يُعبَد في الزرادشتية كإله للعقود والاتفاقيات؛ وهو يحفظ الحقّ والنظام، ويوصف بأنّه محارب قويّ، جبار... وبوصفه حارسًا للحقيقة، فهو قاضي الأرواح بعد الموت؛ وبوصفه الحافظ للاتفاقات والعقود، فهو الذي يحدّد متى تنتهي فترة (كذا) حكم الشيطان. ويُنتظَر قدومه في أيام النصر."[5] وهو إله نراه أيضًا في الديانة

---

١ – بولس طوق، النار والنور في الفكر العالمي، ص ١١٤
٢ – يسر محمد سعيد مبيض، اليوم الآخر في الديانات السماوية والديانات القديمة، ص ٤٤
٣ – المرجع نفسه، ص ٤٥
٤ – بولس طوق، النار والنور في الفكر العالمي، ص ١١٦
٥ – الأفستا، تقديم: خليل عبد الرحمن، دمشق: روافد للثقافة والفنون، ط٢، ٢٠٠٨، ص ١٧. وقارن: جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص ٩٨).

الهندية على أنّه إله النور، حافظ العهود وسيادة القضاء والشرائع التي تسيّر الناس والكون، وراعي العلاقة بين الإنسان والطبيعة، لذلك يرتبط بالشمس، ويبعث الحياة، فهو منظّم الكون[1].

وقد انتشرت عبادة "ميترا" في عدد من البلدان بالإضافة إلى الهند، فوصل هذا الإله إلى بلاد ما بين النهرين، وآسية الصغرى، وعُرف في الحكايات الأرمنيّة، وفي الأسماء التي حملت صفات إلهيّة، وفي بعض الكتابات المصريّة والأناضوليّة في العصور السابقة للمسيحيّة. وكانت عبادته بين العام ٦٠ ق. م. والقرن الثاني ب. م. منتشرة في رومة حتى بريطانية[2].

---

١ – بولس طوق، <u>النار والنور في الفكر العالمي</u>، ص ٩٦ – ٩٧. وهنا نلفت إلى خطإ وقع فيه بولس طوق برأينا في تفسيره لـ"المطرا" عند جبران. فهو يقول: "وبهذه الصفات الهندية الإيرانية مجتمعة للإله "ميترا"، اتّخذ "جبران خليل جبران" في كتابه "النبيّ" اسم هذا الإله اسمًا لسيّدة كانت الوسيطة بين "المصطفى" والشعب. إنّها السيدة التي سألت "المصطفى" عن حسن العلاقات بين الناس، فدعته للتكلم عن النخبة. وهي صديقة "المصطفى" وحليفته، وصاحبة التفكير الواضح والنظاميّ التي دفعت "جبران" إلى العمل الدنيويّ، والعمل الروحيّ، بعطف وكهنوتيّة وعفاف، وذلك من خلال إخلاصها وصراحتها معه، باعثة في قلبها الحياة والفرح، حاميةً وحافظة لكلّ عهد التزمت به تجاهه، موجّهة شمسه ومحدّدة مواقيت زرعه وحصاده. إنّها "ماري هاسكل"، ميترا "جبران"..." (المرجع نفسه، ص ٩٨) فبرأينا أنّ "جبران" انتمى إلى أخويّة سريّة عُرفت وانتشرت في أيامه في الولايات المتحدة، كما في غيرها من البلدان، هي أخوية "الصليب الوردي" A.M.O.R.C، وفي هذه الأخوية تنظيم لمحفل خاص بها، في داخله عضو يدعى "المطرا" la Matre، وهي في المحفل "أم الجميع"، ولها مقام موازٍ لرئيس المحفل، تجلس في الغرب، حيث الشمس تنسحب بكامل عظمتها حين يكمل الإنسان أعماله الجسديّة ليخلد إلى الراحة. وهي في المعنى الروحي "أم أطفال المحفل" (الإخوة الذين فيه)، يلجأون إليها في مشاكلهم الشخصية التي لا يفهمها سوى الأمّ؛ وبإمكانها أن تلجأ، بصفتها هذه، إلى رئيس المحفل وإلى الأخوة الآخرين لمساعدتها في حلّها مشاكلهم. H. Spencer Lewis, **<u>Manuel rosicrutien</u>**, Villeneuve: éd. Rosicrutiennes,) 35 – 3ème éd,1965, p.34). فأوصاف "المطرا" الصليوردية تنطبق على "مطرا" "جبران" أكثر من الأوصاف التي ذكرها "طوق"، هذا بالإضافة إلى أن الـ"ميترا" إله النور إله ذكري، وليس أنثى.

٢ – جفري بارندر، <u>المعتقدات الدينية لدى الشعوب</u>، ص ٩٨.

والديانة الزرادشتيّة ديانة متفائلة في جوهرها؛ فقد كانوا يعتبرون الغرضَ من العقاب هو الإصلاح، لا الانتقام. فالخالق يحبّ مخلوقاته، لذلك إذا ولجوا النارَ طهّرهم بعد عقابهم بها، ونقّاهم من الشرور التي ارتكبوها، لكي ينهضوا يومَ البعث (في المرحلة الرابعة) معًا بفضل المخلّص[1]. ولم يكونوا يحرقون جثّة الميت، ولا يدفنونها، كيلا تُنجّس، بل يتركونها في العراء لتأكلها الطيور الجارحة.

والكتاب المقدس الذي يعتمد الزرادشتيون عليه هو "الأفستا" Avesta، وما بقي منه هو "الأناشيد" Gathas، ونصوص الطقوس الدينيّة الرئيسة التي تدعى "الياسنا" Yasna، و"الونديداد" Windidad، وترنيمات أخرى هي "الياشت" Yasht و"الصلوات"[2]. وللزرادشتيّين رمزان يذكّرانهم بدينهم، إلى جانب النار، هما:

١ – "الكوشي" Kushi، وهو عبارة عن خيط مقدّس يرتبط به اثنان وسبعون خيطًا ترمز إلى أسفار "الياسنا"،

٢ – والقميص sander التي ترمز إلى الدين، وتكون عادة بيضاء كقميص الكهنة الذين يصلون خمس مرات في اليوم، ويسهرون على النار الرئيسة التي تدعى "بهرام" Bahram[3].

٣ – رمزيّة الدين الفارسي: يمثل الدين الفارسي مرحلة متقدّمة من فكر الشعوب الدينيّ والإسراريّ. فالصراع بين الإلهين رمز للصراع المعروف بين الخير والشر. وهو عينه الصراع داخل النفس البشريّة بين نزواتها التي تشدّ بها إلى الأسفل وبين تمسّكها بالقيم التي ترفعها

---

١ – المرجع نفسه،، ص ٩٦
٢ – المرجع نفسه ص ٩٢
٣ – المرجع نفسه، ص ٩٥

إلى فوق. و"أهورا مزدا" هو المخلّص لأنّه النور الذي يشعّ على البصيرة، وداخل الذات، ليرفعها إلى مستوى المثال، في حين أنّ "أهريمان" هو النواقص الجسديّة والأرضيّة التي تحجب المثال عن الذات. وهذا الصراع هو الصراع الأبديّ بين النظام والفوضى، وبين السلب والإيجاب، وبين الطبيعة الجسديّة الناقصة في الذات الإنسانيّة والطبيعة الروحانيّة النورانيّة لها، ولهذا السبب كان الإلهان معًا "أهورا مزدا" و"أهريمان" جوهرين، فالإنسان لا يكون من غير جسد، لكنّ الروح تبقى في النهاية – في المرحلة الرابعة – بعد سقوط "أهريمان" الذي يمثل فناء الجسد، تليه المحاكمة (الثواب والعقاب). ومجانبة إله الخير تعني التنازل عن النواقص التي تحجب رؤية الحقيقة. من هنا كان هو النورَ الأسمى، في حين كان أهريمان الظلام والبرد. إنّهما الصراع بين الحياة والموت، وكلّ منهما جوهر في الحياة لا عرَض، ووجودهما هو نفسه تعاقب الفصول في الطبيعة، لأنّ أيّ فصل منهما لا يمكن أن يكون بغير الفصل الآخر: فالشتاء لا يكون بغير الصيف، والربيع لا يكون بغير الخريف. هذه هي الدورة الحياتية للطبيعة، كما أنّ الموت والحياة هما الدورة الطبيعيّة في حياة الإنسان. فارتباط "أهورا مزدا" بالنور الأسمى هو ارتباط الحقيقة الروحانية بالتنوير الروحيّ الذي يحوّل الإنسانَ ابنًا للنور، وبالتالي إلهًا. وارتباط "ميترا" بالشمس هو ارتباط الذات الإلهية النازلة إلى حيّز الطبيعة بالدورة الحياتية؛ لهذا السبب هو يمثل النظام والقاعدة والمبدأ، ويمثّل أيضًا العدلَ والإنصاف. فالعدل يتمّ بإعطاء كلّ طرف حقّه في أن يكون من أجل أن يكون الطرف الآخر.

وقد انعكست هذه الجدليّة الأساسيّة في الديانة الفارسيّة في طقوس التكريس الإسراريّة. ذلك أنّ الدلالات العميقة للآلهة في رمزيّتها لم تكن تُعطى لغير المسارين، في حين أنّ المعنى الخارجيّ العام كان في متناول الناس والعامّة.

في الواقع، الله الواحد برأينا هو في أساس الديانة الفارسيّة، وفي هذا الإله الواحد تتشعب الكائنات في اثنين: "أهورا مزدا" و"أهيرمان". فذاته الكاملة تحتمل في داخلها

النقيضَ المتكامل. ومبدأ الخلق يوجب كونَ طرفين رئيسَين: الخالد والزائل، والسلبي والإيجابي، والحياة والموت. فمنَ الله نفسه، من ذاته عينها، تنبثق الكائنات في ازدواجيّتها التي تُحدِث الحركة في الطبيعة وفي الكون. لهذا السبب كانت مسألة الاختيار والحرّيّة أساسًا في الدين الفارسيّ؛ فالإنسان يختار أفعاله، ويحاسَب عليها. ولكنّ الغاية من الخلق هو الحياة، لا الموت، لأنّ الاستمرار هو الذي يتحكّم بالكون، والبشر تُبعَث بعد المَمات والتكفير إلى حياة في قرار النور.

وأظنّ الديانةَ الفارسيّةَ في هذه المسألة تنقل إلينا إيمانًا بالتقمّص، من غير أن تسمّيه هكذا. فالحساب المذكور هنا، والعالم الوسَط بين الفردوس والجحيم، هو الأرض التي يكفّر فيها البشر عن أخطائهم، ومن خلالها يصلون إلى النور الحقيقيّ، لهذا السبب يشعر الناس في هذا العالم بالحرّ والبرد. ومثل هذا أيضًا الجحيمُ المذكور، فهو العالم الذي يكون فيه الإنسان لا يزال غير مهيّأ للتطوّر الروحيّ. فهو في الظلام، ولا يكون بعد متقبّلًا للإسراريّة. وطالما أنّه لا يعي جوهر الحياة هذا، فهو في الجحيم، حتّى يبلغ مرحلة مهمة، ينتقل فيها إلى العالم الوسط بأعماله، ومنه إلى الفردوس.

أمّا تقسيم مراحل الوجود أربعةً، كلّ قسم مدّته ثلاثةُ آلاف سنة، فهو صورة لدورة الحياة التقمّصية التي تجتازها الذات الإنسانية في تطوّرها الروحيّ، واستعمال الأرقام يشير إلى ما نقول: فالرقم أربعة هو الرقم المختص بالطبيعة، لهذا السبب هو مرتبط بالحدوث الذي يظهر في الكون الماديّ. إنّه صورة فصول الطبيعة (أربعة فصول)، كما أنّه زمنها (ثلاثة أشهر كلّ فصل). والانتصار في كلّ هذه الفصول هو للحياة، لأنّها تبعث الطبيعة باستمرار. والرقم ٣ رقم مقدّس، بل أوّل الأرقام المقدّسة التي توصل إلى رقم الكمال ٩ (٣ هو الجذر التربيعيّ للرقم ٩). ومجموع الأرقام هنا هو ٧ (٣ + ٤ = ٧) وهو بدوره رقم مقدّس. ومثله مجموعُ دورة الشهور الخاصة بالفصول (٣ x ٤ = ١٢)، فهو بدوره رقم مقدّس. والصراع في هذه الفصول لا نهاية له، لأنّه من جوهر الطبيعة، لا تحيا بغيره،

تمامًا كما أنّ إله الخير ("أهورا مزدا") وإله الشر ("أهيرمان") من جوهر الكون (الشر/ الخير - الروح/ الجسد).

٤ - الإسراريّة والتكريس في فارس القديمة: قلنا إنّ المعابد انتشرت في مدن العالم القديم كلّها. وكان في كلّ مجتمع فلاسفة روحانيّون ملمّون بقوانين الطبيعة. وقد شكّل هؤلاء مدارس فلسفيّة ودينيّة حيثُ كُرّس عدد كبير من العباقرة[١]. ومعظم الميثولوجيّات والأساطير وعلوم الآلهة القديمة كانت تُخفي في طيّاتها أسرارًا خُصّ بها المسارّون، وَنَحَتْ نحو الوجدانيّة تحتَ ستار التعدّد. ولكنّ معرفة هذه الوحدانيّة لم تكن إلا للمسارّين. ومع انهيار كلّ حضارة، تحرّفت الأسرار التي علّمتها وآمنت بها[٢]. وكانت معظم الوثنيّات القديمة تقوم على عبادة الشمس في إله، ما يدلّ على أصلها الأتلانتيّ[٣]. وكان هذا الإله في الديانة الفارسيّة ظاهرًا، كما رأينا.

أ - طقس التكريس في عبادة "ميترا": وكانت طقوس عبادة "ميترا" تتمّ في كهوف. وقد قيل إنّ "زرادشت" كان أوّل من خصّص كهفًا للعبادة، لأنّ الكهف يمثّل الأرض[٤]. وكان المرشّحون للأسرار يُطَهَّرون بعدّة وسائل لتلقيها، وفي خلال خمسة وأربعين يومًا من المراقبة والاختبارات، وقد تمتدّ حتّى خمسين. كلّ هذا يتمّ في كهف سفليّ.

وكان التكريس يمرّ بثلاث مراحل رئيسة، أو درجات، يتمّ التطهير الذاتي من خلالها، وتدعيم قوى الذكاء والحكمة في المسارّ، وسيطرته على القوى الحيوانيّة التي

---

١ - Manly P. Hall, **The secret teaching of all ages**, p 43

٢ - Loc. Cit.

٣ - Ibid, p. 44

٤ - Ibid, p. 53

تمثّلها شهواته الإنسانيّة. وهكذا كان يُعطى في الدرجة الأولى تاجًا على رأس سيف، ويتعلّم قوى "ميترا" السريّة، لأنّ "ميترا" كان يمثّل روحه التي تقف وسيطًا بين "أهورا مزدا" جوهر روحه ومصدرها، و"أهريمان" جوهر نزعاته الحيوانيّة وشهواته التي تشدّ به إلى أسفل.

وفي الرحلة الثانية، كان المسارّ يُعطى درع الذكاء والطهارة، ويُرسَل في رحلة هائلة - سنأتي على تصويرها مع الرحلتين الأخريين - إلى كهوف وأقبية سفليّة، يحارِب فيها وحوشَ الشهوات والانحطاط التي بداخله.

وفي الرحلة الثالثة، كان المسارّ يُعطى رداءً بلا أكمام، رُسمت عليه علامات الأبراج، وبعض الرموز الفلكيّة الأخرى. وعندما ينتهي التكريس، كانوا يعلنون أنّ المسارّ قد انبعث من الموت، وصار أخًا كاملاً في الأخويّة. وكان المسارّون الناجحون يُدعَون "أسودًا"، ويُمهَرون بصليب الأنخ المصريّ. أما "ميترا" فكان يُصَوَّر برأس أسد مع جانحين[١].

كان هذا الامتحان يزحزح صلابةَ كثير من من طالبي الأسرار لهوله وصعوبته. فالمرشّح كان يُترَك مدّة في مكان موحش للصمت التام (وهو مكان التحضير، أو غرفته). وهذا الكهف الذي يوضَع فيه للتأمّل (كهف التأمل) هو بمنزلة القبر، يكون المرشّح فيه في عفّة وحرمان كبيرين، وشبه تامين[٢]. ثمّ يُقاد إلى رِواق الأسرار، ليبدأ بتلقيها، وسيفٌ موجّه إلى صدره العاري. ثمّ يُؤخَذ إلى الغرفة الداخليّة حيث يُطَهَّر بالماء والنار، ليُقادَ مجدّدًا إلى المراحل الإسرارية السبع الموزّعة على الدرجات الثلاث.

---

١ – Loc. Cit.

٢ – Henri Delaage, **Doctrines des cocietes secretes**, Paris: E. Dentu, 1852, p. 56

ثم يُقاد المسارّ إلى هاوية مخيفة يقف أمامها، ويكاد أيّ خطأ أن يوقعه فيها[1]، وعليه أن يتحسّس طريقه نحو كهف معتم، يقوده فيه شخص مهيب بداخله، في ضجيج أصوات حيوانات متوحشة مرعب، وتُمسك به أيدٍ لا يراها، تدفعه إلى جُحر حيوانات قليل الإضاءة، تهاجمه فيه، وهي تبدو في أشكال أسود ونمور وذئاب، ولكنّها في الحقيقة أفراد من إخوته متنكرون بهذه الأشكال، وعليه أن يشقّ طريقه في هذا المكان المخيف الذي يُدفَع فيه من يد إلى أخرى، قبل أن ينجو، ويُغطّى بالجراح[2]. وكانت النار المقدسة تظهر له من وقت إلى آخر، مضيئةً سبيله، تارةً بين يديه، وأخرى بين رجليه، أو تظهر فوق رأسه خيالات شُعَل بيضاء. وكانت أصوات الحيوانات التي يسمعها تزيد من خوفه؛ فإذا حاول التراجع دفعته إلى الأمام يد المرافق الصامت، ليجد نفسه مجددًا في نفق محاط بالوحوش، قليل الإضاءة. ويحثّه هذا المرافق على الثبات، وتهاجمه الوحوش، كما ذكرنا، من كلّ مكان؛ ومهما كان المسارّ شجاعًا من النادر أن يخرج سالمًا تمامًا، لهذا السبب كانت بعض الجراح تغطيه.

وينتقل المسار إلى كهف آخر، ويغرق مجددًا في الظلام والصمت. ولا بدّ له من إكمال طريقه وهو يتأمّل الخطر الذي تجاوزه ونجا منه. ولا تلبث أن توقظه من تأملاته أخطار جديدة، فيسمع صوتًا عميقًا صادرًا من بعض الأروقة المحيطة به يزداد قوّة كلّما تقدّم باتجاهها، حتى يصير قصفَ رعدٍ قويًا جدًا يرجّ صداه الكهف والأروقة التي تحيطه، وتكشف له أضواء البروق المتكررة أشكال جنّ تهدّد بالقضاء عليه لأنّه الدخيل الذي تجرّأ على دخول مقرّها، واعتراض راحتها. وتتكرر هذه المشاهد؛ وحين يصير المسارّ على وشك أن ينهار من الخوف والإجهاد يوجّهه مرافقه إلى مكان

١ – Charles H. Vail, **The ancient mysteries and modern masonary**, p. 46

٢ – W. G. Sibley, **The story of freemasonaty**, Ohiyo: the lions paw club, 1913, p. 8

مريح يستعيد فيه أنفاسه، حيث يرى ضوءًا قويًا، ويسمع موسيقى مريحة[١]، ويشتمّ عبير زهور، فيهدأ روعه، ويشرح له مرشده معنى ما مرّ به، وهو شرح سيتّسع مع نهاية التكريس[٢].

ويعطي المرشدُ المسارّ إشارةَ ليتابع رحلته، فيظهر له فورًا ثلاثة كهنة، يرمي أحدُهم في صدره ثعبانًا يتلوّى ويصدر فحيحًا عاليًا، في إشارة إلى استمرار رحلات التكريس؛ ويُقاد على هذه الحال إلى باب تصدر منه أصواتُ عويل مخيفة، الهدف منها أن تترك شعورًا بالرعب في المسارّ الذي ينظر إليها فيرى أشكالاً بشرية غارقة في عذاب جحيميّ. وما إن يبرح هذا المكان حتى يمرّ بسبع رحلات تحت الأرض لامتحان شجاعته، فيعبر كهوفًا أخرى وممرّات داكنة، حتى يتجاوز تلك المتاهة المؤلفة من ستّة أقبية متلاحقة، وسبعة ملتفّة على بعضها، تنفتح كلّ منها على الأخرى بباب صخريّ ضيّق.

وبعد أن ينتهي من رحلاته السبع المذكورة هذه ويجتازها، تتأكّد شجاعته، وتنفتح أبواب الأقبية كلّها، ويتحوّل ظلامها إلى ضوء، وينتقل إلى مكان رائع: كهف "إيليزيوم" المقدّس الذي يمثّل قدسَ الأقداس، وهو عبارة عن كهف شديد الإضاءة، مرصّع بالذهب والأحجار الكريمة، تملأه موسيقى خلاّبة.

في هذا المكان يجلس "كبير المجوس" (عظيم الكهنة) في الشرق على عرش من ذهب لمّاع، على رأسه تاج من أغصان الآس، وعليه ثوب فضفاض أزرق اللون. ويحيط بـ"كبير المجوس" هذا الكهنة المساعدون، ومعلّمو الأسرار، ليشكّلوا معًا مجلسًا ساميًا حول

١ – Ibid, p. 9

٢ – Charles H. Vail, **The ancient mysteries and modern masonary**, p. 47

المسارّ، يرحّب به بينهم، فيُقسِم أمامهم يمينَ الولاء والحفاظ على الأسرار، ويُعطى الكلمات المقدسة، ومن بينها اسما الإله السريّ[1]. وبعد ذلك يُلقَن المسارّ العلوم السريّة، ومعنى الرموز والرحلات التي قام بها، وغرضَها الأخلاقيّ. واللافت أنّ النساء لم يكنّ يُقبلْن البتة في هذا التكريس.

لقد كانَ طقس التكريس الإسراريّ هذا يرمز إلى ولادة الإله "ميترا"، إله الشمس، وتضحياته من أجل البشر، وموته في سبيل الإنسان ليهبه الحياة الأبديّة، وإلى انبعاثه ليخلّص الجنس البشريّ، فينحني هذا الجنس بعد خلاصه أمام عرش الإله "أهورا مزدا" خالق الكون وروحه[2].

ويظهر في التكريس المذكور سلّمٌ مِنْ سبع درجات، رأى بعضهم أنّه كان في الأصل هَرَمًا له سبع درجات[3]. وكان "ميترا" الذي يخرج في خلال الرحلات من الصخر يرمز إلى الشمس التي تشرق في الأفق في خلال الاعتدالين الخريفيّ والربيعيّ. وقد جعلوا لهذا الإله الذي اعتبروه قمّة الضوء عشرة آلاف عين ساهرة على الناس لا تنام، في حين جعلوا لـ"أهورا مزدا" عينًا واحدة يرى بها كلّ شيء[4].

ب – إضافات: كان الكهنة الفرس يعتبرون الروحَ مرتبطةً بالجسد بوساطة سائل رقيق جدًا، لا شكل محدّدًا له: إنّه شرارة الحياة التي لا يستطيع أن يُبصر لونَها غيرُ الروح نفسها. هذه هي النار التي في الإنسان، والتي يكون إشعاعها معدنيّ اللون، ويكون بريقها بفعل صفائها وقوّة فضيلتها. وهي تجمع في كلّ شذرة من شذراتها جوهر الإنسان بشتّى

١ – Ibid, p. 47 - 48 وقارن: op. cit. p. 9 - 10

٢ – Manly P. Hall, **The secret teaching of all ages**, p 53

٣ – Ibid, p. 53 - 54

٤ – Ibid, p. 54

حالاته. إنّها حقْلُه المغناطيسيّ"[1]. أما الكهوف التي كان يُقاد إليها، فتُمثّل العالم الذي يحيطُ به، وفيه يخوض تجاربه.

وقبل أن يُدخلوا المسارّ إلى هذه الكهوف، كانوا يَغمسونه بالماء لتطهيره، ثمّ يَسمون جبينَه بعلامة لا تُمحَى، ويضعون على رأسه إكليلاً من الذهب يرفضه قائلاً: "ميترا" هو "إكليلي." ويمثّل الطقس الإسراريّ الذي يمرّ به بكامله تصعيدًا لروحه، وبالتالي ضربًا من الموت الماديّ (الأرضي والجسدي) المستمرّ لبلوغ السماء"[2]. إنّه موت الضعف البشري والخطإ لتنعتق الروح نحو معقل الحقيقة الخالدة، والفضائل الكبيرة.

أما المراحل السبعة الإسراريّة التي ذكرنا أنّ المسارّ يمرّ بها، فكانت أولاها تدعى "مرحلة الجنديّ"؛ وثانيتها تدعى "مرحلة الأسد"، حيث تحوّل الروحُ في خلالها الجسدَ عبدًا لها؛ وثالثتها تسمى "مرحلة الكاهن"، حيث يتلقى المسارّ، في آخرها، المعارفَ الفلكيّة والباطنيّة والقدسيّة؛ ورابعتها تسمى "مرحلة الفارسيّ"، حيث يتلقّى فيها القوانين الاجتماعيّة والدينيّة. وخامستها تسمّى "مرحلة البروميوسيّ"، حيث يتعلّم طبيعة النبوّة. وسادستها تسمى "مرحلة الإليوسي"، حيث يتعلّم كيف تُشرق روحُه على المكان والزمان، وتدخل في تواصل مع الله. وسابعتها تدعى "مرحلة المجوسيّ"، حيث يحصل على القوّة القصوى، وهي التواصل مع الله وعالم الأرواح، فتكتمل إسراريّته[3].

وكان المسارّ يعبر في المرحلة الأولى بابًا من الرصاص، وفي الثانية بابًا من القصدير، وفي الثالثة بابًا من البرونز، وفي الرابعة بابًا من الحديد، وفي الخامسة بابًا من النحاس، وفي

١ – Henri Delaage, **Doctrines des sociétés secrètes**, p. 56 - 57

٢ – Ibid, p. 58

٣ – Loc. cit.

السادسة بابًا من الفضّة، وفي السابعة بابًا من الذهب. كلّ هذا يرمز إلى تحويل المعادن إلى ذهب، أي إلى الخيمياء التي يكون هدفها الأبعد صقلَ الذات للوصول إلى الروح فيها، ومعانقة الله[1].

٥ - خاتمة: هذه صورة للفكر الميثولوجي والإسراري الذي عرفته الحضارة الفارسية، وهي أسرار مجوسيّة بامتياز، فيها تقاطع كبير مع بعض أسرار الديانة المسيحية الأولى، ومن الممكن دراستها. وثمّة التقاء عام بين آلهة النور في الحضارات القديمة، كما نلاحظ. كما أنّ هناك نوعًا من الالتقاء في ضرورة حجب المعارف العميقة عن الجهّال، كيلا يسيئوا إليها. هكذا بعد أن انتهينا من دراسة الآلهة والتكريس في الحضارة الفارسية، ننتقل إلى دراسة الميثولوجيا والأسرار في الحضارة الفرعونية.

١ - Ibid, p. 59

الفصل الخامس

الآلهة والتكريس في مصر القديمة

١ – مقدمة: لا تخفى على أحد أهمية الميثولوجيا المصرية القديمة في تاريخ الآلهة عند البشر. واللافت في هذه الميثولوجيا أنّ المصريين آمنوا بخلود الروح؛ بل أكثر، فإنّ أول دعوة إلى التوحيد جاءت من مصر، في أيام الفرعون "أمنحوتب" الرابع الذي حمل لقب "أخناتون".

ولا تزال الحضارة المصرية القديمة تثير إعجاب البحّاثة في شتّى الميادين، وخصوصًا في ميادين العلوم التي كانت متفوّقة جدًّا، وفي مجال الفكر الذي انتقل إلى اليونان، وتحوّل إلى فلسفة مع عدد من الأعلام الكبار، كـ"طاليس" و"فيثاغورس" و"أفلاطون". لهذا سيركّز هذا الفصل على الميثولوجيا المصرية القديمة، والتكريس عند الفراعنة.

٢ – أصول الشعب المصري القديمة: يمكننا أن نقول إنّ أربعة اعراق أساسية قد تفاعلت في مصر القديمة، هي الآتية:

١ – الحاميّون الذين كانوا شديدي الحمرة، والذين استقروا في وداي نهر النيل في مرحلة متأخرة عن مرحلة أنصاف الآلهة (البشر الذين كان واحد من والديهم إلهًا، والآخر بشرًا) ما قبل التاريخيين، منذ حوالي عشرة آلاف سنة قبل الميلاد. هؤلاء دُعوا "الغزاة الطيّبين"، وأدخلوا معهم فنّ التحنيط، وفكرة انبعاث الجسد، إلى مصر القديمة. كما أدخلوا معم إلى أفريقية ثيرانهم، وخيولهم، وأغنامهم، وعنزهم، وخنازيرهم، وغيرها من الحيوانات. وقد حكم هذا العرق قسمًا كبيرًا من مصر القديمة، خلال مرحلة السلالات البشرية المصرية التي شملت شعب سبأ وسواه ممّن في أثيوبية والصومال وأريترية ومحيطها اليوم.

٢ – الأفارقة الآنو السود الذين يتشكّل عرقُهم من أربعة سلالات عرقية هي: السبئيّون، والكوشيون، والمرويّون، والآنو – أنتيو الذين أقاموا بين النيل والبحيرات الكبيرة، على طول نهر النيل.

٣ – الساميّون الصفر الآسيويّون، وهم عرق مختلط الدم والأصول، ويشمل العبريّين وأسباطهم الاثني عشر، وكانوا يسمون جميعًا "الهيكسوس" (الملوك الرعاة) الذين يضمّ عرقهم بعض العرب أيضًا.

٤ – الكوكازيون الهندو – أوروبيون.

وقد تم توحيد هذه العروق والممالك في مصر. وانعكس هذا التوحيد، مرحلة ما قبل السلالات، في أسطورة "إيزيس" و"أوزيريس" التي سنتكلم عليها لاحقًا في هذا الفصل، وفي صراع "حورس" ابن "أوزيريس" مع "سيت"[١].

٣ – الآلهة المصريّة الرئيسة:

أ – ميثولوجيا التساعيّة الإلهية المصرية: كانت الآلهة المصريّة القديمة مماثلة للبشر، لأنّها صُوِّرَت تعيش وتموت، وتُنجب وتحارب، وتغار وتتّصف بأحاسيس بشرية[٢]. وهنا لا بدّ لنا من أن نلفت إلى أنّ المصريين كانوا متديّنين جدًّا، أكثر من أيّة أمّة في العالم. واليونان أنفسهم لم يعرفوا شيئًا عن أصل الآلهة، فقد جاءتهم كلّها من مصر، كما قال هيرودوتس[٣].

أما الآلهة المصرية وظهورها فيرتبط بالماء. ففي الميثولوجيا المصريّة أنّ شيئًا في البدء لم يكن سوى الماء، أو المحيط المائيّ الذي يدعونه "نو". وفي هذا الماء – ماء ما قبل التكوين

---

١ – George W. Singleton, **The Egyptian school of 0n (annu)**, enlightenment publications, inc. 2004 (e-book), p. 14

٢ – Zachary Lansdowne, **The revolution of saint John**, Boston: the esoteric quarterly, 2008, p.29

٣ – تيموثي فريك وبيتر غاندي، متون هرمس، تعريب: عمر الفاروق، القاهرة: المشروع القومي للترجمة (عدد ٣٥٧)، ط١، ٢٠٠٢، ص ٢٥

- لم يكن للإله الخالق شكل، لأنّه كان يقيم في هذا الماء، كما لم يكن له وجود فعليّ، والماء نفسه كان خاليًا من الحياة. فالإله كان وجوده ذهنيًا لا فعليًا[1]. ثم أراد الإله المقيم في الماء أن يعظّم اسمَه، وتحرّك ليفعل هذا، فجعلته حركته في هيئة إله عظيم، خرجَتْ منه كلّ الآلهة، ثمّ كلّ المخلوقات الأخرى، كما سنرى. ودُعيَ هذا الإله "كِيبْري"، وكان حياة كلّ شيء وضوءَه. وطفا على وجه الغَمر، فلم يكن له مكان يستقرّ عليه[2]. وبعد تأمّل، قرّر "كيبري" أن يفصل الموادّ التي يتكوّن الغمر منها، فصنع منه الأرضَ والبحر. ثم فكّر أنّ من الأفضل أن تكون معه آلهة تساعده، فخلق مساعدين: الأول صار مصدر النور، والثاني مصدر السماء الزرقاء التي تغلّف الأرض.

ولكنْ مع أنّ الوجود صار له نور، إلا أنّ شيئًا ما لم يكن يميّز الظلامَ عن الضوء. فحملت الآلهة لـ"كيبري" كرةً من لهب، وضعتها في رأسه عَينًا، فأضاءت الأرضَ كلّها، وكانت الشمس مصدرَ كلّ حياة وضوء وحرارة على الأرض. وكان اسم تلك العين "رع"، تدور يوميًا في قاربها لتهب الأرضَ النورَ والحرارةَ وترى كلّ شيء. ثم اكتشف "رع" أنّ لـ"كيبري" عينًا أخرى أقلّ قوة منه، فغضب كثيرًا، وخاف على مركزه، وثار على "كيبري"[3]. فأمر هذا عينَه أن تعطي النورَ حين لا يكون "رع" موجودًا، كما أمرها أن تحتسب الزمن أيضًا عقابًا لـ"رع"، لهذا السبب صار يُحتَسَب الزمن بالدورات القمريّة طوال الشهر[4].

---

١ – في الهرمسيات أنّ "الإله هو العقل الأكبر، وكل ما يوجد، ليس إلا فكرة في عقل الإله." (المرجع نفسه، ص٢٩). وهذا العقل، عند "هرمس"، هو الوحدة التي توحّد كلّ شيء، وتحتوي كلّ المتناقضات. (الموضع نفسه)

٢ – F. H. Brookbank, **Legends of ancient Egypt**, N.Y: Thomas Y. Croell company publishers, no ed, p. 30

٣ – Ibid, p. 31

٤ – Ibid, p. 32

وفي رواية أخرى شهيرة أنّ الغَمر الغُفْلَ الخاليَ من الحياة كان فوق إله كبير[1] قد انبثق منه بعد أن كان فيه ساكنًا له ثلاثة أقانيم: "كيبري" أو الشمس عند الشروق، و"رع" أو الشمس عند الظهيرة، و"آتوم" أو الشمس الغاربة. وقد ظهر إله الضوء هذا أولا بشكل بيضة مضيئة غابت فوق الماء وأرواحِ الأعماق التي كانت الآباء والأمهات، وكانت كلّها معه، لأنها كانت مع "نو" تلازمه. ثم صار "رع" أعظم من "نو"، وحاكم الآلهة.

وأعطى آتوم الحياة للإله "شو"، إلهِ الهواء، وللإلهة "تفنوت" إلهة الرطوبة. وبزواج هاتين الألوهتين وُلِدَ "جيب" أو الأرض، و"نوت" أو الشمس/ الحرارة/ الدفء، وكان الإلهان "جيب" و"نوت" متصلين، فما كان بإمكان الهواء والرطوبة أن يتحركا بينهما، لهذا أمر "رع" "شو" بفصلهما؛ فرفع "نوت" الإلهة الأنثى وحوّلها إلى نجوم (نجوم السماء)، وأبقى "جيب" في الأسفل وحوّله إلى الأرض[2]. ثم منع "رع"، لشدّة غضبه، "نوتًا" من الولادة في أثناء الأشهر الاثني عشر من السنة. وأراد "توت"، وهو لسان الإله "رع" نفسه، ومنفّذ مشيئته، وهو جزء من كيانه أيضًا[3]، أن يساعد "نوتًا"، فاقترب من القمر، وسمح له بخمسة أيام إضافية، يتلاقى فيها كل من "نوت" و"جب". وهكذا تمكّنت الإلهة من أن تلد في خلال هذه الأيام الخمسة، فأنجبت أربعة أولاد: "أوزيريس" (البكر)، و"إيزيس"، و"سيت"، و"نفتيس". وهكذا صار كل من "رع" (الشمس)،

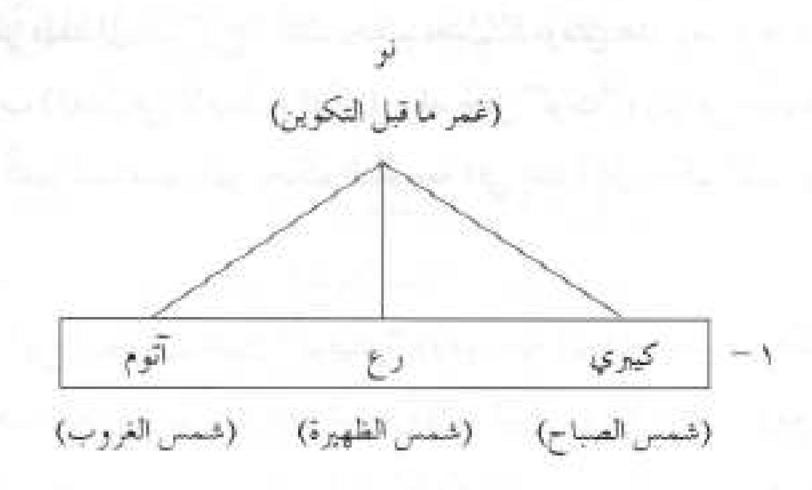
---

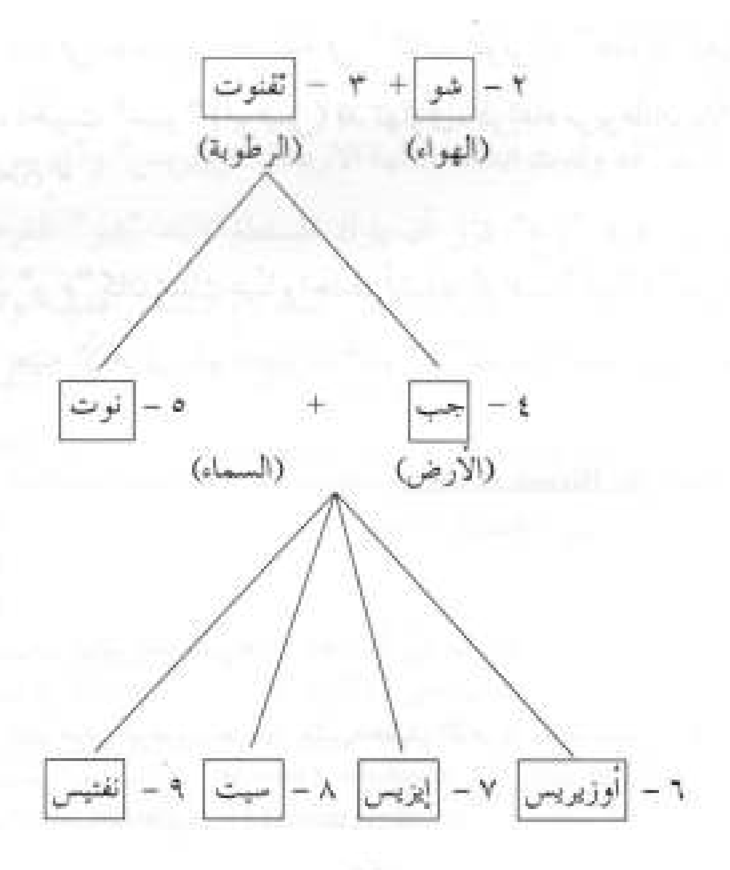
١ – Donald A. Mackenzie, **Egyptian myths and legends**, forgotten books (www.forgottenbooks.Org), 2007, p. 30

٢ – فرجينيا هاملتون، أساطير الخلق، تعريب: اسامة إسبر، دمشق: دار الينابيع، ١٩٩٦، ص ٨٦

٣ – لا تذكر معظم أخبار التكوين المصرية مصدر "توت"، ولا يُعرف من أين تحدّر؟ ومَنْ والده؟ ولكن يبدو، من خلال أخبار الآلهة، أنّه كان مرتبطا بـ"رع" نفسه، يلازمه باستمرار. وقيل إنّه وضع بيضة بشكل أبي سنبل، خرج منها الإله الأول بأقانيمه الثلاثة. وهو، إلى هذا، إله الحكمة والكتابة، يحافظ على التوازن؛ كما أنّه إله قمريّ، يمثل أيضًا قرص القمر، في حين أن "رع" يمثل قرص الشمس. و"توت" هو مَن علم "إيزيس" – كما سترى لاحقًا – كيف تبعث زوجها "أوزيريس" بعد أن أعادت تركيب أقسامه، وهو الذي جعل انبعاث "أوزيريس" ممكنًا. وقد جعل له المصريون رأس قرد (بابون)، لأن القردة، كما لاحظوا، كانت تغنّي القمر في الليل.

و"شو" (الهواء)، و"تفنوت" (الرطوبة)، و"جب" (الأرض)، و"نوت" (السماء)، و"أوزيريس"، و"إيزيس"، و"سيت"، و"نفتيس" التساعية الإلهية المصرية. وفي ما يلي شجرة التساعية الألوهيّة المصرية مشارًا إلى كل إله فيها بالأرقام:





وقيل إن "توت" كان يلازم "رع" في مسيرته السماوية اليومية في قاربه[1] ومعهما الإلهة "مات" التي لها دور في محاسبة أرواح البشر أمام "أوزريس"، كما سنرى بعد قليل، وفق ما جاء في "كتاب الموتى". ويبدو أن "توت" قد جُعل مع "رع" مرافقًا في هذه الرحلة، ليُرمَز بهذا إلى أن "رع" كان يحكم بعدل[2]. ومثل هذا رمز وجود "مات" معه في القارب (العدل في الأعمال والفكر). وقد جُعل "توت" وزيرًا في حكومة "رع" الإلهية التي ألّفها لتساعده، فهو يحكم العالم معه (في إشارة إلى حكم القمر والشمس للطبيعة)[3].

وكان "رع" يحارب التنين "أبوفيس" (وهو حية كبيرة) باستمرار؛ فكلّما خيّم الظلام كان هذا التنين يضرب بذيله ذاتَ اليمين وذاتَ اليسار، وبكلّ قوته[4]. ومع أنّ التنين استمرّ في الحياة، فقد كان الانتصار على قوى الظلام والفوضى والعماء التي تخرج منه يتمّ ببطء[5]. وقد جاء في نصوص المحاكمة في "كتاب الموتى": "عدوُّك الثعبان (التنين) قد أُلقي إلى النار، الخبيث "سيبو" (أبوفيس) قد تهاوى، ذراعاه مربوطتان بالأغلال، وساقاه رَكَلهما "رع"[6]."

وقيل إن "رع" كان يمتلك عينًا واحدة، أرسلها لتراقب "شو" و"تفنوت"[7]، ويبكي بفرح عليهما بعينه الأخرى. ثم أحضر له "شو" و"تفنوت" عينه التي أرسلها لتراقبهما،

١ - Patric Boylan, **Thoth the Hermes of Egypt**, forgotten books (www.Forgottenbooks.Org), 2010, p. 58

٢ - Ibid, p. 60

٣ - Ibid, p. 61

٤ - فرجينيا هاملتون، أساطير الخلق، ص ٨٥

٥ - المرجع نفسه، ص ٨٦

٦ - لا مؤلف، كتاب الموتى الفرعوني، تعريب: فيليب عطية، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط١، ١٩٨٨، ص ٨ (وراجع نصوص المحاكمة: ص ١٤ - ١٧)

٧ - فرجينيا هاملتون، أساطير الخلق، ص ٨٦

فغضبت تلك عندما رأته وضع مكانها عينًا أخرى: تلك التي بكى بها. وسمّى هذه العين التي بكت "العين الذهبيّة"، ونزعها، ووضعها وسط رأسه لتشعّ على الأرض إلى الأبد، ومن بكائه الذي ذُكر وُلد البشر والكائنات الأخرى الحيّة من نبات وحيوان في الأرض[1]. وأعطى كلّ مولود اسمَه، فكان له اسم واحد يدل عليه، أما "رع" فكانت له أسماء عديدة لا يعرفها سواه[2].

وهكذا استقرّ "رع" في العالم، وراح يقوم برحلته اليومية في قاربه الشمسيّ، ليحمل النور والحرارة باستمرار إلى الأرض. وكانت "نوت" تمتصّ "رع" كلّ مساء، فلا تصل شعاعات شمسه إلى الناس؛ عندئذ كان التنين "أبوفيس" يهاجمه، ويبقى في صراع معه حتى ظهور أولى خيوط الفجر. وقيل إنّ هذا التنين كان يهاجم "رع" أحيانًا في الصباح، ويقلب قاربه الشمسّ، وهذه الحكاية تفسير لمبدإ الكسوف الشمسيّ الذي كان يحصل في بعض الأحيان.

وكانت "نوت" قد ولدت أبناءها الآلهة الأربعة: "أوزيريس" و"إيزيس" و"سيت" و"نفتيس". وعندما هرم "رع" قرّر أن يترك السلطة لابنه "شو" الفرعون الإلهي الثاني بعده، ووضع "أوزيريس" مسؤولاً عن البشر، واستدعى قمرَ "نوت" ليحضر بينهم، ويحكمَ سماءَ المساء مندوبًا عنه، فبدأ بهذا حكم الجيل الثاني من الآلهة[3]. ثم قرّر "جب" اغتصابَ العرش من والده الشيخ، لهذا قسم "جب" مملكته على ابنيه الذكرين، فأعطى "أوزيريس" الأراضي الخصبة، وأعطى "سيت" الصحارى. وهنا شكا "آتوم"

---

١ – المرجع نفسه، ص ٨٦ – ٨٧. وهنا نشير إلى أنّ أسطورة الخلق كانت، مع "ممفيس"، أبسط بكثير، ومفادها أنّ المحيط المائيّ، أو الغمر الذي يُدعى "نو"، كان قبل التكوين، ومنه وُلد الإله "بتاح" – وهو يمثّل الكون بالفكر، وانبثق منه الوجود بالفعل، فأعطى كلّ موجود اسمَه، ومن بينها الآلهة.

٢ – Donald A. Mackenzie, **Egyptian myths and legends**, p. 31

٣ – Geraldine Pinck, **Handbook of Egyptian mythology**, California: ABCClio's, 2002, p. 75

إله الشمس الغاربة، وصنو "رع"، لـ"توت" أبناءَ "نوت" تيتّهم تقسيمَ تكامل التكوين ووحدته[1].

وهكذا علّم "أوزيريس" الناسَ الزراعةَ، والصيد، وتربية المواشي، وحرّمت "إيزيس" أخته وزوجته عليهم أكلَ اللحم البشريّ؛ وعلّمتهم الحياكة، والسحرَ، والطبّ. أما "توت"، فأعطى الناسَ سرّ الكتابة.

وكانت "إيزيس" قد أرادت أن تكون لها قوى مماثلة لـ"رع" في السماء والأرض، لهذا حاولت أن تعرف أسماءه السريّة التي لا تُلفَظ[2]، وكانت ثلاثة، أو هو اسم تتفرع منه ثلاثة أسماء بحسب أوقات النهار: "كيبري" عند الفجر، و"رع" عند الظهيرة، و"آتوم" عند الغروب[3]. لهذا السبب أرادت أن تخرج من كنفه، ولا يمكن أن تحصل على سلطتها إلاّ بالخروج منه. ولتحقق هذا، أخذت أفعى، وغمرتها بالوحل، ونفخت فيها الحياة، فلسعَتْ "رع"؛ وأمرضته هذه اللسعة شديدًا، وعجز جميع الآلهة عن مساعدته. وكانت "إيزيس" تعرف أنّ الوسيلة الوحيدة التي كان يمكن أن تُنقذ "رع" هي بأن يبوح بأسمائه السريّة (أو باسمه الثلاثي)، لذلك ذهبت إليه وأخبرته بأنّها تحتاج إلى هذا الاسم لتنقذه. لكنّه رفض البوح به، وحاول أن يختلق لها عدة أسماء، فبقي يقارب الموت، ولم يشفَ، واختفى أمام الآلهة، وصار قاربه السماوي فارغًا[4]. وعندما برّح به الألم، باح باسمه السريّ لـ"إيزيس"، فأنقذته. عندئذ سخّرت "إيزيس" تلك القوى لمساعدة الإنسانية[5].

---

١ – Loc. Cit.

٢ – Donald A. Mackenzie, **Egyptian myths and legends**, p. 31

٣ – Ibid, p. 33

٤ – Ibid, p. 33 - 34

٥ – لا مؤلف، دراسة: **mythologie egyptienne** عن موقع: histoire – fr. com

وكان أن غار "سيت" من أخيه "أوزيريس"، فقرّر التخلص منه، وحاك مؤامرة ليخدعه ويقتله. وقد قيل في سبب هذا الحقد إنّ "أوزيريس" كان يهدده بالغرق في فيض أمواج النيل، وكان يحسده على تقدير المساء والأرض له، وعلى فحولته وحبّ إيزيس[1]. وهكذا أقام مأدبة، اشترك فيها عدد من أتباعه، وزعم أنّه قد صنع درعًا، وأنّ هذه الدرع ستكون ملكَ من يكون ملائمًا لها، وطلب من "أوزيريس" أن يجرّبها، ففعل، ولمّا دخل صدره في الدرع، انطبقت عليه، واخترقته مسامير كان قد جعلها فيها، ثم وضعه "سيت" في صندوق خشبي، وألقاه في مياه المتوسّط، فقضى "أوزيريس" غرقًا، وسيطر "سيت" على مصر. وعندما بحثت "إيزيس" مع أختها "نفتيس" عنه، لم تجده، فقرّرت أن تقوم برحلة لتعثر على جثّته، بعد أن علمت بالمكيدة. وفي هذه الأثناء، كانت جثّة "أوزيريس" التي تقاذفتها الأمواج قد وصلت إلى شاطئ بيبلوس، وعلقت بدغل صغير، فنمت معه، وصارت شجرة أعجبت ملكَ المدينة، فقرر أن يصنع منها عمودًا لقصره. وعندما وصلت "إيزيس" إلى بيلوس، تسلّلت إلى القصر، وعرف الملك أنّها إلهة، فقصّ العمود الذي فيه جثّة زوجها في الدرع، وأعطاها الجثة؛ فعادت بها إلى مصر. وقرّرت أن تدفنه هناك في مكان مقفر، بعيدًا عن الناس؛ لكنّ "سيت" عاد فوجد القبر، وفتحه، وقطع "أوزيريس" أربع عشرة قطعة ألقاها في أماكن متفرقة، منعًا من أن يجدها أحد، أو يعيد تركيبها. فقامت "إيزيس" برحلة ثانية بحثًا عن تلك القطع، فوجدتها كلّها إلا واحدة، هي قضيبه الذي غرق في النيل وابتلعه أنقليس[2]، فصنعت له واحدًا آخر من الصلصال، وساعدتها "نفتيس" في جمع الجثّة، وعلّمها "توت" كيف تعيد إليها الحياة[3]، فانبعث الإله. وحين عاد "أوزيريس" قرّر أن يرئس مملكة الموتى. وقد مثّله المصريون باللون

---

١ – بول فريشاور، الجنس في العالم القديم، تعريب: فائق دحدوح، دمشق: دار علاء الدين، ط٢، ١٩٩٣، ص ١٢٢

٢ – المرجع نفسه، ص ١٢٣

٣ – عن موقع: Wikipedia، مقال: أوزيريس.

الأزرق، أو الأخضر، فالأزرق لأنّه غرق في مياه البحر، والأخضر لأنّه مرتبط بالخصب والحياة.

وكانت "إيزيس"، بعد مقتل زوجها، قد ولدت "حورس". وحين صار هذا الإله شابًا، قرّر أن ينتقم من "سيت" لأبيه، وقامت بينهما معارك كثيرة، كان "توت" في خلالها يوازن بين القوتين كيلا يتغلب واحد على الآخر، ما يرمز إلى توازن المتناقضات[1]. ولكنّ "حورس" تمكّن في النهاية من دحر "سيت" والسيطرة على مصر، فصار الفرعون الخامس الإلهي. واستلم هذا الإله إدارة الأراضي الخصبة، وكان له شرف ركوب قارب "رع" الإلهي، ومحاربة التنين "أبوفيس". وقد أعطى المصريون الإله "سيت" رأس ابن آوى، لأنّه إله يرتبط بالظلام والليل والحرب، وابن آوى تُسمَع وعوعته في الليل.

وكانت لـ"نفتيس" علاقة جنسية بـ"أوزيريس"، سببها أن "نفتيس" أرادت أن يكون لها ولد، فسرقت رداء أختها "إيزيس" المشبع بالعطور، ووضعته في فراش "أوزيريس"، واستلقت فيه، فضاجعها هذا ظانًا أنّها زوجته، ثم نام نومًا عميقًا، فولدت "أنوبيس" الذي صار معلّم المحنّطين.

وهكذا، بناء على قصة سلالات الآلهة الرئيسة التي تشكل التاسوعية الإلهية المصرية، وعلى أنواع الأعراق التي تألّفت منها أنسال مصر القديمة، عُثر في بعض نقوش مدرسة "آنو" للأسرار القديمة على نصّ يربط سلالات الآلهة بالأصول البشرية التسعة التي تحدّرت من الأعراق الأربعة التي عرضنا لها. وقد جاء في النص ما يأتي: "يا تساعيّة الآلهة في معبد مدرسة أون، أيّها الإله "آتوم"، و"شو"، و"جب"، و"نوت"، و"أسار" ("أوزيريس")، و"أست" ("إيزيس")، و"سيت"، و"نفتيس"، يا مَنْ خلقها الإله "آتوم" من ذاته لكي

---

١ – Loc. Cit.

تولّد القبائل التسعة من لدُن إله الشمس "آتوم"، فلا تنفصل بعد."(١) اما القبائل التسعة فهي الآتية:

١ – حتيّا (قوقازية العرق، من شعوب أصلها من تركية).

٢ – كوش (من عرق آنو الأفريقي على النيل).

٣ – ميتّاني ونيهاريّا (الأولى خليط آسيويّ – أفريقيّ – عربيّ – ساميّ (الميتّانيّ) والثانية خليط من الكوكازيّين والآسيويّين (نيهاريّا). وقد اتّحد الميتّانيّ بشعوب مصر العليا، وطردوا معهم الهيكسوس، وأسّسوا السلالة الثانية عشرة، وزوّدوها بالملكات الأسطوريّات، وكذلك بالملكات "حَتشبسوت"، و"تي"، و"نفرتيتي").

٤ – ميرو (وهي جزء من الأفارقة السود آنو، على نهر النيل).

٥ – كفْت (بعضهم متحدّر من الفينيقيّين الذين كانوا مرتزقة في صفوف الملوك الرعاة، أي الهيكسوس).

٦ – آنو – أنتيو (وهم جزء من الأفارقة الآنو، وبعضهم انتشر في السودان، وأفريقية، ووسط نهر النيل حيث البحيرات الكبرى).

٧ – ليبي (بما فيها قبائل قرطاجة، والعرق الذي شكّل فيما بعد الإسبان).

٨ – آنو – سيتيت (وهم نوبيا، شعوب من الآنو الافارقة في منطقة النيل السفلى).

٩ – شا – انسو (قسم منهم عبريّ أو إسرائيليّ من الساميين، بما فيهم اليهود والعرب الذين كانوا من منطقة سيناء، وفلسطين، وما بين النهرين)(٢). هذه القبائل التسع هي التي

١ – George W. Singleton, **The Egyptian mystery school of On (Annu)**, enlightenment publications inc, 2004, p. 14

٢ – Loc. Cit.

شكّلت مملكة مصر الفرعونية كلّها، وقد ربطوا بها عدد آلهة التكوين في التساعية الإلهية المصرية.

كما كان المصريون يؤمنون بالروح ويخلودها. وقد كانوا يعتقدون أنّ الكائن البشريّ يتألّف من روح "تبعث الحياة في كل كائن إنسانيّ" سموها "كا"[١]، فهي محتوى الحياة الروحية للرجال والنساء جميعًا. وهي العلم والوجدان معًا، لأن الإنسان بوساطتها هي يشعر، وتتعدّد مشاعره، فيتألّم، ويكتئب، ويفرح، ويتمتّع... ولكنّ الـ"كا" نفسها أكبر من كلّ حواس الإنسان مجتمعة، لأنّها مصدرها. وهي فوق الطبيعي وفوق المحسوس، والوسيط السريّ بين البشر والقوى فوق – الطبيعيّة[٢]. وتصوّروا هذه الروح بشكل طائر له جناحان، يطير بهما إلى العالم الآخر، وله رأس بشريّ.

وبالإضافة إلى الـ"كا"، اعتبر المصريون أن للإنسان شخصية يمثّلها اسمه، وقلبًا وجسمًا. ولا بدّ للجسم من أن يكون سليمًا لكي تستطيع الـ"كا" أن تصل بوساطته إلى العالم الآخر، لأنّ عليها أن تقوم بسفر طويل، محتوم، لبلوغ مملكة الموتى، يتهدّدها في خلاله تصاعد للشرّ، وشياطين من كلّ نوع، تؤازر الإلهة "معات" حارسة نظام الأخلاق التي كانت تنتظر الـ"كا"، في نهاية الرحلة، في قاعة رحبة، ومعها أربعة وعشرون قاضيًا، حيث تُقدّم الـ"كا" بيانًا عن حياتها[٣]، وبحضور "أوزيريس". ويساعد الـ"كا" هذه في رحلتها "كتاب الموتى" الذي كانوا يضعونه في ناووس الميت. وبإمكان هذه الـ"كا"، في رحلتها، وهي في عالم تنتفي فيه قوانين المكان والزمان، أن تلجأ إلى تحولات لتنجو من تحريفات الواقع في الطريق. ثم يقودها "أنوبيس" إلى قاعة المحاكمة المذكورة أمام "أوزيريس". وفي خلال المحاكمة،

١ – بول فريشاور، **الجنس في العالم القديم**، ص ١١٥
٢ – المرجع نفسه، ص ١١٦
٣ – المرجع نفسه، ص ١٣٧

كانوا يضعون قلب صاحب الروح في كفّة ميزان، وفي الكفّة الأخرى ريشة الإلهة "مات"، وعندئذ تعترف الروح بالآثام التي ارتكبتها في خلال حياتها الأرضيّة، وبمقدار امتثالها للقوانين الأخلاقية الأساسيّة الأربعة والعشرين؛ فإذا كان القلب اثقل من الريشة، التهمه "آموت"، وهو وحش برأس تمساح، وجسم أسد، وأقدام فرس نهر وضبع. وإذا تساوى ثقل القلب مع الريشة، انتقلت الـ"كا" إلى حقول "إيالو"، حيث تُمضي الأبديّة بسلام مع الأرواح الأخرى المماثلة لها.

من هنا كان المصريّون يعتقدون بأن "كا" تبقى حيّة في كلّ إنسان بعد وفاته، متى تمكّن من اللحاق بـ"أوزيريس"، والاتحاد به، لأنّه أيضًا إله الخلود[1]. ويمكننا أن نقول إنّ الملامح التي أُعطيت لكلّ من "أوزيريس" و"إيزيس" قد تغيرت عدّة مرات في خلال التاريخ المصري. وكان المصريّون أنفسهم قد نسوا شكل الأسطورة الأول، وذلك قبل الميلاد بحوالي ألف سنة، كما يقول "بلوتارك"[2]. وكانت لهم احتفالات خاصّة يقيمونها لـ"أوزيريس" في شهرَي تشرين الثاني وكانون الأول،ثم قرنوا ملامح هذا الإله بملامح الإله "بلوتو" (إله العالم السفلي الروماني)، مع الاختلاط الإغريقي، منذ حوالي ثلاثة قرون قبل الميلاد[3].

ب – تأويل الأساطير المصرية ورموزها: من الواضح أن الميثولوجيا المصريّة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالطبيعة، وبحركة الفصول عمومًا، وبالتالي بالخصب والجدب. وعليه، فإنّها ترميزات مهمة لحياة الطبيعة وموتها في أثناء الدورة الفصليّة؛ هذا بالإضافة إلى فكرة التكوين والوجود والعدم، وصراع المتناقضات الفلسفية.

---

١ – المرجع نفسه، ص ١٢٤

٢ – Ernest Alfred & Thomas Wallas Budge, **Legends of the gods**, Forgotten books www.forgottenbooks.(Org), 2008, p. 67

٣ – Loc. cit

من الواضح أنّ "رع"، الإله الأكبر في الميثولوجيا المصرية القديمة، يرتبط بالشمس، وهو رمز الحرارة، والخصب، والدفء الذي يحافظ على الحياة في الطبيعة. وعينه هي التي تهب الدفء وترعاه في الأرض. وفي الواقع فإنّ "رع" نفسه ثلاثة آلهة في آن: "كيبري" و"رع" و"آتوم"؛ وكلّ هذه الآلهة مرحلة من مراحل اليوم: الفجر، والظهيرة، والغروب. ولمّا كانت مرحلة الظهيرة، أي المرحلة التي تكون فيها الشمس في أقصى توهّجها، أهمّ المراحل بالنسبة إلى حياة الطبيعة والخصب، فإنّ "رع" هو الأقنوم الأهمّ بين أقانيم ثالوثه الإلهي. و"توت" الذي يكون حاضرًا بحضور "رع" – وهو إله الحكمة – يرمز إلى الحكمة الإلهيّة التي ترعى الكون، بكل ما فيه من تناقضات وتجانُس لهذه التناقضات التي لا بدّ من أن تكون متّزنة لتحافظ على حياته. فهو راعيها. إنّه الحكمة الكونيّة التي تحافظ على التوازن في الطبيعة والأشياء. من جهة أخرى، فإنّ صراع "رع" مع التنّين "أبوفيس" يمثّل، كما هو ظاهر، صراع الخير مع الشرّ في النفس الإنسانيّة، وصراع الضوء مع الظلام في رحلة "رع" اليوميّة، وصراع الحياة مع الموت اللذين لا بدّ لهما من أن يتوازنا، لأنّ كلاًّ منهما ضروريّ في حياة الوجود والكائنات واستمرارها. ولأن "رع" يتمثّل بثلاثة أسماء (هي ثلاثة أقانيم) في خلال اليوم، فهو الأبدية: الأمس واليوم والغد. وهو رديف للعلّة الأولى التي أوجدت الكون والوجود. وهو، مثل الله في التصور التوحيدي، لم يوجده شيء، ولكنّ شيئًا لا يمكن أن يكون من غير وجوده. إنّه الواجب الوجود. قبله كان الوجود في حال تصوّر (في "نو") ومعه صار الوجود فعلاً. وبهذا الفعل كان التكوين.

أما كلّ من الآلهة المتحدرة منه فهي تناغمات أساسية في الطبيعة والوجود، تندرج في شعبتين: شمسيّة (ذَكَريّة) وقمريّة (أنثويّة). فكلّ من "شو" (الهواء)، و"جب" (الأرض)، إلهان شمسيّان (ذَكَران)، يلازمهما كلّ من "تفنوت" (الرطوبة)، و"نوت" (السماء)، وهما

إلهتان قمريّتان. ولكنّ اتحادهما لازم، وهو ما كان في الأصل، لأنّ "جب" و"نوت" كانا متّصلين عند أوّل الخلق. وفي هذا إشارة إلى أنّ ما في الأرض مرتبط بما في السماء؛ فالأرض امتداد للعالم الآخر، والأرض، بما هي كوكب وجرم فضائيّ، مرتبطة بحركة الأجرام في السماء، من الشمس إلى القمر، وهذه الحركة هي التي تحرّك الطبيعة، وتتحكم بحياتها. أمّا الهواء والرطوبة، فلا بدّ من أن يمرّا بين الأرض والسماء، لأنّهما يشكّلان أساسين للحياة: فلا حياة من غير هواء، ولا استمرار لهذه الحياة من غير الرطوبة التي تُنتج الماء. بهذا فإنّ كلاًّ من الحياة والماء هما قوام البقاء للطبيعة كلّها، ولما عليها من كائنات.

وبالنسبة إلى جيل الآلهة الرابع المتمثل في رباعية "أوزيريس" و"إيزيس"، و"سيت" و"نفتيس" نجده يمثّل التناقضات الأساسية في الطبيعة، بعد أن كانت الآلهة السابقة تمثّل التشكّلات الطبيعية الأساسيّة والتناقضات الكبرى فيها. ومن الصعب العثور على ميثة "أوزيريس" و"إيزيس" في مصدر مصريّ واحد، لكنّ هناك إشارات كثيرة إليها. ومن استقراء الدلالات، يمكننا أن نفهم أنّ "سيت" يمثّل في الأسطورة الظلامَ، وهو يناقض بهذا "رع" نفسه، كما يناقض "أوزيريس". من هنا نُدرك لماذا أعطاه أبوه حكم الأراضي القاحلة والصحارى. إنّه رمز للموت في الطبيعة والإنسان. وهو، إلى هذا، رمز لشتّى أشكاله، من الجفاف، إلى الحرب، والشرّ. كما يمثّل كذلك الخصومة التي يجب أن نتجاوزها في رحلتنا الروحيّة نحو الارتقاء والتطوّر، ويصوّر أوهامنا التي يجب أن نتخلّص منها[1]. إنّه رمز ماديّ ونفسيّ في آن: رمز القحط وانحباس الماء، وزوال الشمس في الطبيعة، ورمز السقوط الأخلاقيّ والنفسيّ، والتشبّث والتعنّت في الإنسان، وكلّها حالات تقوده إلى فقدان سموّه الأخلاقيّ والروحيّ. هو صورة لمحدوديّة الحياة التي ينقضها الموت.

و"أوزيريس" يرمز، بعكس "سيت"، إلى استمرارية الحياة وأزليّتها. إنّه تجلّي "رع"

---

1 - Zachary Lansdowne, **The revelation of saint John**, p. 30

في العالم، وفي الابن. وبالتالي هو سقوط الموت بصورة عامة. إنّه القسم الذي لا يموت، ويحاكم المائتين. وهو، بهذا، الروح الخالدة في الإنسان التي تحاكم أعماله في نهاية الأمر[1]. من هنا فإنّ أوزيريس الطافي داخل الدرع مُحتجزًا فيه يمثّل الروح التي تدفنها الانفعالات البشرية والأوهام الناشطة، والأخطاء المتراكمة.

والماء الذي أُلقي فيه أوزيريس يرمز إلى المشاعر، وهي التي تمنع الروح من الارتقاء والتسامي، وعلى الإنسان أن يحاربها بإرادته ليتمكن من بلوغ مرحلة التألّه، ويُعتق روحه من روابط الأرض التي تشدّه إليها، فتُعميه المادة عن رؤية الجوهر. ومثل هذا ترمز المسامير المعدنيّة التي انغرزت في "أوزيريس" إلى الأفكار التي تطبعنا وتمنعنا أحيانًا من رؤية الحقيقة نتيجة تشبّثنا بها. والدرع التي احتُجِز فيها "أوزيريس" ترمز إلى جسدنا الماديّ الذي يربط الروح بها، وتؤثر فيه أفكارنا ومشاعرنا.

وبناء على ما ذكر بلوتارك، فإنّ "أوزيريس" و"إيزيس" كائنان كونيّان (وهنا إلهان) يشار إليهما بالشمس والقمر. فـ"أوزيريس"، كما ذكرنا، تجسّد للأب "رع" في الابن، واستمرارية لحياة الشمس في الطبيعة. و"إيزيس" هي القمر المسؤول عن فيضان النيل وإخصاب الأراضي الزراعية في الطبيعة. فهي بدورها إلهة خصب مثل زوجها وأخيها "أوزيريس"، وهي تخلّصه من الموت لأنّها تظهر في الليل وتحلّ محلّه في إنارة الطبيعة والتأثير فيها. إنّها الزوجة المخلصة لزوجها، والتي تتكامل معه، وتبعثه من موته فيعود إلى الشروق في اليوم التالي. أما ابنهما "حورس" فهو رمز العالمَين العقليّ والمحسوس[2]. إنّه نتيجة اتصال الشمس المشرقة بالقمر الذي يحلّ محلّ الشمس، وبالتالي اتصال القوتين الشمسيّة والقمريّة، والذكريّة والأنثويّة، فهو يجسّدهما معًا في الأرض. لهذا السبب يتمكن

---

١ – تؤكد بلافاتسكي أنّ كلمة "أوزيريس" مرادفة تمامًا لكلمة "بورشا" الهندية التي تعني "الروح". (Loc. cit)

٢ – Charles H. Vail, **The ancient mysteries and modern masonry**, p. 37

من القضاء على "سيت"، فهذا الأخير يمثل قوى الظلام، و"حورس" يمثّل، مثل والديه، اتحاد قوى الحياة التي تواجه الموت، وبالتالي يحمل قوّة الشمس والقمر معًا في مواجهة الظلام. و"سيت" يماثل "أبوفيس" الحيّة التي تحارب "رع" باستمرار في قاربه الشمسيّ. و"حورس" هو الإنسان الكامل الذي تمكّنت روحه من الانتصار على الشهوات الأرضيّة والنواقص التي تشدّها إلى أسفل، فارتقى ليصير خالدًا بخلود روحه وإشراقها، وانتصر على شهواته ("سيت").

وفي الواقع، كان "أوزيريس" في أوّل الأمر إلهًا قمريًا، ثم صار عند الناس إلهًا شمسيًا. والقصة تنقل هذا وتدلّ عليه. فـ"سيت" يقطّع "أوزيريس" أربع عشرة قطعة، ترمز إلى الأيام الأربعة عشر التي يغيب فيها القمر تدريجيًا، تليها أربعة عشر يومًا يستعيد فيها أقسامه التي اختفت، ما يجعل المجموع ثمانيةً وعشرين يومًا. فالأيام الأربعةَ عشَرَ الأولى هي رمز القطع التي قطّعها "سيت"، والأيام الأربعة عشَرَ الثانية هي رمز الأيام التي جمعت بها "إيزيس" جسم زوجها، وبعثته من الموت. وكان المصريّون يقيمونَ الاحتفال في اليوم الأول من الشهر القمريّ، يوم يظهر الهلال، وفي اليوم الخامس عشر يوم يبدأ القمر بالتناقص[1].

وقيل إنّ "أوزيريس" كان في الأصل ملكًا، ثم حوّله الناس إلى إله ومعبود. وقد ذكرنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب أنّه من أصل أتلانتيّ، وأنّه بنى ممالك له، خارج القارة التي غرقت. وثمّة روايات أخرى تزعم أنّ زوجته "إيزيس" حكمت مصر من بعده، وكانت قد أقسمت على عدم الزواج بعد موته، وأنّ حكمها كان جيدًا جدًّا، ما جعل الناس كلّهم يحبونها، وعندما ماتت دُفنت في ممفيس[2].

---

١ – فراس السواح، **لغز عشتار**، دمشق: دار علاء الدين، ط٨، ٢٠٠٢، ص ٢٧٤

٢ – John R. Bennett, **The origins of freemasonary and knights of the temple**, Muskegon, 1907, p. 7

وإذا أردنا أن ندرس الهِرْمِسيّات، فلا بدّ لنا من دراسة رموز "إيزيس". وكان "بلوتارك" يرى أنّ "إيزيس" هي ابنة "هرمس"، في حين يرى آخرون أنّها ابنة "بروميثيوس"، وكلّ من الإله الأول والجبّار الثاني معروفان بحكمتهما.

ولمّا كانت "إيزيس" عند المصريين إلهة الخصب، وتُعرف بالإلهة ذات العشرة الآلاف من الأسماء، فقد ولدت كلّ الأشياء الحيّة، ومن بينها الشمس، وظلّت عذراء (فهي العذراء الأبديّة كما جاء في بعض الأساطير). ويبدو أن لأسطورة "إيزيس" امتدادًا مع بعض أساطير المايا في وسط أميركة الوسطى.

ويرى بعضهم أن للشمس ثلاثَ خصائصَ: الحياة (قوّة الإحياء وبعث الطبيعة)، والضوء، والحرارة. لهذا قيل: "من الضوء الواحد تنبثق ثلاثة أضواء." لقد كان "أوزيريس" يمثّل الضوء الثالثَ، أو الضوءَ الماديّ (الحرارة)، وبالتالي فعلَ الشمس الذي يُنعش الأرض النباتيّة والحيوانيّة. إنّه ليس الشمسَ نفسها، ولكنّ الشمسَ رمزٌ للمبدإ الحيويّ في الطبيعة الذي عرفه القدماء باسم "أوزيريس". لهذا السبب كان يُمثّل بعين واحدة مفتوحة: عينِ الشمس التي تنظر الوجود. وقد أثبت العلم أنّ الأجسام المتحرّكة حول الشمس، من الكواكب حتى الذرّات، تتألّف من نُوَيّاتٍ إيجابية مشعّة محاطة بجسيمات سلبيّة تنبثق من الحياة المركزيّة[1].

لقد كان عدد أيام السنة القديم ثلاث مئةٍ وستينَ يومًا. أمّا الأيام الخمسة الأخر فقد احتفظ بها الذكاء الكونيّ intelligence cosmique للآلهة الخمسة التي تمثّلت في أبناء "حام" وبناته. كذلك وُلد "أوزيريس" و"إيزيس" في اليوم الرابع منها، لذلك يرتبط الرقم ٤ بالطبيعة والعناصر، بالإضافة إلى أنّه يمثّل عدد العناصر التي تتكوّن منها الهيولى.

---

١ – يرى بعضهم أن هذا هو رمز "سليمان" الحكيم وزوجاته: فسليمان رمز الشمس، وزوجاته هي الكواكب والنجوم. وأن "إيزيس" تتمثّل في أغنية "سليمان" بأَمة أورشليم السوداء التي ترمز إلى الطبيعة المركزيّة المنفتحة، والمبدأ الأنثويّ المائيّ الذي خلق الأشياء من ذاته بعد اختراق الشمس له.
(Manly P. Hall, <u>The secret teaching of all ages</u>, p. 121)

أما "سيت" إله الشر والخصومة فولد في اليوم الثالث، وكان يُمثَّل بالتمساح، وأحيانًا بجسم تمساح وخنزير. وهو يمثّل العجرفة، والأنانيّة، وحبّ الذات، في حين تمثّل "إيزيس" المعرفة والحكمة. والرذائل المنسوبة إلى "سيت" تمنع الإنسان من رؤيته الحقيقيّة.

أما "أوزيريس" فيمثّل، كما ذكرنا، الشمسَ وحرارتها. وقد كان ملكًا على مصر، بحسب ما جاء في مكان سابق، فوهب شعبَه نورَه العقليّ وحكمته، وأكمل مساره ليدخل في معاريج السماء، زائرًا الشعوبَ، ومطوّرًا حضارتها. وهو عند الإغريق مشابه لـ"باخوس" (أو "ديونيزيوس"). وتآمر عليه أخوه "سيت"، وكان مقتله في اليوم السابع عشر من شهر "أثير" (وهو من الأشهر الشتائيّة) الذي تدخل فيه الشمس برجَ العقرب – ولهذا دلالة رمزية مهمّة، لأنّ العقرب يرمز إلى الخيانة. والوقت الذي أُدخل في أثنائه "أوزيريسُ" صدرَه في الدرع هو نفسه الوقت الذي دخل فيه "نوح" سفينته للنجاة من الطوفان[١].

وكانت "إيزيس" تُصَوَّر في الصور الهيروغليفيّة بغطاء رأس. ولأغطية الرؤوس عندَ المصريّين أهمية كبيرة، لأنّها تمثّل الهالة التي تحيط بالإنسان، والذكاء فوق – البشريّ، وبذلك تشبه الهالات التي توضع عند المسيحيّين حول رؤوس القدّيسين. كما ترمز الإشارات والثياب والزينة التي يلبسها الكهنة إلى القوة الروحيّة المنبثقة منهم.

كما كانت "إيزيس" تصوَّر أحيانًا بشكل بقرة – والبقرة رمز لها، لأنّها ترمز إلى الحياة والخصب، بسبب الحليب الذي تعطيه. كما كانوا يصوّرون "إيزيس" بشكل عصفور؛ وغالبًا ما تكون حاملة بيدها الصليبَ الأنخيّ الذي يرمز إلى الحياة الأبديّة، وبيدها الأخرى الصولجان المزهّر رمزَ سلطتها.

لقد أرسى "هرمس" الأسرار التي تعلّمها قدماء الفلاسفة وتكرّسوا فيها. وفي الواقع، كانت الرموز والحكايات الرمزية تتضمّن معارفَ الأسرار المرتبطةَ بالروح،

١ – Ibid, p. 122

والعقل، والأخلاق، والتجدّد الطبيعيّ المعروف باسم كيمياء الروح (الألخيمياء). وكانت الحقائق الكبرى تُعطى للمُسارّين في مدارس الأسرار. أمّا العامة (الجُهّال) فكانوا يتوقّفون عند ظاهرها، لأنّهم لا يستطيعون أن يلجوا إلى لبّها. لقد كانت مفاتيح التعاليم السريّة لقدامى الفلاسفة، مُرمَّزة في "إيزيس" العذراء. وهذه الإلهة، بغطائها، من رأسها إلى أخمص قدميها، لا تكشف حكمتها إلا للقلّة من المسارّين الذين سُمح لهم بالدخول إلى حَرَمها، وبالولوج إلى ما وراء الحجاب، واكتشاف الحقيقة الإلهية[1].

وكانت تماثيل "إيزيس" تُزيَّن بالشمس، والقمر، والنجوم، وبرموز أخرى ترتبط بالأرض التي كانت هذه الإلهة تحكمها (وهي الروح المتجسّدة الحارسة للطبيعة). وقد رأى الفلاسفة القدامى أنّها كانت تمثّل الطبيعةَ الكونيّة المسؤولة عن كلّ الكائنات. والألوان التي نجدها في تمثال "إيزيس" رمزيّة، فثيابها فيها عدّة ألوان: الأخضر المرتبط بالنبات، والحياة النباتية، وهو ثوب الطبيعة؛ والأسود، ويرمز إلى الفناء والموت الذي يفتح الباب لحياة جديدة؛ والأبيض والأحمر والأصفر ثلاثة رموز رئيسة للتطهّر في الألخيمياء. وقد أعطى القدماء اسم "إيزيس" لأحد أدويتهم الروحانية[2]. ويرمز الأسود الطويل أيضًا إلى أنّ القمر ورطوبته (وهو الزئبق الكونيّ والعامل الطبيعيّ الفاعل في الألخيمياء) ليس له ضوء في ذاته، بل يتلقّى ضوءَه وناره من الشمس. لقد كانت "إيزيس" رمزًا وتمثيلاً لأعمال الحكماء العظيمة: الحجر الفلسفيّ، وإكسير الحياة، والخصب الكونيّ. بالإضافة إلى هذا، كثيرًا ما كانت "إيزيس" تُصوَّر معتمرةً قبّعة من أغصان السرو ليُرمَز بها إلى بكائها على زوجها "أوزيريس"، وبالتالي إلى الموت الجسديّ لكلّ كائن، من أجل الحصول على حياة جديدة. وأحيانًا كان على رأسها تاج من ذهب، أو من أغصان الزيتون، رمزًا إلى أنّها سيّدة العالم، وحبيبة الكون كلّه. ويرمز التاج الذهبيّ كذلك إلى الهالة الشمسيّة (وحيويّتها أيضًا)

١ – Ibid, p. 123

٢ – Ibid, p. 125

التي ترسلها إلى كلّ الكائنات من خلال حركة العناصر المستمرة. وترمز الأفعى التي تعضّ ذيلها (الأوروبس) داخل تاج "أيزيس" المصنوع من أغصان الزيتون إلى أنّ الطاقة والحيوية اللذين داخل الهالة قد دنّسهما الفساد الأرضيّ المحيط بها، ولا بدّ من تطهيره بسبع دوراتٍ كوكبيّة مطهِّرة (هي النسور الطائرة)، وهذا مصطلح من مصطلحات الألخيمياء.

ومن تمثيلات "إيزيس" أيضًا تلك الإلهة الممسكة بيدها اليمنى سفينة صغيرة في بَكَرَة مَقوَد دائريّ بتلك السفينة. وعند رأس الشراع يظهر إبريق ماء يشبه مقبضُه أفعًى متورّمةً من سمّها، ويرمز هذا إلى أنّ "إيزيس" تدير دفّة الحياة المليئة بالمآسي والهموم، في محيط الزمان العاصف. وترمز البكَرَة إلى أنّها متحكّمة بخيط الحياة.

وتحمل "إيزيس" أيضًا، في تمثيلاتها، بيدها اليسرى صولجانًا صغيرًا، وصنجًا معدنيًّا مربّعًا، إذا نُقِرَ عليه أصدر نوطة الـ "فا"، وهي الصوت - المفتاح للطبيعة. وأحيانًا تحمل بيدها اليسرى غصنَ زيتون يرمز إلى الأشياء الطبيعية التي تحافظ عليها بقوّتها الإحيائيّة. أما تربيع الصنج (صنج مربّع) فيرمز إلى أنّ كلّ الأشياء تحافظ على تناغمها وتجدّدها، من خلال تناغم العناصر الأربعة[1].

وعند ثدي "إيزيس" الأيمن يبرز عنقود عنب؛ ومن الثدي اليسار عرنوسُ ذرةٍ، أو حزمة قمح ذهبيّة اللون، وهذا يرمز إلى أنّ الطبيعة هي مصدر غذاء النباتات، والحيوانات، والبشر. واللون الذهبيّ يرمز إلى أشعّة الشمس، فبوساطتها خُلِقت نُطفة الحياة الأولى. وترمز "إيزيس"، أحيانًا، إلى العدالة والنظام، لأنّ الطبيعة متوازنة بشكل دائم. كما تُصوَّر "إيزيس" أيضًا بين عمودين أحيانًا، ما يرمز إلى أنّ الطبيعة تُنتج من خلال قطبيها معًا (قطب سلبيّ، وقطب إيجابيّ)[2].

---

١ - Ibid, p. 126

٢ - هذان العمودان هما عند الماسونيين عمودا بوعز وياكين (عمودا الدرجتين الأولى والثانية). (Ibid, p. 128)

٤ – طقوس التكريس في مصر القديمة:

أ – تعريف بأسرار مصر القديمة: كانت مصر، كما يقول معظم المؤرّخين، مهد العلوم القديمة، ومنها نهل أكثرُ القدماء معارفهم الدينية والعلمية، وأُسُسَهُم الفلسفيّة[١]. وكان كهنة المصريّين المستنيرين يحرصون على ألا تُنقَل تلك العلوم والمعارف إلى الجهّال، فلا يعلّمونها إلاّ للمُسارّين الذين تشدّدوا في قبولهم. وقد أخضعوهم لامتحاناتِ العناصر الأربعة (العنصر الرابع هو التراب، ويمثّله الإنسان في التكريس). وكان الكاهن الأكبر، في خلال التكريس، يمثّل الله نفسه، ويلبس قلادة حُفر عليها: حقيقة، حكمة، علم؛ ويلبس ثوبًا من الكتّان الأبيض، في وسطه عند الخصر حزام ملوّن[٢].

وعندما كان المسارّ يُقبَل بين الكهنة، يبدأون بتعليمه كلّ المعارف اللازمة لمعرفة الله وحكمته. وكان ثمّة مذبح أخضر في بستان محاط بالأشجار أمامه، والكهنة المؤتزرون باللباس الكهنوتيّ يشكّلون حوله نصف دائرة[٣].

لقد كانت مصر، بحقّ، المكانَ الذي ترعرعت فيه الأسرار وتشكّلت في العالم القديم. وفيها غُرَفُ التكريس التي لُقّنت فيها الحقائق بشكل رموز. ومن مصر انتقل هذا إلى اليونان وأوروبة وآسية، بل منها تحدّر أيضًا إلى الماسونية. وكانت أمور الدين، والعلوم، والفلسفة، وتعليم الأسرار، وإقامة الذبائح موكلة إلى الكهنة، والكهانة نفسها كانت أمرًا وراثيًا[٤].

والطقوس التي تأسّست في الأسرار طقوس أوزيريسيّة. وقد دخلت عليها تعديلات عبر الزمن، وسُمّيت أسرار "أوزيريس" حين انتقلت إلى معبد "أيلوزيس" في

---

١ – Sans auteur, **Esprit du dogme de la franche – maçonnerie**, Bruxelles: H. Tarlier, MDCCCXXV, p. 4

٢ – Ibid, p. 6

٣ – Ibid, p. 7

٤ – Op. cit, p. 4

اليونان "الأسرار الكبرى"، في حين سُمّيت أسرار "إيزيس" الأسرار الصغرى؛ وهذه الأخيرة كانت تحضيرًا لـ"الأسرار الكبرى" التي تليها(١)، وسنأتي على تفصيلهما في فصل لاحق.

ب – نموذج من طقس إسراريّ يختص بالكهنة: عُثر، في بعض معابد الكرنك، على نقوش تمثّل طقسًا احتفاليًا خاصًا بالكهّان، على اختلاف درجاتهم، يسمّى "طقس حَمْل المبخرة"، يقول فيه مدير الاحتفال: "أنا الكاهن، أنا الطاهر." ثم يقول، في طقس "خلع اللباس الأبيض": "أنا نبيّ. الملك هو مَن أمرني برؤية الله." ويتكرّر إعلانان مماثلان في "طقس الخروج من أجل العرش"، فيقول الكاهن في الأول: "أنا نبيّ. أنا ابن نبيّ في هذا المعبد"، ويقول في الثاني: "أنا نبي جاء يُنجز هذا. آتي كي أُنجز تقديس "آمون – رع" إله العروش في الأرضين القابع على عرشه، وتقديس تساعية عروشهم العظيمة." ويمثّل كلٌّ من الكاهن والنبيّ رتبةً كهنوتيّة، غير أنّ الاختلاف بينهما، في الطبيعة والواجبات، لا يزال غامضًا.(٢). ولكنّ المعروف أنّ منصب الكاهن منصب مؤقت، لأنّ الكهنة تتغيّر، أمّا منصب النبيّ فدائم، وأجر الثاني هو عشرون ضعف أجر الأول، كما أوضحت إحدى البرديّات(٣).

وبين "طقس حَمل المبخرة" و"طقس خلع الثوب الأبيض" طقس آخر وسيط هو "طقس عبور المكان المقدّس"، يُذكَر فيه بوضوح تغيير للمكان، من الموضع الذي جرى فيه "طقس حمل المبخرة"، إلى المكان المقدّس: المذبح، وهو المكان الذي تُقيم فيه الآلهة. وبما أنّ مدير الاحتفال لا يلبث أن يتّخذ مكانه قرب التمثال المقدّس (تمثال الإله)، فقد صار مكان الكاهن في الخارج، ومكان النبيّ في الداخل مع الآلهة. واستنادًا إلى الصور

١ – Ibid, p. 7
٢ – John Gee, **Prophets- initiation and the Egyptian temple**, in: (site: Google. Com), p. 97
٣ – Ibid, p. 98

والبرديات التي عُثِر عليها، يمكن أن نقول إنّ مراحل الطقس الاحتفاليّ تتمّ وفق الجدول الآتي:

الموقع	الطقس	الرقم
خارج الهيكل	إضاءة مشعل	١
خارج الهيكل	حمل المبخرة	٢
خارج الهيكل	وضع الفحم في المبخرة	٣
خارج الهيكل	وضع البخور على الفحم	٤
ممرّ الأعمدة الكبرى	العبور إلى المكان المقدس	٥
داخل الهيكل	طقس آخر للعبور	٦
المعبد	قَطع الشبكة	٧
المعبد	فَضّ الختم	٨
المعبد	خَلع الثوب الأبيض	٩
المعبد	الكشف	١٠
المعبد	رؤية الله	١١
المعبد	تقبيل الأرض	١٢
المعبد	وضع البطن على الأرض	١٣
المعبد	الوقوف	١٤
المعبد	تقبيل الأرض برأس مطأطئ	١٥
المعبد	طقس آخر	١٦
المعبد	طقس آخر	١٧
المعبد	تمجيد آمون	١٨

ويُظهر الإعلانان اللذان يبدأ الاحتفال بهما، أي "أنا كاهن. أنا نبيّ" رتبة كلّ منهما، وسلطته في الطقس الاحتفاليّ، ولا سيّما في الطقس الذي يعبرون به نحو العرش (عرش الإله الملك)، حيث يقول النبيّ:" أنا نبيّ يُنجز هذا[١]." وفي الاحتفال عبارات أخرى تُطلَق، كما يبدو من النقوش والبرديات، منها في طقس "حمل المبخرة": "أنا خادم "رَع" الحيّ"، ومنها في "طقس العبور إلى المكان المقدس": "أنا "حورس" الذي فوق السماء، إله الرهبة الرائع، رَبّ الخشية، الرهيب جدًّا، رافع الثقة، زعيم الأبيدوس." ومنها أيضًا في "طقس فَضّ الخَتم": "أنا مُسارّ الآلهة." وفي "طقس تقبيل الأرض برأس مُطأطأٍ": "أنا الروح الحيّة المؤثّرة التي هي في هيراكليوبوليس، والتي تُقدّم الهِباتِ، والتي تقهر الشرّ." وفي طقس آخر يُقال: "أنا "توت" حامي عظامكَ."

وهنا نلفت إلى أنّ الكهنة كانوا يُعَلَّمون واجباتهم المقدّسة وطقوسهم، في حين أنّ الآباء المقدّسين منهم (والأرجح أنّهم الذين يحملون لقب "نبيّ") كانوا يُسارّون. فهم كهنة الدرجة الأولى، في حين أنّ الأوّل هم كهنة الدرجة الثانية، إذا صحّ التعبير. إنّ كهنة الإسرارية هم هؤلاء الأُوَل، وهم الذين يتوارثون مناصبهم. وهذا ظاهر في أحد النقوش حيث جاء: "برعاية أبي، تدرّبتُ لأصير كاهنًا في معبد "آمون"... وتَبعتُه إلى مقرّ الحقيقة، حيث أُسْرِرْتُ أبًا مقدّسًا، حتى أمكَن من رؤية مختلف أشكاله[٢]."

وقد جاء في بعض النقوش (ومن بينها نقش في بهو معبد مدينة حابو)، على لسان أحد الآلهة، يقول لواحد من الفراعنة: "دَعني أُسِرّكَ وأُعلنكَ في الأفق، لتستطيع أن ترى ربّ الأرباب." وفي نقش آخر يقول "حورس" لأحد الفراعنة: "دَعني أُسِرّكَ في الهرَم

١ – Ibid, p. 99

٢ – Ibid, p. 100

الأعظم (هرم أبيكَ الأعظم) "آمون"، ربّ الأرباب." وكان الفرعون ينظر دائمًا لجهة الداخل من الباب، في حين كان الإله ينظر لجهة الخارج من الباب.

هكذا، ومن خلال النقوش، يمكن أن نقول إنّ الكاهن (كاهن الفئة الثانية) كان خارج أعمدة الممرّ، غيرَ مُسارّ، ووظيفته القيام بالطقوس التحضيرية؛ في حين أنّ النبيّ (كاهن الدرجة الأولى) كان داخل أعمدة الممرّ، مُسارًّا، يقوم بطقوس المعبد، ويرى الآلهة. وبذلك كان أحد أبرز أهداف الإسراريّة المنقولة رؤية الإله، وهو جزء من كهنوت المعبد اليوميّ وطقوسه. وفي الواقع، جاء في "كتاب الموتى الفرعونيّ": "لقد رأيتُ الممجّدين في "قمرُ"، وكنتُ في "ددو"، وأسلمتُ نفسي إلى الصمتِ هناك... جَعَلتُ الإله يتسيّد على قدميه. لقد كنتُ في معبد "با – دب – دو – ف" ورأيته هذا الساكنَ في المعبد المقدّس."[1]

ورؤية الآلهة مذكورة على نقوش بعض النواويس، حيث جاء: "لتُفتح أبواب النعيم لكَ، لتُفتح أبواب السماء لك. لتثبُت لكَ الإشارة كي تدخل إلى الإله العظيم الذي في معبده، ويرى "رع" بشكله الحقيقيّ." والمعبد المذكور هنا يوازي السماء[2]. وهذه الجملة بعينها تُقال عند إعلان سلطة الكاهن في طقس المعبد اليوميّ.

وكانت جلسة الإسرار في المعبد تمرّ بثلاث مراحل: الغَسْل (التطهُّر)، ووضع أدوات الزينة والإشاراتِ، والاستحضار إلى حيث الإله موجودٌ في معبده. وبعد أن يتمّ إعلانان عن الصفاء، يعبر المُسارّ المعبرَ، وهو يسمّي أقسامَه قسمًا قسمًا، كأنّه يعلنه للآلهة.

---

١ – لا مؤلف، كتاب الموتى، ص ١١٥

٢ – Op. cit, p. 101

ج – طبيعة الإسراريّة ومراحلها ورمزيّتها/ من الهرَم ورموزه إلى التكريس ورموزه :

ج – ١ – التكريس الإسراريّ: التكريس الإسراريّ، كما تمارسه مدارس الأسرار عمومًا، حتى في هذه الأيام، يحمل فيه أسس التكريس القديمة التي عُرفت في مصر، ومنها انتقلت إلى اليونان وروما وسواهما[1]. فالدخول إلى مدارس الأسرار يبدأ دائمًا بالتكريس. وكان يجمع بين الدين، والماوراء، وفلسفة الأخلاق. ومن النصوص الفرعونية المتعلّقة بالتكريس التي عُثر عليها هذا النصّ:

"أنا حقًّا ذلك الذي يسكن في الضوء،
أنا روح حلّت في كائن،
وُلد من جسد إله!
أنا صقر يسكن في الضوء
يعثر على قوته في ضوئه الذاتيّ
وعبر إشعاعه.
"أوزيريسُ"،
يا رَبّ التجسّدات،
يا عظيمًا مُهيبًا،
ها أنذا آتي.[2]"

لقد شعر القدماء بأهمية دخول الإنسان في مراحل جديدة من حياته، كالشباب، والزواج، والأبوّة، والشيخوخة... لذلك احتفلوا في طقوسهم بكلّ مرحلة بطريقة

١ – Max Guilmot, **The initiatory process in ancient Egypt**, in: Rosicrutian digest, n, 1, 2007, p.16

٢ – Ibid, p. 16

خاصة، فكان كلّ احتفال يعبّر عن الدخول إلى مرحلة من تلك المراحل. وكان ثمّة احتفال خاص بالموت أيضًا، على المسارّ أن يمرّ به، لكي يولد مجدّدًا. وقد شكّلت كلّ هذه الطقوس الخاصة الاحتفاليّة ما يسمّى "الأسرار" عند القدماء، وهدفها تغيير نوعيّة روح المسارّ، ورفع وعيه البشريّ إلى مستوى عالٍ جدًّا، وفتح المجال أمام لانهائيّة الروح. من هنا كانت احتفالات "تمّوز" و"أوزيريس" مثلاً لاختبار الحال فوق - البشرية والخلود، وبالتالي إسقاط رهبة الموت. وقد عُثر على نصّ لافتٍ جدًّا في مصر يصبّ في هذا المجال، جاء فيه:

"مِن أجل اللحاق بالإله في مسكنه،
داخل هذا القبر...
يبارِكُ "أنوبيس" سرّ "أوزيريس" المخبّأ
في وادي سيّد الحياة ("أوزيريس") المقدّس
إنّها الإسراريّة الغامضة
لسيّد أبيدوس.[1]"

ج - ٢ - **هرم "خوفو" وبعض رموزه:** يشهد هرم "خوفو" بالجيزة لحضارة قديمة غامضة. وهو مبنيّ بالأحجار الكلسيّة والغرانيت. أمّا "أبو الهول" قربه فكان، على ما يبدو، مدخلاً إلى الغرف السفليّة المقدّسة، حيث كانت الطقوس الإسراريّة تُقام. وفي داخل "أبي الهول" تنتشر ممرّات توصل إلى الهرم الكبير.

وليست الأهرام مجرّد مقابر للفراعنة، كما ظنّ الناس، على الرغم من وجود بعض النواويس الفرعونية والمحنّطات فيها، بل معابدُ للأسرار القديمة التي كانت تُقام في مصر، بعيدًا عن أعيُن العامة أو الجُهّال، صونًا لجوهرها، وخوفًا عليها من سوء الفهم أو التحريف.

---

١ - Ibid, p. 20

واحتوى الهرم أسرارًا هائلة في حينه، ونبوءاتٍ عديدة، سواء أكان هذا في تصميمه، أم في طبيعة تحديد الأرقام في أشكاله الهندسيّة، أم في غير ذلك. ومن هذا القبيل اعتُبر أنّ بناء "أبي الهول" لأغراض رمزيّة قديمة قد كان بتحريض من الكهنة. وقيل إنّ الحيّة التي على جبهته كانت، أساسًا، ساعة شمسيّة ضخمة، وأنّه هو والهرم الأكبر استُعملا لقياس الزمن والفصول[1].

بالنسبة إلى المصريين، كان "أبو الهول" رمزًا للقوة والذكاء (الأسد = القوة، الإنسان = الذكاء). وكان وجهه خُنثويًا (لا ذكريًا وحسب)، ليشيروا من خلال هذا إلى أنّهم اعتبروا المُسارّين والآلهة يشتركان معًا في القوى الخلاّقة الإيجابية والسلبية على السواء[2].

أما لفظة أهرام (وهي المكان المخصص للإسرارية التي تبدأ منه) فمشتقّ، على ما يبدو، من النار؛ ما يعني أنّها رمز "الشعلة الإلهية"، أو "الحياة داخل الكائن". وقد رأى بعضهم أنّها تعني "القسمة على ١٠"[3]. وكان المُسارّون يقْبلون الشكل الهرَميّ على أنّه الشكل الرمزيّ الكامل للأسرار، وللمؤسسة الخاصة بتعليمها. فكلّ من الأهرام والتلال أشكال للجبل المقدّس الذي اعتبروه قائمًا في "وسط الأرض".

وتُذكّر قاعدة الهرم المربّعة أنّه بيت الحكمة والأسرار، مُتأسّس على الطبيعة وأسرارها. وقد أشار "ألبرت بايك" إلى أن الغنوصيين زعموا أنّ أطراف الهرم الأربعة هي: الحرّ والبرد (الجنوب والشمال)، والضوء والظلام (الشرق والغرب). وتمثّل قاعدة الهرم، بدورها، العناصرَ الأربعة التي منها يتشكّل جسد الإنسان. ومن كلّ ضلع من ضلوع المربّع (قاعدة الهرم) يتصاعد مثلّث يمثّل ثالوثيّة الكائن المقدّس داخل كلّ رباعيّة من رباعيّات الطبيعة.

---

١ - Manly P. Hall, **The secret teaching of all ages**, p. 114

٢ - Ibid, p. 115

٣ - Loc. cit.

وإذا اعتبرنا كلّ ضلع من أضلاع المربّع يتصاعد منه مثلّث، صار مجموع أضلاع المثلّثات الأربعة ١٢، والمربّعات الأربعة المفترضة ١٦ (٤ X ٤)، وتلك التي تؤلّف القاعدة هي ٢٨ (١٦ + ١٢)، وهذا هو الرقم المقدّس للعالم السفليّ. فإذا زدنا هذا إلى ثلاث سَبعيّات (٣ + ٤ = كلّ مثلث + مربّع [٣ للمثلّث و ٤ للمربّع]) تؤلّف معًا الرقم ٢١ صار المجموع ٤٩ (٢٨ + ٢١)، وهو مربّع رقم الكمال الكونيّ ٧[١]. وقد تمثّلت إشارات الأبراج الاثني عشر بزوايا المثلّثات الأربعة المنصوبة من أطراف المربع الأربعة (٣ X ٤ = ١٢). وفي وسط كلّ جزء منها وحش من وحوش "حزقيال"، أمّا بنيتها كلّها معًا فتصير بشكل "شاروبيم"، حيث الغرف الثلاث الرئيسة للهرم تتّصل بالقلب، وبالدماغ، وبالجهاز التناسليّ، وهي المراكز الروحانيّة في جسد الإنسان. كذلك فإنّ شكل الهرم المثلّث مماثل للشكل الذي يتّخذه جسد الإنسان في خلال تمارين التأمّل. وكانوا، في الأسرار، يعلّمون المسارّين أنّ الطاقة الإلهية تنزل إلى الأرض من خلال رأس الهرم الذي كان متّصلاً بشجرة مقلوبة، أغصانها في الأسفل، وجذورها في الرأس؛ ومن خلال هذه الشجرة المقلوبة كانت الحكمة الإلهية تنتشر عبر الأطراف المتشعبة في الهرم، لتشعّ في العالم. ولمّا كانت لمسة البناء الأخير في الهرم غائبة، أو غير معروفة، وهي بدورها هرم رأسه هرم آخر، إلى ما لا نهاية، فإنّ الهرم يرتبط بالوجود (الوجود الأكبر = اللانهاية)، واللمسة الأخيرة ترتبط بالإنسان. كذلك، فإنّ العقل هو اللمسة الأخيرة في الإنسان، والروح هي لمسة العقل الأخيرة، والله هو المثال لكلّ هذا معًا، ولمسةُ الروح الأخيرة. ويرمز هذا كلّه، بدوره، إلى الأسرار. فالإنسان، كحجر لم يُصقل، يؤخذ من مقلعه، فتصقله الأسرار تدريجيًّا، ليصير هرمًا متكاملاً، ولا يتمّ الهيكل نفسه إلا عندما يصير المسارّ قمّة، أو رأسًا حيًّا، تتركّز فيه الطاقة الإلهية باتّجاه البنية المنحرفة الاتّجاه في الأسفل.

---

١ — Ibid, p. 115 - 116

لقد كان الهرم الأكبر، بحقّ، بيتَ الإسراريّات، حيث يتعلّم المُسارّ كلَّ المعارف والعلوم والفنون. لقد كان الرمز الأمثل للوجودين الأصغر والأكبر، ومن هنا اعتُبر قبرُ "أوزيريس"، إلهِ النيل الأسود، بابَ عالم الخلود. فقد كان المسارّون يدخلون أبوابه "بشرًا"، ويخرجون "آلهة". فيه كانت تتمّ الولادة الجديدة – الولادة الثانية الحقيقيّة، حيث تسكن الحكمة والمعرفة، كما يسكن الله في قلب الإنسان. وفي مكان ما، كان المُسِرّ يسكن، أو "الواحد الأعظم"، مرتديًا الثوبَ الأزرق والمذهّب، حاملاً بيده مفتاح الأبديّة المُسَبّع. إنّه الكاهن الأعلى (النبيّ) برأس أسد. هنا، تحديدًا، تمّ تكريس "أفلاطون"[1].

ج – ٣ – **الإسرارية:** كانت الأسرار المصريّة – وخصوصًا الأوزيريسيّة منها – على قدر كبير من الأهمية. ولكن، مع الوقت، أُهملت حقيقة هذه الأسرار والتكريس فيها، ولم تعد الطقوس المتّبعة تعكس مراحل التطوّر الروحيّ. وعليه، فإنّ مفتاح الحكمة الإلهيّة ضاع، فضاعت معه "الكلمة الإلهية". هكذا صارت وظيفة التكريس والأسرار فيه أن تعلّم المسارّ، تدريجيًّا، معنى الرموز الكامن تحت مظهرها، تلك الرموز التي تحوّلت اليوم إلى عقائد مغلقة، ففقدت سِعتها الروحانيّة.

وكانت الأسرار القديمة تنقسم قسمين: أوّلها هو المَسار التجريبيّ، وثانيها هو المَسار المتطوّر والكبير. وكان المَسار الأوّل، في معظم الإسراريّات، تمهيديًّا، في حين أنّه كان، في بعضها الباقي، يُعَدِّد تقسيمات الإسراريّة العامّة ودرجاتها.

وكانت التعاليم والمعارف المصريّة القديمة مستورة في حكايات رمزيّة، وكلمات تحتوي على تأمّلات مبهمة، تشفّ عن الحقيقة. وثمّة عناية كبيرة فيها بأسرار الآلهة. وقد نهَلَ تعاليمَها وفلسفتَها كبار فلاسفة اليونان، كما ذكرنا. وكان في أسطورة "أوزيريس" سرّ التكريس. وكانت الإسراريّة قاسية، ومؤثّرة جدًّا. ونظام الأسرار والتكريس هذا وُضع

١ – Ibid, p. 117

منذ عهود قديمة. وكان الكاهن، منذ نعومة أظافره، يُلقَّن تعليم الأسرار، ويُعَوَّد على هذا. وقد ظلّ الكثير منها محجوبًا.

ولمّا كان التكريس يمثّل حدَثَ موت "أوزيريس" وقيامته، ومبنيًّا على أسطورة "أوزيريس"[١]، فقد عُبِّر عنه في الاحتفالات العامّة الدينية باحتفالين أُقيما لـ "أوزيريس"، يمثّله في الأول رجل ميت، ممدَّد داخل نعش في موكب جنائزيّ، وتُدعى هذه الجنازة "إخفاء الجسد" aphanism؛ وكان ندبُه يمثّل المرحلة الأولى من احتفالات "إيزيس" العامة. وفي اليوم الثالث، بعدَ الدَّفْن، كان الكهنة والمسارّون يحملون النعش نزولاً نحو النيل، حيث وضعوا إناء ذهبيًّا. ثم يضعون في الإناء الذهبيّ ماء من النيل، ويعلنون انبعاث "أوزيريس"، وعودته من الموت، صارخين: "لقد وجدناه، لِنَغْتَبِطْ." وتشكّل مسيراتُ الغبطة القسمَ الثانيَ من الاحتفالات العامة[٢].

وقد رأى بعضهم أنّ التكريس مبنيّ، أساسًا، على رمزيّةِ رحلةٍ تقوم حول النيل، شبيهةٍ بالطقس المذكور أعلاه، حيث كانوا يمرّون على معابد سبعة، يمثّل كلّ واحد منها شَقرا Chakra (منطقة روحانية)[٣]. وتهدف هذه الرحلة إلى تطهير كلّ شقرا، وبناء معبد أثيريّ، أو جسم روحانيّ، اسمه "ساهو"، لاستعماله بعد الموت.

---

١ – Margie M. Mulligan, **Pre-dynastic Egyptian mystery school**, in: site: Google

٢ – John R. Bennett, **The origins of freemasonary and knights of the temple**, p.8-9

٣ – الشقرات السبع التي في الجسم (والتي تمثّل كلّ واحدة منها إلهًا له قوّة خاصة) هي الآتية:

١. الأولى: "أوزيريس"، "إيزيس"، الأرض (المربّع الأصفر).

٢. الثانية: "شلكيس"، "سوركيت"، الماء (الهلال الفضيّ)، "حورس" – "سيت" (الضوء والظلّ).

٣. الثالثة: "آمون" – "رع"، النار (المثلّث الأحمر).

٤. الرابعة: هاتور، منطقة القلب، الرحمة الإلهية (الضوء الأبيض الواضح).

٥. الخامسة: "توث"، الهواء (الدائرة الزرقاء).

٦. السادسة: شكميت، نار الإشراق (البيضة النيليّة).

٧. السابعة: "توت" و"مات" (البيضة النيليّة).

أما الطقس الإسراريّ، فقد كان يتمّ عبر العناصر[1]. وكانت هذه التقنيّة تصوّر لهم القوانين الفيزيائيّة الطبيعية التي تشكّل أساس أسرار "إيزيس". وهذه الامتحانات عبارة عن تطهيراتٍ بالنار، وبالماء، وبالهواء (٣ عناصر، والرابع هو التراب، ويمثله المسارّ نفسه بجسده، وبالأرض التي يطأها هذا الجسد).

وبما أن التكريس يدور حول أسطورة "أوزيريس" وموته وانبعاثه، فإنّ "حورس" ابن "أوزيريس" هو مرحلة تألّه الإنسان. إنّه رمز لحياة المُسارّ الروحانيّة. وعندما يُزيّن المُسارّ بالثوب الخاصّ، فهذا يعني أنّ ذاك الفكر قد صار موجودًا فيه. وبهذا الفكر المستنير، يمكنه أن يذهب إلى مملكة الموت، أو إلى العالم السفليّ، من غير أن يسقط في الخطإ. فليس لُبس الثوب الخارجيّ هو ما يزيّنه، بل أخلاقه وفكره. وكان طقس "إيزيس" يُمارَس في معبدها، وهي تحمل لقب "الأم العذراء"، أو "عذراء العالم". وكان "عيد ظهور النور" من أكبر أعياد مصر القديمة.

إذًا كان التكريس، في مصر القديمة، يتمّ على النحو الآتي: يُعطى طالب الأسرار ثوبًا أبيضَ ليلبسه، رمز النقاء المنشود، وحين يجتاز الباب الذي يحرسه ثلاثة كهّان، وعلى رأسهم خوذة، هي رأس كلب (تشير إلى أنّهم يمثلون "أنوبيس")، فلا مجال للتراجع بَعْدُ، ولا بدّ من تكريسه. فيُمْهَر بختم، ويشرحون له معناه، ويقسم على الكتمان[2]. ثم يُحضَر أمام جمع من الكهنة المُسرّين، داخل قبو سفليّ في الهرَم، فيُمتحَن أولاً في معارفه التي تلقّنها، ويقرأ كتابه على درع يُظهِرون له منه الطرفَ الخاليَ من الكتابة. ثم يُترَك وحيدًا في حالة تأمّل، بعد أن يُعلَّم كلماتٍ وتلاواتٍ، ويمتلك قدراتٍ خاصة تمكّنه من السيطرة على ذاته. وفي بعض الاحتفالات يُقاد إلى صليب خشبيّ أجوف، يُدخَل إليه بعد

---

١ – J. P. Dubreuil, **Histoire des franc-maçons**, Bruxelles: H. I. G. Librairie éditeur, 1833, v. 1, p. 33

٢ – Ibid, p. 34

طقوس خاصة، ويحمل جسده، نزولاً نحو أقبية تحت المعبد (في الهرم)، تمثيلاً لنزوله إلى مملكة الموت. وهناك يمرّ بتجاربَ مهولة عديدة، ليرمز عمله هذا إلى وَعظ الأرواح وهي في سجنها. ويبقى في هذا المكان، حيث تستمرّ التجارب ثلاثةَ أيام وثلاث ليالٍ، وحيث تمثّل الرحلاتُ الثلاثُ التي يقوم بها مراحلَ تطوّر الإنسان، ونزولَه داخل المادة (الجسد).

ثمّ في صباح اليوم الرابع، يُعاد المسارّ إلى داخل المعبد، حيث يُصلَّب على صليب خشبيّ يمثل أوقاتِ منتصف الصيف، والاعتدالين الخريفي والربيعيّ، ويُدفَن في فجوة عظيمة، داخل "غرفة الملِك"، حيث المناخ والحرارة الغريبان: ففيها برد قارس، يتسلّل إلى العظام. تمثّل هذه الغرفة معبرًا بين العالم المادي ودوائر الطبيعة؛ ففيما يرقد جسد المسارّ في الفجوة، ترتفع روحه كصقر رأسُه بشريّ، في الدائرة السماويّة، لتكتشف هناك أبديّة الحياة والضوء الحقيقيّين، تمامًا كما تكتشف وهميّة الموت والظلام والخطيئة. فالهرم بابٌ يُدخَل منه إلى التأمل الذاتيّ[1]. وعندما يخرج من تلك الغرفة، يفتح عينه على نور الشمس (رمزًا لانبعاثه من الموت)، وهذا رمز لوعي الإنسان، بعد انتهاء المرحلة الثالثة من التكريس، وارتفاعه عن الحالة المادية، إلى معاريج الروح.

وكانت الأسرار المصريّة ثلاث درجات، حيث يُدعى المسارّ في الدرجة الأولى "الفاني"، وفي الدرجة الثانية "الذكيّ"، وفي الدرجة الثالثة "صانع الأنوار". أما الفاني، فتلميذ مؤقت في مرحلة التجربة لاختبار قدراته، يتعرّف إلى الأسرار، لكنّه لا يعرف، بعدُ، كُنهَها. وأما "الذكيّ" فمن بلغ مرحلة الانفتاح الداخلي على ذاته، فصار عقلاً منفتحًا، جاهزًا لاستقبال المعارف السامية. وأما "صانع الأنوار" فكان الذي وصل إلى كُنه الرؤيا الروحيّة والمعارف. وقد سمّى بعضهم هذه الدرجاتِ

---

١ – Manly P. Hall, **The secret teaching of all ages**, p. 117

الثلاث أسماء أخرى: الإسرارية، والإشراق، والكمال[1]. ورأى بعضهم أنّ "أورشليم الجديدة" كانت صورة لمعابد الأسرار في مصر. ووصف آخرون أحد هذه المعابد، فقال إنّه كان في وسطه قاعة المذبح، وفيها مداخل من جهتي الشرق والغرب؛ ووراء هذه القاعة بهو المعبد العظيم الذي يوصِل إلى قدس المعبد، ويكون مدخله مقفَلاً، وإليه يَدخَل الكاهن الأكبر مرّة واحدة في السنة. وفي هذا المعبد أبهيَة متعدّدة، من بينها "بهو خيوط الشمس الذهبيّة"، و"غرفة الذهب"، و"غرفة الولادة"، و"بيت الواحد الذهبيّ"، و"غرفة اللهب". وكلّ هذه الغرف والأبهية على علاقة بأسرار الحياة والموت، وبمراحل التكريس. وكان بهو المعبد العظيم يُدعى "بهو الولد في حَبْوِه"، وهو أعظم الأبهية، وفيه صورة على نصف دائرة، تمثّل الأمّ المقدسة ("إيزيس")، حاملة بين يديها الطفل المقدس ("حورس")[2].

وكان أحد الكهنة يلبس رأس "أنوبيس" يقود المسارّ إلى عتبة الحرَم المقدّس في مستهلّ الاحتفال، و"أنوبيس" هو رسول بين عالم الأحياء وعالم الأموات السفليّ؛ نصف وجهه أسوَد، ونصفه الآخر ذهبيّ. ويُظهِر رسم هيروغليفيّ هذا الإله ممدّدًا على صدره العريض الذي يخفي في داخله أحشاء "أوزيريس". وإذا كان "أنوبيس" بشكله يخرج من قبر "توت عنخ آمون"، فلتخليد ذكرى الإله الذي اكتشف الانبعاث، من جهة، وإبعاد الجهّال، من جهة ثانية، عن هذا النعش الذي لا يخبئ الموتَ، بل الحياة التي ستنبثق. و"أنوبيس" يمثّل، بالنسبة إلى المسارّ، الأملَ بولادة الحياة؛ فالقسم الأسود من وجهه يمثّل الموت، والقسم الذهبيّ يمثّل الحياة، لأنّه يرتبط بالشمس رمز "أوزيريس"، وبالنور.

١ – Charles H. Vail, **The ancient mysteries and modern masonry**, p. 40

٢ – Ibid, p. 40 - 41

ويحمل التقدّم نحو الإشراق المعنى نفسُه بالنسبة إلى كلّ مُسارّ، وهو عبور الحَرَم المقدس الطويل، بقيادة "أنوبيس"، ثمّ الدخول الاحتفاليّ إليه. وقد عُثِر على النصّ الآتي في بعض النواميس، وهو نصّ مرتبط باحتفال التكريس المذكور:

"بالنسبة إليّ، أبواب السماء (أي باب المعبد)
قد انفتحت على مصراعيها.
بالنسبة إليّ أبواب الأرض
قد انفتحت على مصراعيها.
بالنسبة إليّ انفتحت
أقفال الإله "جب"..."

وهذا يذكّرنا بمعبد "أبيدوس" حيث العبادة الأوزيريسيّة. فهناك يتراءى ممرّ سفليّ، طوله حوالي مئة متر، حيث تقوم روح المسارّ، من خلال هندسة هذا الممرّ، بنسيان أوهام العالم، لأنّ نسيان إغراءات الذات، والنزول إلى أعماق الأرض، يعني استعادة الطاقة التي استنفدتها الحياة؛ فالأرض رحِمُ الأشياء، تعطيها الحياة والبقاء، و لهذا السبب هي ترمز إلى الأم. إنّ ليل الإسرارية الروحيّ الطويل يمثّل عودة إلى الينابيع التي يصل بها المرء إلى الإشراق.

لذلك على المرء، قبل أن يفتح عينيه على النور العظيم، عبورَ أرض مظلمة، حيث لا شيءَ غير الوجود الأرضيّ. فقبل الوصول إلى نور الحكمة، على الإنسان أن ينسى الأوهام الأرضيّة. وفي الأسرار يحصل المسارّ على سلام القلب، ونور العقل.

في هذه الإسرارية، يمثّل "أوزيريس" و"سيت" ("تايفون") المبدأين المتعارضين: الخير والشرّ، والنور والظلام، والحياة والموت. وقد كان "أوزيريس" إلهًا مصريًا، يُعبَد بشكل ثور أحيانًا، تمثيلاً للفحولة الذكريّة، وبالتالي لقوة الإخصاب، وذلك لأن

المصريّين ظنّوا أنّ هذا الثور، ويدعى "أبيس"، تجسيد لـ"أوزيريس"[١].. كما عُبد بشكل نور الشمس؛ فهو الذي يعكس حركة الحياة، وقوّة الدفء التي تحيي الطبيعة. وقيل إنّه كان، في أوّل الأمر، إلهًا قمريًا[٢]، ثمّ صار إلهَ النيل المعطاء، فرَمَزَ، بموته وانبعاثه، إلى انخفاض المياه وارتفاعها، تمامًا كما صار إلهًا شمسيًّا، فصوّر، بموته وانبعاثه، حركة الشمس في الاعتدالين الخريفيّ والربيعيّ، وفي خلال الفصول الأربعة. بالمقابل كانت "إيزيس"، زوجته القمرية التي ترتبط بالطبيعة نفسها، روحَ "نجمة الكلب"، وهي النجمة المؤثّرة في فيضان النيل، والقوّة الكامنة في ضوء القمر[٣]. فالأوّل هو قوة الإخصاب في الطبيعة، والثاني هو الطبيعة المُخصَبَة، وابنهما "حورس" هو العلاقة المستمرّة بين قوّة الإخصاب (وهي هنا الشمس خصوصًا) والطبيعة التي تُخصَب من خلال أشعّتها. من هنا مثّل كلّ من "إيزيس" و"أوزيريس" تكامل الطبيعة في النهار (الشمس)، وفي الليل (القمر). وانعكست علاقة كلّ من "أوزيريس" و"إيزيس" و"حورس" في ثالوث مهمّ، شمسي – قمري، تمامًا كما انعكست علاقة "رع" و"أوزيريس" و"حورس" في ثالوث شمسيّ أساسيّ متكامل: حيث "رع" هو الأب، والشمس المتجلّية، ونور الحياة، و"أوزيريس" هو الابن الذي يتجسّد فيه الأب، بما أنّه، مثله، الشمس، و"حورس" ابنه الذي يمرّ من خلاله كلّ مُسارّ إلى العالم النورانيّ[٤]. كما يمثّل "أوزيريس" النيل نفسه، و"إيزيس" مصر التي يخصبها النيل[٥].

---

١ – ماكس شابيرو ورودا هندريكس، **معجم الأساطير**، تعريب: حنا عبود، بيروت: دار الكندي، ط١، ١٩٨٩، ص ١٩٢

٢ – بول فريشاور، **الجنس في العالم القديم**، ص ١٢١

٣ – Ernest Alfred & Thomas Wallas Badge, **Legends of the gods**, p. 68

٤ – بولس طوق، **النار والنور في الفكر العالمي**، ص ٢٩

٥ – John R. Bennett, **The origins of freemasonary and knights of the temple**, p. 9

٥ – **خاتمة**: لقد كانت الإسراريّة المصرية أساسًا لكل الإسراريّات التي جاءت بعدها في العالم القديم. ومعَ أنّ ثمة آراء مختلفة في كون التقاليد الإسرارية الفارسيّة قد سبقت التقاليد المصرية، فإنّنا نرى العكس، لأنّ التقاليد المصرية ليست بعيدة، بشكل عام، عن التقاليد الفارسية. وبما أنّ مصدرهما معًا من نقطة واحدة: أتلانتيس، فإنّنا نعتبرهما شكلين مختلفين لإسرارية أساسيّة أقدم منهما معًا.

وفي الفصول الآتية سنحاول أن نرى كيف كانت الميثولوجيا والإسراريّة في الحضارات القديمة الأخرى، ونبدأ بحضارة ما بين النهرين.

الفصل السادس

الآلهة والأسرار في بلاد ما بين النهرين

١ – مقدمة: كانت لحضارة ما بين النهرين تأثيرات مهمة في الحضارات المجاورة لها، ولا سيّما منها حضارة السومريّين. والمعلوم أنّ هذه الحضارة كانت مزيجًا من حضارة السومريّين، والبابليّين والأكاديّين والآشوريّين، وقد تفاعلت كلّها، من أجل أن تخلق حضارة تميّزت بميزات مهمّة، وتركت آثارَها الفكريّة في العهد العتيق، وفي بعض شرائع التوراة الأساسيّة، وأبرزها "سفر التكوين".

لقد شكّلت الحضارتان السومريّة والأكّاديّة الحضارةَ البابليّة، ومن عرقهما تشكّل العرق البابليّ. ويبدو أن الشعب السومريّ نزل من أقاليم الشمال، ليستقرّ في ما بين النهرين السفلى، فأخضعوا السكان لهم هناك. ثم تغلغل بينهم بدو آتون من الصحراء السوريّة، ساميّو اللغة، هم الأكّاديّون، في مناطق الشمال خصوصًا حوالي عام ٣٠٠٠ ق. م. فسيطروا على المدن السومريّة[١].

٢ – الميثولوجيا السومريّة: كانت كلّ ألوهيّة مُتخيَّلة ككائن سماويّ؛ من هنا نجد الآلهة عندَ السومريّين تشعّ نورًا[٢]. وقد تصوّروا ثالوثًا لكبار الآلهة، وآخرَ لصغارها، وكانت فكرة الثالوث واضحة في تفكيرهم لِما لهذا الرقم من ترميز خاص عندهم، وهي حاله عند باقي الشعوب التي بلغ فكرها شيئًا من التطوّر والرقيّ. وسنبيّن هذا في كلامنا على الآلهة السومريّة.

وفي الواقع، لم يكن الإنسان يُرَمّزُ قصديًا إلى الظواهر والموجودات بوساطة رموز إلهية، لأنّه يشعر بوحدة الحياة. كان يتصوّر حياته الزمنيّة انعكاسًا دقيقًا للنظام الكونيّ،

---

١ – مرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، تعريب: عبد الهادي عباس، دمشق: دار دمشق، ط١، ١٩٨٧، ١/ ٧٩ – ٨٠.
٢ – المرجع نفسه، ١/ ٨٠.

وأنّها جزء من هذا النظام الذي يتحرّك في إطار الصراع بين القوى الإيجابيّة، والقوى السلبية[1]. ويمكننا أن نقول إنّ إضفاء الألوهيّة على قوى الكون الفاعلة، وعلى عناصر الطبيعة، أو تحويل هذه إلى آلهة، هو تفسير وتعليل لما كان الإنسان في بلاد ما بين النهرين يُعدّ نفسه جزءًا منه[2].

ويبدأ التكوين، عند السومريّين، بالإلهة "نامّو"، وهي الغَمْر الأول، والأمّ التي تحضن الأرض والسماء، وفيها كلّ الأنظمة والحكمة الإلهيّة، وكذلك جميع الآلهة. غير أنّ "نامّو" في حالة كمون، بمعنى أنّها لا تفعل ولا تتحرّك. ومن هذه الأمّ، وُلدت السماءُ والأرض، ووُلد المكان الأول (المكان المقدّس) الذي يُدعى "أنكي". وانبثق الزمان الأول (وهو بدوره الزمان المقدس) ويدعى "أوريا". وهذا الزمان انبثق فجأة، لا يسبقه شيء، والسبب أنّ شيئًا لا يمكن أن يقوم قبل ظهور الحقيقة التي يبدأ الزمن بقيامها[3]. إنّه اللحظة المثاليّة لكلّ الأزمان، لذلك تُستعاد هذه اللحظة بعد رأس السنة.

وكان المكان الأوّل الذي ضمّ كلاًّ من الأرض والسماء مندمجين، وهو جبل شامخ، رأسه في السماء، وقاعدته الأرض، وعلى قمّته تجتمع الآلهة. إنّه مركز العالم الذي يولَد العالم منه[4]، فكلّ الأمكنة التي يبنيها البشر مأخوذة منه، أو من فكرته السامية. وعليه، فإنّ "كلّ بناء يشيده الإنسان خلَقَ العالمَ انطلاقًا من من نقطة مركزيّة... على صورة العالم الذي ينمو، ابتداءً من مركز، ويمتدّ عند الجهات الأصلية الأربع."[5] واسم هذا الجبل عند

١ – خزعل الماجدي، متون سومر، عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٨، ١/ ٦٧
٢ – لا مؤلف، ديوان الأساطير: سومر وأكاد وآشور، تعريب: قاسم الشواف، بيروت: دار الساقي، ط١، ١٩٩٧، ٢/ ٢٤
٣ – مرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ١/ ٧٠
٤ – خزعل الماجدي، ديوان الأساطير: سومر وأكاد وآشور، ١/ ٦٨
٥ – مرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ١/ ٤٥

السومريين "دوكو"، أما المعبد فيه فيدعى "دور – آن – كي"، ويعني الرابط بين الأرض والسماء[1].

إذًا وَلَدَتْ "نامو"، من ذاتها، الزوجَ الإلهيَّ الأوّل: "آن" (السماء)، و"كي" (الأرض). وإلى هذه الإلهة – الأصل يعود كل شيء. ثم لقّح إله السماء "آن" الأرضَ "كي"، فسكب فيها ماءه المخصب: المطر، فكان ابنهما "إنليل" (إله الجوّ أو الفضاء)[2]. ثم رفع "آن" السماء إلى أعلى، وحمل "إنليل" أمّه معه.

وكان الفردوس الأول يدعى "دلمون"، وهو أرض ليس فيها أيّ بؤس، وهذه حال سكونيّة تسبق الفعل والظهور؛ لأنّ الإله "أنكي" كان نائمًا فيه، إلى جانب زوجته العذراء "نين – جور – ساج"، قبل أن يستيقظا؛ ثم أكل "أنكي" بعض أعشاب الفردوس، فحلّت به آلام شفته منها زوجته[3].

لقد انوجد كلّ شيء من الكلمة ("اللوغوس" عند اليونان)، ويبدو أنّ هذه المسألة لم تكن غريبة عن السومريّين أيضًا، لأنّ "نامو" تعني السِمَة والاسم، وطبيعتُها الكامنة فيها هي التي حرّكت فعل الخلق من خلال اسمها وكلمتها. والتمثيل الأقرب لها هو "الأوربوس"، أي الأفعى الكونيّة المائيّة الدائريّة الشكل، لأنّها تضع ذيلها في فمها، وفي الواقع، فإنّ الشكل الدائريّ شكل لا بداية له، ولا نهاية. هكذا، تحرّكت "نامو" على محورها، فانفتح ذيلها، وانفكّ عن رأسها، وتكوّن الجبل الكونيّ بقطبيه السلبيّ والإيجابيّ، وكانت هذه الحركة بإرادة الإلهة "نامو" نفسها، من غير أن يكون استجابة أو انتقالاً. إنّه فعل خلق انبثق من داخل الكلمة نفسها. وبعد أن انفتحت هذه الحية، وأوجدت جبل الكون، عادت

---

١ – خزعل الماجدي، ديوان الأساطير: سومر وأكاد وآشور، ١/ ٦٩

٢ – المرجع نفسه، ٢/ ٢٣

٣ – مرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ١/ ٨٢

وانقفلت على نفسها. وبفعل إطلاق الكلمة، تحرّكت "نامو" نفسها، مرّة أخرى، فكان عنصرا الذكورة والأنوثة، لتكون بهذا أمرت بالخلق الجنسيّ بكلمتها، فكان أعلى الجبل (السماء) ذكرًا، وأسفله (الأرض) أنثى. لقد بدأت حركة "الأوروبوس"، أو "نامو"، بالكلمة، ثم نُفّذت بالجنس، لأنّ الأرض والسماء كانا ملتصقين، وبدءا بممارسة الجنس (السماء لقّحت الأرض بمائها المخصب (المطر) فأحيتها)، ثم انفصلا. ثم وُلد "أنليل" بينهما، وبنموّه انتصر الأب على الأمّ، وانفصلت الأرض عن السماء[1]. و"إنليل" هذا يمثّل الفضاء (أو الهواء) الذي بين السماء والأرض؛ وهو يمثّل، تحديدًا، غلاف الأرض الجويّ، وما فيه من ظواهر، كالرعد والبرق[2]؛ وكلّ ما يتعلّق بعلوم الفلك، والتنجيم، والتقديم، والتأخير، واحتساب الوقت الأرضيّ، من اختصاص هذا الإله. وبذلك اكتمل الثالوث الإلهيّ الأوّل الذي انبثق عن "نامو": "آن" و"كي" و"إنليل" (السماء والأرض والهواء (أو الفضاء بينهما)).

وتولّى "كي" الأرض، فبنى الحضارة فيها، في حين أنّ "إنليل" رعى سلطاتِ أبيه في السماء، وأشرف على تنظيم الكون. وله ابن هو "نركال" إله العالم الأسفل.

ويواكب هذا الثالوث ثالوث ثانٍ موازٍ، ومرتبط به، هو "أنتوم" زوجة "آن"، و"نينليل" زوجة "إنليل"، و"إيا" زوجة "كي"، وهذا الثالوث يتمثّل فلكيًا بكواكب ثلاثة، هي: الشمس، والقمر، والزهرة[3].

أما الإنسان فقد صُنعَ من الطين، صنعته الآلهة، وأعطته "نامو" القلبَ، وأعطاه "أنكي" (هو ابن "آن" و"كي" السماء والأرض) الحياةَ. وقيل إنّ البشر قد خُلقوا من دماء

---

١ – خزعل الماجدي، ديوان الأساطير: سومر وأكاد وآشور، ١/ ٧١ – ٧٢
٢ – المرجع نفسه، ١/ ٩٣
٣ – بولس طوق، النار والنور في الفكر العالمي، ص ٣٩

إلهين مذبوحين[1]. ويبدو أنّ السومريين تصوروا الإنسان يتقاسم الوجود مع الآلهة، بمعنى أنّ البشر كانوا يخدمون الآلهة، ولكنّهم لم يكونوا عبيدَهم، بل أقرانهم[2].

أما النظام الكونيّ فيضطرب بسبب الحيّة الكبيرة التي اعتبروها تصوّر الشرّ والآثام؛ لهذا وجدوا أنّ على البشر ان يتطهّروا من آثام هذه الحية، ويدفعوا شرّها عن نفوسهم بالشعائر. وقد اعتبروا أنّ العالم يولد عندهم باستمرار في العيد السنويّ الذي سمّوه "عيد العالم الجديد".

وبعد خلق الإنسان، أقام الآلهة خمس مدن في أماكن ظاهرة، وجعلوها مراكز عبادة. ثم أوصلت الآلهة إلى ملوك الأرض خِطط المدن، والمقابر، والمعابد؛ وظهرت الإلهة "نيدابا" في مخطّط المعبد، لهذا السبب، كانت نماذج كلّ مدينة ومعبدها، في ظنّهم، سماويّة؛ وقد استمرّ هذا الاعتقاد مع البابليّين الذين اعتقدوا أنّ لكلّ مدينة على الأرض نموذجًا في السماء[3].

ويعتقد السومريّون أنّ طوفانًا قد أغرق العالم، ولم ينجُ منه إلا شخص واحد، هو الملك "زيسودرا"، وهذا يماثل قصّة "نوح" الذي نجا وحده وأسرته من الطوفان. بيدَ أنّ هذا الملك مُنعَ سُكنى الأرض الجديدة، ونُقل إلى "دلمون"، وفي هذا رمز إلى أنّه سكن الخلود. وكانت الآلهة قد أمرته ببناء سفينة (تمامًا كما حصل مع "نوح"). ثم عندما جفت المياه، وظهرت اليابسة مجددًا، صلّى للآلهة، فمنحه "آن" و"إنليل" الخلود، ونقلاه إلى "دلمون"[4].

---

١ – مرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ١/ ٨٣
٢ – المرجع نفسه، ١/ ٨٣ – ٨٤
٣ – المرجع نفسه، ١/ ٨٥
٤ – المرجع نفسه، ١/ ٨٦

وبالعودة إلى قصة "أتلانتيس" التي ذكرنا، نلاحظ أنّ مسألة غرق العالم تتكرر بشكل أو بآخر عند الشعوب القديمة (عند العبريين مع "نوح"، وعند اليونان مع طوفان "زوس"). فالطوفان الذي أغرق العالم هو الزلزال الكبير الذي قضى على القارّة، فأنزلها إلى أعماق المحيط الأطلسيّ، والرجل الناجي من هذا الطوفان ليس رجلاً في الواقع، بل مؤسسون، نقلوا حضارة القارّة المفقودة إلى مناطق استقرّت فيها ممالكهم، وهم لم يتمكّنوا من رؤيتها، لأن ازدهارها قد تمّ بعد موتهم. غير أنّ الممالك الجديدة المؤسّسة هي التي خلّدت حضارة "أتلانتيس".

ويمكننا أن نقسم الآلهة السومريّة الكبيرة قسمين رئيسين:

١ – آلهة الخليقة الأولى التي تشكّل الكون منها (أو آلهة الخلق): وهي "نامو" (الغمر الساكن الذي خرج منه كل شيء)، و"آن – "كي" الجبل الكوني الأول الذي ما لبث أن انفصل فيما بعد.

٢ – آلهة العناصر الأربعة التي كوّنت العالم، وهي: "آن" (السماء)، و"كي" (الارض)، و"إنليل" (الهواء)، و"أنكي" (الماء).

فلـ"آن" عدّة أولاد، من بينهما "إنليل" و"أنكي"، وله ايضًا ولد ثالث، هو "نسكو"، الذي يمّثل النار، وهو أيضًا وزير "إنليل"؛ وله كذلك بنات مسؤولات عن الزراعة والشفاء. بهذا تكون السماء والأرض أنتجتا العناصر الأربعة التي تكوّنت منها الحياة والموجودات[1]. وله أيضًا "نينورتا" الذي ولدته أمّه من غير حَمْل، ويمثّل كُليّة العالم، وجميع الألوهيّات معًا (فهو يرمز إلى وحدة الوجود). وزوجته "غولا" تقيم الأموات إلى الحياة، وتُبرئ المرضى، وهي أمينة للمعرفة، لهذا السبب رُمز إليها بالكلب. أما ابنهما "نينجر – سو" فيرمز إلى الارتقاء الروحي، وعرسه سبعة أيام، ورمزه نسر برأسي أسد[2].

---

١ – خزعل الماجدي، ديوان الأساطير: سومر وأكاد وآشور، ١/ ٨٧ – ٨٨

٢ – بولس طوق، النار والنور في الفكر العالمي، ص ٤٣ – ٤٤

وثمّة ثالوث آخر بين الآلهة يحكم الفلك، ويضم "نانا – سويت" (القمر)، و"أوتو" (الشمس)، و"إينانا" (النجم)؛ وهذه الأخيرة مماثلة لـ"عشتار" البابليّة، وكانت إلهة الحبّ والحرب في آن، لأنّها تحكم الحياة والموت معًا. وقد تصوّروها خُنثى، للدلالة على كمال قدراتها[1]. كما كانت هذه الإلهة تسهر على نموّ البشر والأسرة، وعلى نموّ المواشي والقطعان. وقد رمزوا إليها بعصًا مجدولة (رمز الأكواخ والبيوت والحظائر)[2].

وما يهمّنا هنا هو أنّ هذه الإلهة نفسها تتزوّج من "دموزي" الراعي، فيصير ملك المدينة. وكان على "إينانا" أن تنزل إلى مملكة الموت واللاعودة، لتخلف على عرشها أختها "إيريشكيجال" (وبذلك تحكم مملكتي الحياة والموت). لكنّها وصلت إلى أختها عاريةً بعد أن جرّدها حراس البوابات السبع من كلّ الحليّ والزينة والملابس، فنظرت إليها "إيرشكيجال" نظرة الموت. وعندما أخبرت صديقتها "نَنشوبور" الإلهين "إنليل" وزوجته "نالنيل" بالأمر، تنصّلا، لأنّهما لا ينتهكان نظامَ أرض الموتى. غيرَ أنّ "إنليل" تحايل، فأرسل إليها طعامًا وماءً، فأعاد إحياءَها. ولكنّها ما إن تهيّأت للصعود إلى العالم، حتّى منعها قضاة عالم الموت السبعة، وطلبوا منها أن تقدّم من يحلّ محلّها في العالم السفليّ، فواكبها قطيع شياطين "الغالا" كي يردّوها إذا لم تجد مَن يحلّ محلّها، فسلّمتهم "دموزي". فاستجار هذا بإله الشمس "أوتو"، فمسخه أفعًى، فهرب إلى مسكن أخته "جيشتينانا"؛ لكنّ الشياطين قبضت عليه، وحملته إلى مملكة الموت. ثم أشفقت "إيريشكيجال" على دموعه، فسمحت له بالعودة إلى عالم الناس ستة أشهر، على أن تحلّ أخته محلّه في خلالها في مملكة الموت، ثم يعود إلى عالم الأحياء ستّة أشهر أخرى[3].

---

١ – مرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ١/ ٨٧

٢ – جورج كونتنو، المدنيات القديمة في الشرق الأدنى، تعريب: متري شماس، بيروت: المنشورات العربية (سلسلة ماذا أعرف)، لا تاريخ، ص ٣٤

٣ – مرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ١/ ٨٨ – ٨٩

لقد تدخّلت الآلهة لمساعدة "إينانا" في العودة إلى العالم لخوفها من أن تزول الحياة فيه، فهي تمثّل قوّة الخصب، وبزواله تنتهي الحياة. من هنا فإنّ غياب "إينانا" يمثّل فصلي الخريف والشتاء، حين تتضاءل الشمس، وتموت الطبيعة حزنًا على غيابها؛ ثم تحتفي بقدومها مجددًا، فتلبس أبهى حللها، وتسترجع حياتها، وذلك بعودة الشمس في الربيع والصيف. هكذا مثّل السومريون دورة الفصول، وحركة الشمس في خلالها.

٣ – الكون وتقسيمه عند السومريين: تصور السومريّون الكونَ كرةً ضخمة – لأنّ الشكل الكرويّ شكل لانهائي، مرتبط بالدائرة – مقسّمةً أقسامًا خمسة:

١ – العالم الأعلى: وهو الفضاء المُمتدّ فوق السماء، حيث تسكن الآلهة.

٢ – السماء (الإله "آن"): وهي قبّة صلبة فوق الأرض. وقبّة السماء هي السماء السابعة، حيث يبدأ مقرّ الآلهة، فكأنّ هذه السماء باب مقر الآلهة.

٣ – الفضاء (الإله "إنليل"): وهو المساحة الفارغة بين الأرض والسماء، وهي – إلى جانب الظلمة – الريح، والهواء، والنَفَس، والجوّ، والروح. ومن هذه المادة تتكوّن الكواكب، وتتميّز بإشراقها، فقد ظهرت في الظلام (اسمها: بنات الظلام). وحدّد السومريّون ثلاث مسارات في الفضاء، هي: الزهرة (طريق "آن")، والقمر (طريق "إنليل")، والشمس (طريق "أنكي").

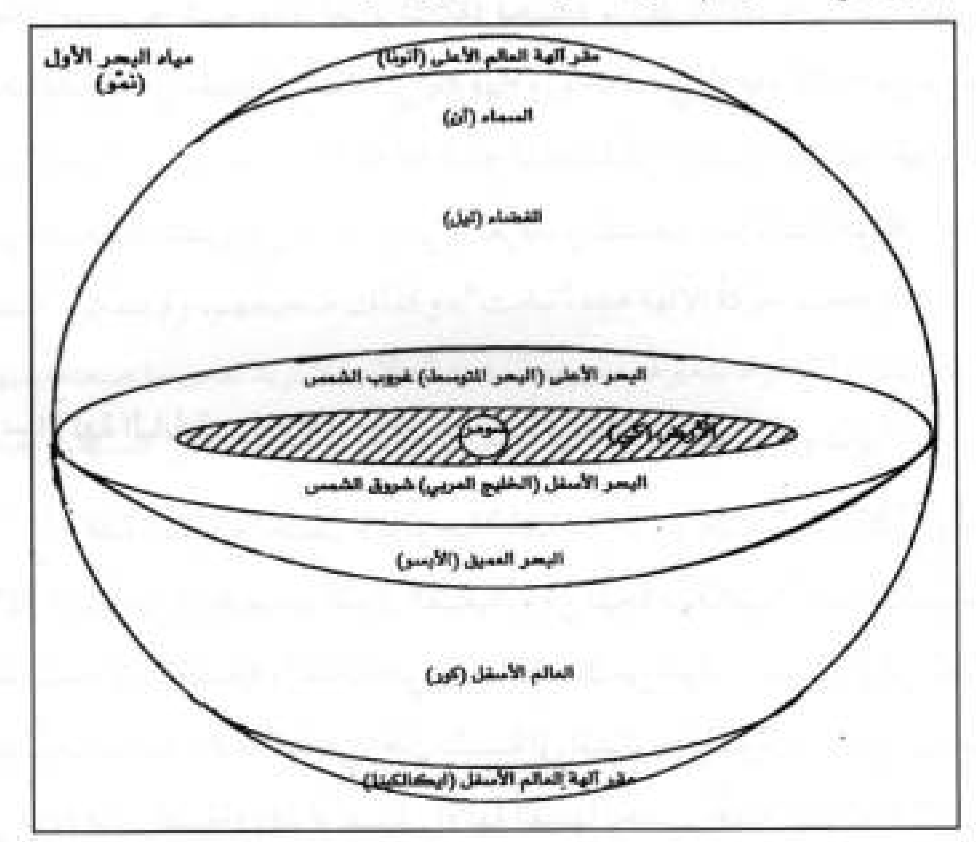
٤ – الأرض (الإله "كي"): وهي قرص دائريّ طاف على محيط مائيّ (وهذا يذكّرنا برأي "طاليس" أبي الفلسفة، فيما بعد، الذي يقول إنّ الكون يطفو على الماء).

٥ – العالم السفلي (الإله "نرغال"): وهو الفضاء الذي تحت الأرض، وفيه آلهة العالم السفليّ (أرض الموتى، أو أرض اللاعودة)، يسيطر عليه "نرغال" شقيق "إنليل"،

و"أريشكيجال" زوجته، وأبناؤهما. وإلى هذا العالم تذهب أرواح البشر بعد الممات؛ وفيه سبعة أبواب، وقضاة يحاكمون الموتى على أعمالهم، وهم الأنوناكي[1].

هكذا فإنّ الأرض تشكّل فاصلاً بين عالمين: واحد علويّ مضاء (السماء)، تسكنه الآلهة، وآخر سفليّ مظلم (العالم السفلي أو أرض اللاعودة)، تحكمه بعض الآلهة والشياطين). ومثل هذا صورة الإنسان، فهو كائن مزدوج، جسده من طين (العالم السفلي)، وروحه إلهيّة (العالم العلوي)، مصدرها كلمة الإله "أنكي"[2].

ونورد في هذا الرسم صورة الكون كما سبق ذكره:



١ – خزعل الماجدي، ديوان الأساطير: سومر وأكاد وآشور، ١/ ٧٧ – ٧٨

٢ – المرجع نفسه، ١/ ٨٠

نلاحظ، من خلال هذا التقسيم، أنّ الطابع الثالوثيّ هو الغالب على التقسيمات، بصورة عامة. وفي الواقع، إذا أردنا أن نوزّع العالم في الرسم الذي نقلنا، أمكننا تقسيمه أيضًا ثلاث تقسيمات رئيسة: العالم الأعلى، وهو عالم الآلهة، ومنه تنبثق الروح الإنسانية التي تسكن الجسد؛ والعالم الأرضيّ الذي يسكنه الإنسان، ويخضع فيه لنواميس الطبيعة؛ والعالم السفليّ، وهو عالم الموت واللاعودة. فالإنسان يسكن الوسط. وهذا الوسط مكوّن من متناقضات هي التي تسيّر حياته: ففيه الخير والشر ومظاهرهما، وعليه فهو مزيج من العالمين الأعلى والأسفل، لذلك يسكن بينهما. من جهة أخرى، فإنّ الإنسان، بدوره، يتشكّل من مزيج شبيه بهذه العوالم الثلاثة: فجسده مرتبط بالمادة، وهي التي تنتمي إلى الوضاعة، وبالتالي مصدر الأخطاء التي يقترفها؛ وروحه تنتمي إلى عالم الآلهة (هي من نَفَس "كي")، وبالتالي فهي خيّرة ومثالية؛ أمّا المزيج الذي يتشكّل الإنسان منه، فهو الخير والشر، وهو مادة مهيّأة للتطور من خلال الوعي والمعرفة، واكتشاف الدلالات الكونيّة.

٤ – الآلهة البابلية:

أ – قصة النشوء: لم تختلف الميثولوجيا البابليّة عن الميثولوجيا السومريّة كثيرًا. وكانت الآلهة البابليّة تمثّل تشخيصات للقوى الطبيعية، وهي نتيجة مراقباتهم الدقيقة، كالسومريّين تمامًا، للتحوّلات الطبيعيّة والفلكيّة التي عرفها الإنسان من حوله[١]. من هنا يمكن النظر إلى الميثولوجيا البابليّة – تمامًا كما هي الحال بالنسبة إلى الميثولوجيا السومريّة – على أنّها ضرب من عبادة قوى الطبيعة؛ وقد تمّ تصنيف الآلهة أنفسها بحسب أهميّة تلك القوى[٢].

---

١ – L. W. King, **Babylonian religion and mythology**, London: Kegan Paul, Trench, Trübner and co, 1899, p. 9

٢ – Ibid, p. 10

اعتبر البابليّون أنّ الأشياء كانت، في أوّل الأمر، غير مسمّاة، ثمّ أنبثقت المياه الأوليّة، وهي حالة عماء تامّ، لا فعل فيها، ولا حركة. وفي هذه المياه الأوليّة ظهر إلهان: "إبسو" إله المياه العذبة (التي تمثّل المجموعة العليا)، و"تيامت" إلهة المياه المالحة (التي تمثّل المجموعة السفلى). ومعهما ابن هو "ممّو"[1].

هكذا كان العماء الكونيّ الأول يتألّف من ثالوث إلهيّ (ثالوث العَماء): "إبسو" الأب، و"تيامت" الأمّ، و"ممّو" الابن. إنّهم أسرة العماء الثالوثيّة. وعندما أُطلِقَ الاسم (الكلمة)، ظهر من وسط "خليط المياه" إله الطّمْي "لخمو"، و"لخامو" زوجته. وولد أيضًا منه الإلهة "جبيل" إلهة النار الخيّرة. هذه النار تطارد الظلمات في أعماق العالم والإنسان[2]. ومنهما وُلد الإله "إنشار"، وزوجته "كيشار". ثم ولدت "كيشار" الإله "آنو" على هيئة أبيه، فأنجب بدوره "إيا" إله الأرض والحكمة على هيئته، وهو إله قويّ البطش[3].

وقد أزعجت حركةُ الآلهة هذه "تيامت"، وكذلك ضجيجُهم، ولم يتمكن "أبسو" من إسكاتهم. ولـمّا أراد تدميرهم، نهرته "تيامت"، لأنّها لا تريد تدمير ما صنعته أيديها؛ وكان "ممّو" يؤيّد والده. وسمعت الآلهة الأخرى جدالهم، فخافت على نفسها، ولجأت إلى "إيا" الحكيم، فوضع رقيته المقدّسة الغالبة، وألقاها في الماء، فغلب النومُ "إبسو"، وشُلّت حركة الينابيع، فسلبه "إيّا" تاجه، وقتله، فهوت جثّته إلى جوف الأرض، وأقامت في التراب[4].

---

١ – مارغريت روتّن، تاريخ بابل، تعريب: زينة عازار وميشال أبي فاضل، بيروت: منشورات عويدات، ط٢، ١٩٨٤، ص ١٢٦

٢ – بولس طوق، النار والنور في الفكر العالمي، ص ٤٠

٣ – خزعل الماجدي، إنجيل بابل، عمان: الأهلية للنشر، ط١، ١٩٩٨، ص ١٢ – ١٣. ويرى آخرون أنّ الثالوث البابلي كان يتألف من "آنو" إله السماء، و"بيل" (بعل) إله الأرض، و"إيا" إله المياه في العالم السفلي تحت الأرض. (L.W. King, **Babylonian religion and mythology**, p. 14).

٤ – خزعل الماجدي، إنجيل بابل، ص ١٤ – ١٦

ثم أسر "ممو"، وتزوّج "إيا" من "دامكينا"، فأنجبت "مردوخ"، وكان أرفع الآلهة شأنًا، آذانه أربعة، وعيونه أربعة، فأحاط بكلّ شيء. وخلق "آنو" الرياح الأربع، وسلّمها إلى "مردوخ"، فاضطربت الأمواج، وأزعجت "تيامت"، وشكت لها الآلهة القديمة أمرها، فأعلنت الحرب على الآلهة الفتيّة[1].

وأعدّت "تيامت" أفاعيَ هائلة ملأتها سمًّا، وحيّات، وتنانين، وأسودًا، وغير هذا من حيوانات مهولة. واختارت "كنجو" قائدًا للمعركة، وقرأت عليه تعويذاتها، وسلّمته ألواحَ القدَر[2].

وعرف "إيا" بذلك، فخاف، وقصد جدّه "أنشار"، فأخبره بما تخطط "تيامت"، فنصحه بأن يحارب بأسلحته هو، وبأن يقتل "كنجو" قائد الآلهة؛ ولكنّ "إيا" خاف عندما رأى حشود الأعداء المرعبة، فعاد إلى "أنشاز" معتذرًا عن القتال. فدعا "أنشاز" "آنو" ابنه لهذه المهمة، ولكنّ هذا الأخير عرف بأنّه عاجز وحده عن مقاومة "تيامت" وجيشها، وعاد إلى جدّه يخبره بذلك. فاجتمع مجلس الآلهة، وقرّ الرأي على أن يكون "مردوخ" هو من يقود مواجهة هذا الجيش، فقبل مرحّبًا. وكانت أسلحة "مردوخ" من قوى الطبيعة ورياحها[3].

وجرت المعركة، فقتل "مردوخ" "تيامت"، ودحر جيشها، وأخذ ألواح القدر من "كنجو"، ثمّ سلّمه لإله الموت "أوجاي". وعاد "مردوخ" إلى جسد "تيامت" فشقّه نصفين، وصنع من نصفه الأوّل السحبَ، ووضع الحرسَ، وأمرهم بحراسة مائها. وشكّل من النصف الآخر البحار. ثم خلق الكواكب والأزمنة (الأبراج الاثني عشر مقسّمة على

---

١ – المرجع نفسه، ص ١٧ – ١٨

٢ – المرجع نفسه، ص ١٩

٣ – المرجع نفسه، ص ٢٠ – ٢٧

أربع ثلاثات)، ومشرق الشمس ومغربها، ودورتها كلّ يوم، فكانت التقاويم. ومن لُعاب "تيامت"، خلق السماء والأرض، وأرسى طقوس العبادة[1]. ومن دم الإله "كينجو"، خلق "مردوخ" البشر ،بعد أن ردّ إليه الحياة[2].

تلك كانت ميثولوجيا النشوء عند البابليّين، يظهر فيها الإله "مردوخ" أعظم الآلهة، وأشدها احترامًا. وقد حاز على قواه بسبب خدمته للآلهة والبشر على السواء[3].

ب – ترميز النشوء البابلي: من الواضح، كما رأينا، أنّ الآلهة البابليّة، كالآلهة السومريّة، تمثّل قوى طبيعيّة بامتياز. فالحرب التي قامت بين "تيامت" وجيشها من جهة، والآلهة الأخرى من جهة أخرى، تعني صراعًا بين السكونيّة والفعل، ينتصر فيها الفعل على السكون، ليخرج الخلق من حال الإمكان (قبل مقتل "تيامت")، إلى حال الفعل (بعد مقتلها). واللافت أنّ آلهة العماء نفسها تنقسم قسمين: الآلهة الذكرية، والآلهة الأنثوية؛ ولكنّ الاتصال بينها لا يتمّ، و"ممّو" لا يولد بفعل اتصال بين الإله الذكر "أبسو" والإلهة الأنثى "تيامت". وألواح القدر تمثّل حركة الدنيا والطبيعة التي على الإنسان أن يتعلّم كيف يُفيد منها لينعم بخيرها، كما فعل "مردوخ".

وآذان "مردوخ" وعيونه الأربعة تمثّل العناصر الطبيعية التي تتحكّم بالخلق، والتي بها يتكوّن كلّ شيء؛ وهي خاصة بالطبيعة نفسها. ومن الواضح هنا أنّ البشر تولد من الآلهة التي تمثّل قوى طبيعيّة، فـ"إبسو" القتيل ينزل إلى التراب، ليصير التراب مقرّه، والتراب هو العالم الذي يعيش فيه الإنسان.

---

١ – المرجع نفسه، ص ٢٨ – ٣٢. وقارن: فراس السواح، لغز عشتار، ص ٥٣ – ٥٤، وكذلك: مارغريت روثن، تاريخ بابل، ص ١٢٣ – ١٢٨

٢ – المرجع الثالث نفسه، ص ١٢٨

٣ – L. W. King, **Babylonian religion and mythology**, p. 20

ومن حال الخواء، ينبثق الكون بقوة خالق (هو هنا "مردوخ")، فتكون الطبيعة، ودورتها، ونظامها الذي يتحكم بالحياة. إنّ تحوّل الوجود من القوة إلى الفعل هو أساس الميثولوجيا البابليّة، وكذلك الميثولوجيا السومريّة. وحالة العماء التي تتكلم عليها تشمل المذكّر والمؤنّث، أي أنّ العلاقة بينهما كانت لا تزال غير قائمة؛ وبالتالي، فإنّ الحركة التي تمثّل فعلَ الوجود (الكلمة – اللوغوس) لم تكن قد قيلَت بعد. وعندما تبدأ هذه الحركة، ينتفي العماء، ويسقط، ليقوم الكون بنظامه المتكامل.

أمّا جيل الآلهة الثاني، فيمثّل الوجود نفسه، بكلّ ما فيه من حياة ونظام. إنّ انبثاق الحياة في الكون قد نقل القصّة من جيل آلهة العماء والسكون، إلى جيل آلهة الفعل والحركة. وفي هذه الحركة قوّة الخلق والتحوّل. وهذا الجيل الثاني من الآلهة شبيه إلى حدّ كبير بالبشر، بأحاسيسه، وأفعاله، وأشكاله[1]. ودور الآلهة الإناث، عمومًا، يكاد يكون مقتصرًا على الإنجاب، ليتمّم العلاقة الطبيعية بين السلب والإيجاب، إلاّ بالنسبة إلى الإلهة "عشتار" التي كان لها دور خاص في الديانة البابليّة، شبيه إلى حدّ كبير بدور "إيزيس" الفرعونيّة، و"عشتروت" الفينيقيّة.

وقد ظهر لنا أنّ "مردوخ" خلق البشر من دم "كينجو"، بعد أن ردّ إليه الحياة. وهذا الإله الذي كُوّن منه الإنسان ينتمي إلى حال العماء. ولكن عندما تحرّك، ودخل في الفعل، قتله "مردوخ" ليخلق به. فالإنسان يحوي، مثل الإله المقتول الذي انبثق منه، حالَ إمكان (أي قدرة على الخلق)، وحالَ فعل (أي قوّة خلق).

وقد ظهر لنا أنّ الرقم ٣ هو الرقم الأكثر تجليًا في كلّ من الميثولوجيا السومرية والبابلية، وفي سواها من الميثولوجيات أيضًا؛ وهو رقم موصل إلى الكمال، بمعنى أنّ الرقم ٩ الذي يمثّل الكمال هو الرقم ٣ مضروبًا بنفسه، فهو ثلاث ثلاثات. فالرقم ٣ بداية الكمال، لهذا السبب نجده مقترنًا بالألوهيّات. في حين أنّنا نجد الرقم ٤ يظهر عندما يتعلق

١ – Ibid, p. 23

الأمر بالمسائل الطبيعيّة، فهو رقم مرتبط بالعناصر الأربعة، ويمثّل الأرض. وفي الواقع، كان سكّان ما بين النهرين يعتقدون بأن هناك توافقًا حميمًا بين الأرض والسماء، وظنّوا أنّ أعمال الناس تحمل الآلهة على الاستجابة لهم[1].

٥ - احتفالات بابل: عُرفت في بابل احتفالات خاصة بالإله "مردوخ"، تمثّل موته وقيامته، وهي جذور لطقوس إسراريّة مهمّة في الحياة والموت، لا تضاهيها إلا احتفالات "عشتار".

وكانت احتفالات "مردوخ" المذكورة ضربًا من المشهد المسرحي الرمزيّ، نُقل بعضه على عدد من النقوش التي عُثر عليها. جاء على أحدها مشهد بعنوان "البعل عندما كان في الجبل مقيّدًا بالسلاسل" (البعل هو اسم الإله "مردوخ" نفسه هنا، وكان ورد في بعض النقوش اسمًا للإله "إيا")[2]. ويرمز الجبل في هذا الاحتفال إلى القبر، والتقييد بالسلاسل هو تقييد الموت لحياة الإله، وهو موت رمزيّ - نفسيّ، متعلّق بطبيعة الإنسان، وارتباطه بالقيم، ونوعيّة أعماله. فالاحتفال ضرب من التمثيل المرمّز لعملية موت الطبيعة وحياتها، أي لدورة الفصول. ولم يبقَ من هذا المشهد إلا مقاطع، وفيها أنّ رسولاً يظهر أمام الحضور، لينقل خبر قرب انبعاث الإله، متسائلا: "مَن سينقذه؟"؛ ثم يبدأ النص اللاحق بمجيء الإله "نابو" المنقذ؛ فيذهب أحد الأشخاص إلى الجبل، حيث حلقة الاستجواب، ويصل الإله "نابو" لتخليص والده، ثم يخترق الشوارعَ موكبُ نساء متضرّع إلى الآلهة، لكي يعود "بعل" ("مردوخ") إلى الحياة. وتذهب امرأة إلى القبر الذي تحرسه مجموعة حاضرين، فتُلبسه ثياب الموت، وتغسل جراحه، وتركع الآلهة قربَه[3].

١ - جورج كونتينو، المدنيات القديمة في الشرق الأدنى، ص ٣٥
٢ - راجع: L. W. King, **Babylonian religion and mythology**, p. 14
٣ - مارغريت روتّن، تاريخ بابل، ص ١٣٧ - ١٣٩

ويتحوّل الناس الداخلون لإنقاذه، في بعض النصوص، إلى "مجوس"، وكذلك الرسول الذي يتساءل عن إخراج الإله[1]. و"مردوخ" البابلي ليس إله الخصب وحسب، بل هو أيضًا منظّم الكون.

وكانوا، عند اختفاء "مردوخ"، يطلقون في المدينة عربة تجرّها أربعة جياد، ولا يقودها أحد، فتزرع الرعب والهلع؛ ويرمز هذا إلى أنّ اختفاء الإله يزرع الفوضى في الكون. فالجياد الأربعة هي صورة العناصر الأربعة، وبالتالي فإنّ هذه العناصر التي تتحكم بالطبيعة تتشوّش من غياب النظام الكونيّ الذي يرمز إليه الإله نفسه. ومعنى كلّ هذا أن الإنسان، إذا عمل بغير نور الوعي والمعرفة، كان نفوذه مدمّرًا. والذات الإنسانية التي تفتقد إلى حكمة العقل، وضوء المعرفة، تقود صاحبها إلى الهلاك. ومثّلَ هذا الأمرَ احتفالٌ مماثل يمرّ فيه بالمدينة موكبٌ يقوده "ملك مجنون"، يعيث فوضى فيها، ثم يلاقي حتفَه في نهاية الاحتفال[2]. ويرمز هذا إلى مصير الإنسان الذي لا تسيّره الحكمة والوعي في أعماله، فهو يكون وبالاً على غيره، وعلى نفسه.

وعندما يعود "مردوخ" إلى الحياة، تخرج كلّ الآلهة للترحاب به مهللةً، وتوضَع له تماثيل ناطقة من خشب (هي ضرب من الدمى، أو أشخاص كانوا يلبسون أزياءً خاصة) تُلبَس حللاً فخمة. وينطلق الطَواف من هيكل المدينة ("هيكل الأقدار")، من البوّابة الشماليّة (الباب المقدس)، باتجاه الغرب، فالشرق، ثم نحو الشمال، ليصل إلى نهر "الفرات"؛ وتُنقَل التماثيل والدمى من العربات إلى السفن، ثمّ يترجّل الآلهة، ويعودون إلى عرباتهم، نحو هيكل المدينة، ويَبيت تمثال "مردوخ" والآلهة هناك من اليوم الثامن حتى الحادي عشر. وفي اليوم الثاني عشر، يعود كل إلى مقره[3].

---

١ – المرجع نفسه، ص ١٤٠ – ١٤١
٢ – المرجع نفسه، ص ١٤٢ – ١٤٣
٣ – المرجع نفسه، ص ١٤٤ – ١٤٨

ومن المعروف أنّ الإله السومريّ "إنليل" قد تعرض للآلام وهو في الفردوس (في "دلمون")، عندما حصل على صفاته. ومن المعروف أيضًا أنّ الإله "مردوخ" قد اتّحد به، وأخذ لقب "البعل" الذي يعني "السيد"، ودُعي منذ ذلك الحين "سيّد السماء والأرض"، و"ملك آلهة السماء والأرض"، و"الزعيم الأعلى لكلّ السادة"[1]. وهو كذلك "الإله الرحوم المانح الحياة لمن في القبور"[2]، لأنّ "مردوخ يموت، ويقوم من أجل كلّ الناس (وهذا مرتبط بخصوبة التربة والأرض وبحركة الشمس). وهو شافي المرضى، وسيّد الأقدار[3].

٦ - **احتفالات "عشتار"**: أسلم الرجل قياده للمرأة في المجتمع الأموميّ، لأنّه قدّر ما فيها من خصائص إنسانية، وقدرات مبدعة، وإيقاع جسديّ يتناغم مع إيقاع الطبيعة[4].

وقد راقب الإنسان التبدّلات في الطبيعة، وتأمّل في ظهور الفواكه في الصيف، وموت الأشجار والثمار في الشتاء، كما تأمّل في حركة الشمس، واعتدالاتها الربيعية والخريفية، وأرهبه جفاف الأرض، وانحباس الأمطار، وتراجُع مظاهر الخضرة، وكانت الأرض هي أمّ الإنسان الكبرى التي تفيض عليه بخيرها[5]؛ فعزا هذا كلّه إلى إلهة تمثّل سببيّة هذه الحالات الطبيعية، هي "عشتار"؛ وربط غياب الشمس الفصليّة بها، فجعلها إلهة الطبيعة التي تنزل إلى العالم السفليّ، في فصلي الخريف والشتاء، وتعود إلى الأرض، في فصلي الربيع والصيف. وصارت هذه الإلهة مميّزة بين الإلهات الأخرى، نظرًا إلى قواها

---

١ - المرجع نفسه، ص ١٥٢ - ١٥٣
٢ - المرجع نفسه، ص ١٥٨
٣ - المرجع نفسه، ص ١٦٣
٤ - فراس السواح، لغز عشتار، ص ٣٢
٥ - المرجع نفسه، ص ٥٠

المهمّة في الحياة، فكأنّها امتصّت قوى الآلهة كلّها[١]. كما كانت معروفة بأنّها إلهة الحبّ، وابنة "آنو" وزوجته، وهي، بهذه الصفة، اعتُبرت حبيبة "دموزي" ("تموز") التي نزلت إلى العالم السفلي لتخلّصه. بل جعلوا لها وجهين: كان الأول ظالمًا، مخيفًا، لأنّها تُنزل أشدّ العقاب بمن يرفض حبّها، وتنتقم منه بقوّة، وهذا هو الوجه الذي عرفناه لها في ملحمة "جلجامش"؛ ووجهها الآخر رقيق مُحبّ، لأنّها تنزل إلى مملكة الموت باستمرار، لتخلّص حبيبها "دموزي"، وتصطحبه إلى العالم[٢].

وقد تجلّت هذه الإلهة في القمر، لأنّ هذا الجرم السماويّ يهبط من الأعلى إلى الأسفل، متخلّيًا عن كلّ جلاله وزينته – تمامًا كما تفعل "عشتار"، عندما تنزل إلى العالم السفليّ في الاحتفال (وسنتكلم على هذا لاحقًا) – فيغيب في اليوم الأول، ليظهر في اليوم الثالث؛ ولكنّه لا يموت، بل يغادر سماءه سيّدًا، ليعود إليها سيّدًا، كما يلبث في العالم الأسفل سيّدًا. و"عشتار"، كـ"إينانا" السومريّة، كانت بدورها سيّدة السموات والعالم الأعلى، كما كانت سيّدة العالم الأسفل، في خلال وجودها فيه. وهي لا تهبط إلى ذاك العالم لتموت، بل لتمارس دورها الإلهيّ فيه. أما "أريشكيجال" أختها، فالوجه الآخر المعتم للقمر. فهي "إينانا"، أو "عشتار" في العالم الأعلى، عندما يظهر القمر، وهي "أريشكيجال" في العالم الأسفل، عندما يغيب القمر[٣].

وقد سمّى البابليّون كوكبَ "الزهرة" "عشتار"، وربطوه بها (نجمة الصباح)، لأنّه نجمة تظهر لهم في الصباح، وهو يمثّل البداية، والبداية ترتبط بأوّل الحياة، فالزهرة تمثل بنفسها هذه البداية، ومن هنا ربطها بـ"عشتار".

---

١ – L. W. King, **Babylonian religion and mythology**, p. 24

٢ – Ibid, p. 200 - 201

٣ – فراس السواح، لغز عشتار، ص ٦٤

ولـمّا كانت "عشتار" إلهة الخصب، فقد كانت تمثّل الخصب في كلّ من الطبيعة والإنسان، لا في الطبيعة وحدها. وفي بابل (وفينيقية أيضًا، كما سنرى في مكان لاحق) كانت بكارة المرأة ملكًا لـ"عشتار"، لا لزوجها، لأنّها كان عليها أن تمارس الجنس المقدّس في المعبد، تحت رعاية الآلهة، قبل أن تتزوّج؛ وكان على بعض النساء أن ينتظرن هناك سنوات[1]. وكانت "عشتار" وحدَها، في أوّل الأمر، الأمومة الدائمة التي تحتوي على المبادئ الأولى كلّها؛ وما لبثت أن أوجَدَت وأعطَتْ، فانتقلت منها الأمومة إلى كلّ الموجودات، وانبثقت الحياة، وتغذّت بها، لأنّها إلهة الطبيعة كلّها، البكرَ والمنظّمَة، وإلهة الزرع والحصاد[2].

وكثيرًا ما ارتبطت صورة هذه الإلهة بالشجرة، حتّى في ولادة "دموزي" ("تموز")، فهذا قد وُلد من جذع شجرة، وانبعث منها؛ لذلك رتبطت بها صفة الخضرة، فدُعيَت "السيّدة الخضراء"[3]. وقد وصفها البابليّون أحيانًا مغطّاةَ الجسد بحراشفِ أفعى، لأنّ الأفعى يتجدّد جلدها كما تتجدّد الدورة القمرية الشهريّة؛ وكانت تلبس على رأسها تاجًا له شكل حيّة ذات رأسين[4]، ويحتشد حولها الحيوان (وحول "إينانا" مثلها)، على اختلاف أنواعه[5]. كما أنّها سيّدة الشتاء[6]، ورمزها الحيّة[7].

إضافة إلى هذا، كانت "عشتار" البغيّ المقدسة الأولى، لأنّها مركز الطاقة

١ – James Frazer, **The golden bough**, project Gutenberg (e- book), p.288 – 289
كان النظام الآموري يقضي بأن تبقى كل فتاة تريد أن تتزوج، قبل زواجها، سبعة أيام أمام باب المعبد من أجل البغاء المقدس. (Ibid, p. 289).

٢ – فراس السواح، لغز عشتار، ص ٤٣ – ٤٤
٣ – المرجع نفسه، ص ١٢٤
٤ – المرجع نفسه، ص ١٣٦ – ١٣٧
٥ – المرجع نفسه، ص ١٤٦
٦ – المرجع نفسه، ص ١٥٢
٧ – المرجع نفسه، ص ١٥٣

الجنسيّة – لما لهذه الطاقة من قوة في خلق الحياة –، إنّها رمز إلى الدافع الجنسيّ الذي يحرّك الكون[1]. وفي الواقع كان في معابدها كاهنات مكرسات، على الدوام، لإبقاء جذوة الجنس متّقدة، لا يخبو أوارها، ومثلها شعلة النار في تلك المعابد التي كانت لا تنطفئ[2].

وعلى الرغم من أن البابليّين اعتبروا "مردوخ" إله الخصب، ورمزوا إليه بالمِعْزقة[3]، وربطوه بحركة الشمس، فأقاموا احتفالات لغيابه وظهوره، فقد كانت "عشتار" أكثر منه أهمية في هذا المجال. وارتبط اسمها بـ"دموزي". وكان هذا الإله أقلّ مكانة من سواه، فهو يأتي مع آلهة المرتبة الثانية. ونظر البابليّون إليه على أنّه إله الحصاد. وهو إله المواشي والرعاة، وابن "عشتار" وزوجها في آن. ولأنّ هذه أمّه وزوجته، نزلت إلى العالم السفليّ باحثة له عن إكسير الخلود لتعيده إلى الحياة، وتعود به إلى العالم. هذه الرحلة هي مفتاح احتفالات الأسرار القديمة.

كان "دموزي" يموت في وسط الصيف، بناءً على ما جاء في الأسطورة، وتُقام له الاحتفالات السنويّة في مستهلّ الربيع، في أوّل الاعتدال الربيعيّ. وفي هذا الاحتفال كانت "عشتار"، ابنة القمر، تنزل إلى مملكة الموتى، حيث الإله "نرغال"، وتطلب أن "يُفتح" لها الباب، وإلا حطّمت عضادات الأبواب، وحرّكت آلات الموت، وأقامت الأموات التي تفترس الأحياء؛ فيرجوها حرس باب مملكة الظلام أن تنتظر، ليحصلوا لها على إذن بالدخول كسواها ممّن يدخل مملكة الموتى. وهكذا تعبر "عشتار" الأبوابَ السبعة التي توصِل إلى عمق العالم السفليّ.

١ – المرجع نفسه، ص ١٨٣
٢ – المرجع نفسه، ص ١٩٣
٣ – جورج كونتنو، المدنيات القديمة في الشرق الأدنى، ص ٣٥

وعند البوّابة الأولى يُنزَع التاج عن رأسها؛ وعند الثانية تُنزَع الأقراط من أذنيها؛ وعند الثالثة يُسحب منها عقدها؛ وعند الرابعة تُؤخَذ عن صدرها جميع الحليّ؛ وعند الخامسة يؤخَذ من وركها تعويذة الولادة التي تشدّه بها؛ وعند السادسة تؤخذ الأساور من معصميها وقدميها؛ وعند السابعة يُزاح عن جسدها الثوب. وتحتجّ "عشتار" على كلّ شيء يؤخَذ منها عند كلّ بوّابة، ولكنّ الحارس يخبرها بأنّ هذه التجربة لا بدّ من أن يمرّ بها كلّ من يدخل مملكة الموتى[1]. وعند دخولها، تغضب "أريشكيجال" زوجة "نرغال"، فتلقي على "عشتار" كلّ أنواع الأمراض، وتحتجزها في العالم السفليّ[2].

وبما أنّ "عشتار" تمثّل روح الخصب، فإنّ احتجازها يمنع نضوج الثمار، ونموّ الحياة على الأرض. وعندما ترى الآلهة أنّ احتجاز "عشتار" يضرب تنظيم الطبيعة، ترسل إلى العالم السفليّ رسولاً لإطلاقها، لهذا تُضطَر "أريشكيجال" إلى الإذعان، وتُغتَسل "عشتار" بمياه الحياة، فتشفى من الأمراض التي أنزلتها بها ملكة العالم السفليّ، وتعود أدراجها عبر البوابات السبع[3]، مستعيدة من الحرس ما أخذوه منها.

وتمثّل قصّة "عشتار" هذه رحلة الروح عبر العوالم السبعة، أو الكواكب السبعة، حتّى تتقمّص جسدَ الإنسان، وقد حُرِمَت زينتها السماويّة. أمّا العالم السفلي، فيمثّل الجسدَ الإنسانيّ الذي تخبّئ قرينته (زوجة الإله، وهي طبيعة هذا الجسد) كلّ أنواع الآثام والعلل خلفَ الوعي المحبوس. أمّا ماء الحياة الذي تُعطاه "عشتار" لتبرأ من العلل في العالم السفليّ، فيرمز إلى المعارف السريّة والإسراريّة التي تخلّص الإنسان من أمراضه (النواقص الأرضيّة والماديّة)، فتُكسبه المعرفةَ التي يرى بها حقيقةَ الأشياء. أمّا عودة "عشتار" من العالم السفليّ، فترمز إلى عودة الروح التي تتصاعد مجدّدًا بعد الموت، لتستعيد زينتها الإلهية

١ – Manly P. Hall, **The secret teaching of all ages**, p. 86. وقارن: فراس السواح، <u>لغز عشتار</u>، ص ٦٩
٢ – Ibid, p. 86 - 87
٣ – James Frazer, **The golden bough**, p. 284

(وهي الفضائل التي تميّزها)، عابرة دورات الكواكب[1]؛ وهذا بدوره يرمز إلى دورات التقمّص التي تمرّ بها الروح عبر دوائر التجسّد، مرّة بعد مرة.

٧ - **خاتمة:** بعد هذا، نرى أن الميثولوجيا السومريّة والبابليّة كانت تقوم على قراءة عناصر الطبيعة خصوصًا، وطبيعة الإنسان عمومًا (الجسد - الروح)، في ترميزات إلهيّة، تمثّل كلّ واحدة منها قوة من القوى المذكورة في الطبيعة، أو الإنسان. والإسراريّة العشتاريّة التي عرضنا لها هي أبرز إسراريّات ما بين النهرين التي عُرِفت كأسرار، وفيها، كما ظهر لنا، حركة الروح من فوق إلى تحت، وحركة الحياة والموت. فـ"عشتار" رمز مزدوج، يتّسع عند قراءته، ليشمل كلاً من الطبيعة المتجددة، مرّةً بعد مرّة، في خلال الفصول، والروحَ الإنسانيّة التي تموت، ثمّ تعود إلى الحياة، في دوائر حياتية خاصّة، تمثّل أعمار الإنسان.

وبعد، كيف كانت الميثولوجيا والرموز عند الحضارة التي جاورت ما بين النهرين، نعني الحضارة الكنعانيّة ؟ وهل كانت لهم أسرار أيضًا ؟ هذا هو الموضوع الذي سيتناوله الفصل اللاحق.

١ - Manly P. Hall, **The secret teaching of all ages**, p. 87

الفصل السابع

الميثولوجيا الكنعانيّة والفينيقيّة وأسرارها

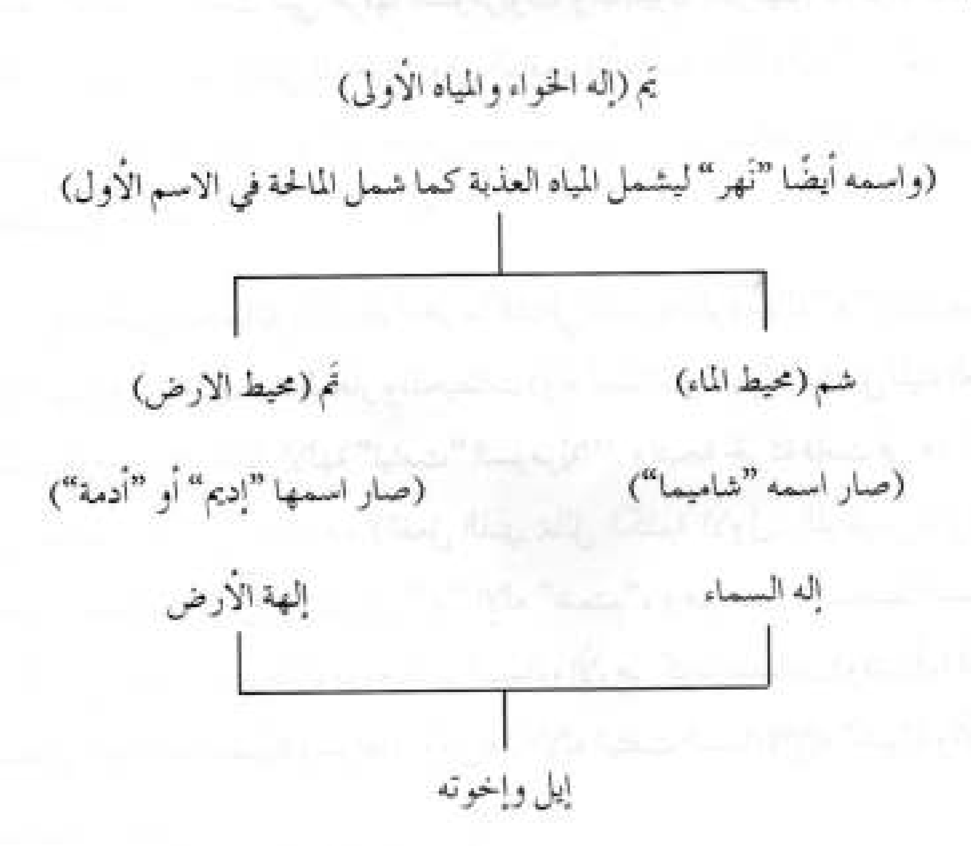
١ – مقدمة: لا شكّ في أنّ الحضارة الكنعانية والفينيقيّة قد تركت أثرها في الحضارات المجاورة لها، ولا سيّما في الحضارة اليونانية، لأنّ الفينيقيّين كانت لهم علاقات تجارية مهمّة بالشعوب القريبة، ولا سيّما اليونان. كما أنّ هذه الحضارة الكنعانية قد تأثرت، بدورها، بالحضارات الأخرى المجاورة لها، وخصوصًا حضارات سومر، وبابل، ومصر. وكان لكلّ هذا تأثير واضح في سلسلة الآلهة الكنعانيّة، ونظامها، وفي مفهوم الكون.

٢ – الآلهة الكنعانيّة ورموز الطبيعة: لا يمكننا ألاّ نلاحظ التقارب الكبير بين نظرية النشوء الكنعانيّة، وتلك التي عرفها السومريّون، والبابليّون جيرانهم. فالخواء كان سيّد الكون، ومثله الأصل المائيّ للوجود. وفي الواقع، فإنّ الديانة الكنعانيّة التي تعتبر ساميّة ليست كذلك، بمقدار ما أنّها "مزيج من مصر حتى آشور، مع ما أضاف الكنعانيّون من شخصيّتهم الخلاّقة[١]."

وقد تصوّر الكنعانيّون أنّ الخواء هو ما كان في البدء، ومثّلوه بالإله "يَم" الذي يعبّر عن المياه الهيوليّة، وكذلك مياه البحار والمحيطات (وله أيضًا اسم "نهر"، ليشمل المياه العذبة، والمياه المالحة)، وهو يماثل الإلهة "تيامت" السومريّة[٢]. ونتيجة لحركة قامت في هذا الإله، هي حركة الريح التي هبّت فيه (الفعل الذي يماثل الكلمة الأولى: اللوغوس)، والهواء اللذين اجتمعا للتكوين[٣] انبثق من "يَم" الإله "شمتم"، وهو صورة للمحيط السماويّ – الأرضيّ الذي كان واحدًا، ما معناه أنّ السماء والأرض كانتا متّصلتين (وقد رأينا الفكرة عينها في الميثولوجيا المصريّة وسواها). ومن هذا الإله انبثقت السماء (الإله "شم") والأرض

١ – بولس طوق، النار والنور في الفكر العالمي، ص ٦٤
٢ – خزعل الماجدي، المعتقدات الكنعانية، عمان: دار الشروق، ط١، ٢٠٠١، ص ٦٤
٣ – المرجع نفسه، ص ٩١

(الإلهة "تم")، ونلاحظ أنّ اسم الإله الأول هو مجموع اسمي الإلهين المنبثقين منه، ما يعني أنّ الإله نفسه قد ازدوج بعد أن كان واحدًا، فصار طرفين متناقضين في الطبيعة (السماء والأرض)، ولكنّهما متكاملان في الجوهر، وهذا هو معنى أنّ الإله "شمتم" كان واحدًا قبل أن ينقسم. فكلّ شيء في الكون كان واحدًا في الأساس. ويبدو أنّ اسميهما صار فيما بعد "شاميما" و"إديم" (أو "أدمة")[1]. وازدواج الإلهين المذكورين نلمحه عند آفاق البحر المترامية، حين تتّحد مياه البحر بحدود السماء، في خطّ واحد متّصل، يكاد أن يكون على شكل دائرة كونيّة، إذا كنّا في وسط البحر[2]. ومن هذين الإلهين، وُلد "إيل" الذي صار إلهًا لكلّ الآلهة الكنعانية الأخرى لاحقًا، وكذلك وُلد إخوته أيضًا. والجدول الآتي يوضح هذا:



---

١ - خزعل الماجدي، الآلهة الكنعانية، عمان: دار أزمنة، ط١، ١٩٩٩، ص ٢٩

٢ - خزعل الماجدي، المعتقدات الكنعانية، ص ٦٥

فطبقة الآلهة الكونيّة (الآلهة الآباء، والإلهات الأمات) نتاج تزاوج إلهي بين السماء والأرض ("شاميما" و"إديم" (أو "أدمة")، وهي تمثّل عناصر الطبيعة الأربعة: الماء، والهواء، والتراب، والنار[1].

وبين مستويي الأرض والسماء، بين هذين المحيطين، تقع الآلهة الآتية:

١ – آلهة الهواء والنار: نسل الإله "عَوَص" ("أوسوس") إله النار، وهو أخو "شميما" إله السماء، ومنه ظهر "ملقارت" أيضًا الذي يتّحد به، وهو، بدوره، إله النار. ويبدو أنّ الأساطير الهلنستيّة – الكنعانيّة دمجت "ملقارت" و"عوص" في إله واحد؛ وباسمه غزا أهالي صور مدنَ البحر المتوسّط، على امتدادها، وأسّسوا فيها ممالكهم، وحملوه معهم إليها[2].

٢ – آلهة الماء المولودة من تزاوج الأرض والسماء، وهي ضربان: ذكور وإناث:

٢ – أ – الآلهة الذكور: "إيل" (الإله الأب – المطر)، و"بيتيل" (وهو يرمز إلى مكان "إيل" في المياه = بيت إيل)، و"عتل" ("أطلس"، إله البحر والملاحة)، و"عاي" ("إيا"،

---

١ – المرجع نفسه، ص ٦٦

٢ – المرجع نفسه، ص ١٠٥. "ملقارت هو إله مدينة "صور" ومؤسّس "قرطاجة". وهو ابن الإله "دماروس"؛ و"دماروس" بدوره ابن إله السماء "أطختون" الذي ضاجع أحدى محظياته. وكان يُرمز إلى "ملقارت" بالأسد وبالنسر. وفي جوانب من قصته، يشبه قصة "أدونيس"، لأنّه يموت وينبعث من الموت، فقد كانوا يحتفلون بانبعاثه في شهر كانون الثاني، فيحرقون تمثالاً كبيرًا له. وكانوا يحرقون إنسانًا أو كاهنًا، ثم عدلوا عن هذا، فيما بعد، ليحرقوا تمثالاً. وكانوا يقومون بحركات تمثيليّة ترمز إلى انبعاث الإله. ومفاد هذا الاحتفال أنّ "ملقارت" رحل إلى ليبية، ولكنّ "طيفون" الشيطان صرعه، فأقامه "إيولانس" من الموت. (خزعل الماجدي، **الآلهة الكنعانية**، ص ٩٧). وقد زعم بعض الباحثين أنّ "ملقارت" هذا كان يحمل في "صور" هذا الاسم، وكان يدعى "عليان" في "أوغاريت"، و"أشمون" في "صيدا"، و"أدونيس" في "بيبلوس". (جان مازيل، **تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية**، تعريب: ربا الخش، اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٨، ص ٣٣، ٣٤)، غير أنّ هذا لا يبدو مصيبًا، لأنّ "أدونيس"، كما سنرى، لا يقترن بصفاته والنار، كما هي الحال مع "ملقارت"، والاحتفالات التي كانوا يقومون بها من أجله مختلفة، في دلالاتها وجوهرها، عن تلك التي كانت تقام لـ"ملقارت".

إله المياه البابلي)، و"داجون" (إله الحبوب والمطر والسمك والطقس)، و"سيتون" (إله الصيد على أنواعه).

٢ – ب – الإلهات الإناث، وهنّ يعكسن التراب خصوصًا: "عشيرة"، و"عشتارة" ("عشترت"/ "عشتروت")، و"ريّا"، و"بعلتيس"، و"أنوبرت".

أما الإنسان فقد اعتبروه من أنصاف الآلهة[١].

وعدّوا "إيل" أبا البشريّة والآلهة، وإله السماء. وهو يبدو، في مجتمع آلهة "أوغاريت"، أعلى الآلهة، وخالقها، وخالقَ الكون؛ مسكنه عند منبع النهرين – من غير أن يُعرَف أيّ النهرين هما –[٢]؛ وبيت "إيل" عند نبع "أفقا"، حيث ينبع نهر "أدونيس". كما يسكن عند بحيرة "اليمّونة"، في الطرف الثاني من الجبل[٣]. وقد اختار الكنعانيّون والفينيقيّون مكان آلهتهم على الأماكن المرتفعة، في جبل لبنان خصوصًا، لأنّ هذا يمثّل عظمتها، كما تمثّل روائح هذا الجبل العطرة عطورَ الآلهة[٤].

وبما أنّ "إيل" كان يرتبط بالمياه، ومقرّه بالقرب من تجمّعاتها، أو منابعها، فهو في الأساس إله مائيّ. من هنا جاءت صفاته الأولى مائيّة، لأنّ "شاميما"، إله المحيطين الأرضيّ والسماويّ، لم تكن له أهميّة كبيرة في الميثولوجيا الكنعانيّة كتلك التي كانت للإله "إيل". فإخوة هذا الإله، بدورهم، آلهة مائية: "أطل" ("أطلس")، و"داجون" (إله

---

١ – خزعل الماجدي، **المعتقدات الكنعانية**، ص ٦٨ – ٦٩

٢ – قد يكون ذكر النهرين هنا بفعل تأثّر الميثولوجيا الكنعانيّة بميثولوجيا ما بين النهرين، فيكون النهران، في الأساس، نهري "دجلة والفرات"، أبقى الكنعانيون عليهما نهرين، ولكنّ مكانهما اختلف عندهم، والأرجح أنهما نهرا "أفقا"، و"أدونيس" (نهر "إبراهيم" اليوم).

٣ – خزعل الماجدي، الآلهة الكنعانية، ص ٤٥

٤ – Clovis Karam, **La symbolique des archétypes dans la mythologie phénicienne**, Lyon, 1984, p.5

الحبوب والأسماك)، و"بيتيل" (بيت إيل) الذي يكون عند تجمّع المياه[1]. بهذا نصل إلى ثالوث للآلهة المائيّة يرتبط بـ"إيل" هو: "أطل"، و"داجون"، و"بيتيل"، ولكنّه مرتبط أيضًا بالأرض، لأنّ الحبوب، والبيت، والمطر مرتبطة كذلك بالتراب.

و"إيل" هو إله المطر. ولأنّ المطر يتساقط من السماء، اعتُبر هذا الإله ابن "شاميما" إله السماء. وهو أبو آبائه أيضًا، لأنّ المطر هو أصل مياه المحيطات والأنهار.

يقابل هذا الثالوث المائيّ الذكريّ ثالوث أنثويّ، مرتبط بالماء والخصب (الأرض - الماء)، يتشكّل من الإلهات المهمّات، وهنّ: "إيلات" الإلهة الأمّ (و"عشيرة")، و"عشتارة" (و"عشتروت") إلهة الحبّ والجمال، و"بعلتيس" إلهة الخصب. وبهذين الثالوثين، نفهم أن جيل "إيل" كلّه مرتبط بالماء في أساسه، على الرغم من ارتباطه بالأرض.

و"عشيرة" في "أوغاريت" هي الإلهة الأم الكبرى، وجذر اسمها مرتبط بالسُرى، أي المشي في الليل، ما يدلّ على أنّها ترتبط بدورات الكواكب التي كانوا بها يؤرّخون السنوات والزمن والفصول. وقد وُصفت بأنّها تسير على الماء، فهي بذلك إلهة مائيّة، اسم خادمها "قدش عمر"، أي صياد الماء[2]. ودعوها أيضًا "إيلات". أما الفرق بين "عشيرة" (و"إيلات") و"عشتارة" ففي أنّ الأولى هي الإلهة الأمّ وإلهة الخصب بامتياز، في حين أنّ الثانية هي الإلهة العذراء، وإلهة الحبّ والجمال.

ونستنتج من هذا كلّه أنّ الآلهة الذكور الثالوثيّة "أطل" ("أطلس") و"داجون"، و"بيتيل"، أشكال متعددة للإله "أيل" نفسه؛ فـ"إيل" إله السماء والمطر، و"أطل" إله الندى والملاحة، و"داجون" إله المياه والسمك، و"بيتيل" إله المكان الذي يسكنه "إيل". وكلّهم يرتبطون بالماء والمطر، وهم أشكال مختلفة له. ومثل هذا الآلهة المؤنثة الثالوثية "إيلات" (أو

---

١ - خزعل الماجدي، **الآلهة الكنعانية**، ص ٤٩

٢ - المرجع نفسه، ص ٥٥

"عشيرة")، و"عشتارة" ("عشتروت")، و"بعلتيس"، هنّ أشكال مختلفة للإلهة "إيلات" نفسها، لأنّ "إيلات" ("عشيرة") الإلهة الأمّ، وهي مرتبطة مباشرة بالخصب، والجمال، والتكاثر، وفيها هذه الميزات كلّها لأنّها هي الأمّ، و"عشتارة" ("عشتروت") إلهة الحب والجمال، في حين أنّ "بعلتيس" إلهة الخصب، وكلّها قوّى طبيعيّة متفرّعة من الأولى، ومنبثقة من فكرة الأمومة التي تلد الأشياء. وهذه الإلهات، بالإضافة إلى الإلهة "ريّا"، كلّهنّ يجامعنّ "إيل" لإنجاب السلالات الإلهيّة[1]. وكانت "عشتارة" ("عشتروت") ترتبط أيضًا بكوكب الزهرة، لأنّ هذا الكوكب ومرآه على علاقة بحال الزرع، وبالمواسم. وأصل هذه الإلهة سومريّ، لأنّها اسم آخر للإلهة "إينانا" التي سبق ذكرها في الفصل السابق. غير أنّ لـ"عشتروت" ("عشتارة")، في الميثولوجيا الكنعانيّة، دورًا ثانويًا، إذا قيس بدور "إينانا" في الميثولوجيا السومريّة، أو بدور "عشتار" في الميثولوجيا البابليّة، على الرغم من ارتباطها بالحب والجمال، وبالحرب والسلطة من جهة أخرى، لأنّ الطرف الثاني هو الطرف المظلم للأوّل، فيكون في الإلهة المذكورة الطرفان المتناقضان معًا.

وتنجب "عشتارة" ("عشتروت") هذه، مثل "ريّا"، من "إيل"، عددًا من الآلهة والإلهات؛ فـ"ريّا" تلد منه أطفالاً سبعة (يلاحظ هنا تكرار الرقم ٧ في الأعداد)، من بينهم الإله "موت"[2] الذي يصارع الإله "بعل" أخيه لاحقًا. بهذا يصبح كلّ من "إيل" و"ريّا" صورة ثانية للإله "شم" و"تم" إلهي السماء والأرض، في الجيل الإلهيّ القديم. بالإضافة إلى هذا، تبدو "ريّا"، من خلال القصص المرويّة عنها، هي الإلهة الأمّ، أكثر من الإلهة "عشيرة" (أو "إيلات")[3].

---

١ - المرجع نفسه، ص ٦٠

٢ - هو إله الموت، ونقيض "بعل" لأنّه يمثل العقم واليباب، والقحط والفناء. ومكانه "أرض الحمرات"، وحلقه بحمرة تريد ابتلاع "بعل" (المرجع نفسه، ص ٩٩)

٣ - المرجع نفسه، ص ٦٩

ويلد "إيل" ابنه الإله "بعل" الذي يصير بطل الآلهة، بعد أن يقتل "يم"، تمامًا كما حدث لـ"إنليل" في الميثولوجيا السومريّة، ولـ"مردوخ" في الميثولوجيا البابليّة[1]. وتتشكّل صفات هذا الإله من الطبيعة. أما زوجته، فهي "عناة". ويشبه كلّ إخوة "بعل" و"عناة" أخويهما في كلّ الصفات، ففيهم جميعًا صفات الخصب والقوة.

وكان "بعل" في صراع مستمر مع والده "إيل". ثمّ جاء انتصار "بعل" التدريجيّ "على مقدرات الكون، ليحلّ محلّ أبيه؛ وتحوّلت المدن والأماكن كلّها لصالح "بعل"... بل ارتدّ هذا إلى الآلهة القديمة."[2]

والإله "بعل" هو الظهور الأرضيّ لأبيه "إيل". فهو إله البرق والرعد. وقد قام صراع بين "يم" و"بعل" انتهى بموت الأوّل، كما ذكرنا. لهذا بنى "إيل" لابنه بيتًا، بعد أن ذبح له الثور – والثور يرمز إلى القوّة، والقوّة الجنسيّة المرتبطة بالخصب أيضًا –، ثم يتزوّج من "عناة"، ويرتفع صوته مدويًا، معلنًا أنّه لن يدفع بعدَ الآن الجزية لإله العالم السفليّ "موت". وينزل إلى العالم السفليّ، مصطحبًا معه سبعة من غلمانه، وثمانية خنازير، وثلاث زوجات، وذلك بعد أن يضاجع زوجته "عناة" سبعًا وسبعين مرة وينجب ولدًا. ويقتل "موت" "بعل"، ولكنّ زوجته تعثر على جثته، وتدفنها في "صافون". ثم تنزل بدورها إلى العالم السفليّ، وتطلب من "موت" أن يعيد الحياة إلى "بعل"، فيرفض مرةً بعد مرة، لذلك تقتله، وتقطّعه، وتصفّي دمه، وتحرق لحمه، وتطحن عظمه، وترميه فوق الحقول طعامًا للطير الجارحة، فينبعث "بعل" من الموت. غير أنّ "موت" يعود إلى الحياة، بعد سبع سنوات، ويبدأ الصراع مجدّدًا مع "بعل".

---

١ – ذكرنا أن اسم "مردوخ" كان أيضًا "بيل"، وهو نفسه اسم "بعل" هنا.
٢ – خزعل الماجدي، <u>المعتقدات الكنعانية</u>، ص ٧١

وهذا كلّه ترميز للفلك والطبيعة والفصول. فالغلمان السبعة الذين يصطحبهم معه "بعل" إلى العالم السفلي يرمزون إلى الأعوام السبعة التي يليها عام قحط كان الكنعانيون يعرفونه بعدها، فتشحّ الأمطار، وتنحبس، وتتضاءل مياه البحيرات والأنهار؛ والخنازير الثمانية هي الكواكب الثمانية التي يقرأون بها الفلك؛ والزوجات الثلاث ترمز إلى الثالوث والفكر الثالوثيّ الذي رأينا في الميثولوجيا الكنعانية.

وكذلك الأمر حين تنزل "عناة" إلى العالم السفليّ، وترجو "موت" أن يعيد الحياة إلى زوجها، فيأبى، لأنّ الخصب، في العام المذكور، بعد الأعوام السبعة الخصبة، ينحبس؛ ثم تقتل "عناة" إله الموت، وتعيد الحياة إلى زوجها، ما يرمز إلى أنّ الخصب يعود إلى الطبيعة بعد مرور هذا العام الماحل. وعودة "موت" إلى الحياة بعد سبع سنوات يرمز إلى عودة الجفاف ليضرب الأرض مجدّدًا، وذلك في حركة فصليّة وكوكبيّة مستمرّة. وما اجتماع "بعل" بـ"عناة"، في هذه المرحلة، إلا للتأكيد على أنّ قوى الخصب تشترك فيها قوى الذكورة والأنوثة معًا، فهو خصب في الطبيعة، وفي مملكتي الحيوان والإنسان أيضًا.

من جهة أخرى، تنقل قصص كنعانيّة قتال "بعل" مع التنين "لوثان"، والأفعى "شليط"، سبعَ سنوات، في إشارة إلى الحركة الطبيعيّة عينها، وهي قصّة موازية لقصة موت "بعل" وانبعاثه مع زوجته، لأنّ كلاً من التنين والأفعى المذكورين هما من سكّان العالم السفليّ.

وفي هذا الصدد، يشير "فرايزر" إلى أن الناس، في منطقة شرقِ المتوسّط، كانوا يمثّلون موت الطبيعة وحياتها، وحدثي الموت والحياة، من خلال الآلهة "أوزيريس"، و"تمّوز" ("دموزي")، و"أدونيس" ("أدون")، و"أتيس"، وخصوصًا الحياةَ النباتيّة التي نقلوها في شكل إله يموت وينبعث كلّ سنة (وهنا أيضًا كلّ سبع سنوات).

وكانت هذه الاحتفالات تختلف أشكالها وأسماؤها، من مكان إلى آخر، غير أنّ جوهرها واحد[1].

ولا بدّ من أن نشير إلى أنّ اسم "عناة" مشتقّ من الإلهة "إنانا" السومريّة. وهي وريثة "عشيرة" أمّها. وهي العذراء البتول دائمًا، حتى بعد الإنجاب. وهي أيضًا الأرملة "لموت "بعل"، والرحوم[2].

٣ – "أدونيس" واحتفالاته: كانت عبادة "أدوني" تمارسها شعوب بابل وسورية الطبيعية (الهلال الخصيب)، وقد أخذها الإغريق عنهم ألفًا وسبعمئة عام تقريبًا قبلَ الميلاد[3]. وتعني كلمة "أدون" السيّد. وقصّته منقولة عن تحولات "أوفيد". ومع ظهور الفينيقيّين، وانتشار مدنهم، بدأت أسطورة "بعل" تتراجع، لتحلّ محلّها أسطورة "أدوني" وحبيبته "عشتروت"[4].

وتقول الأسطورة إنّ الإلهة "فينوس" (إلهة الجمال)، لعنت "ميرا"، فجعلتها تُغرم بوالدها. نتيجة لهذا، احتالت مع مربّيتها عليه، فضاجعته مرارًا، من غير أن يعرف. وعندما اكتشف الأمر، أراد أن يقتلها، فهربت منه، وطلبت من الآلهة المساعدة، فحوّلوها إلى شجرة مرّ. وعندما حانت ساعة ولادتها، خرج الوليد من جذعها، فالتقطته الحوريّات، وغسلنه، وكان رائع الجمال؛ وقيل إنّ خنزيرًا بريًّا ساعد في خروج الوليد، بعد أن نزع بنابه قشرة الشجرة[5]. وكانت "فينوس" تراقب ولادة الطفل، فتعلّق قلبُها به، وأرادت أن

١ – James Frazer, **The golden bough**, p. 284
٢ – خزعل الماجدي، **الآلهة الكنعانية**، ص ٨٣
٣ – Op. cit. p. 284
٤ – خزعل الماجدي، **المعتقدات الكنعانية**، ص ١٥٩ – ١٦٠
٥ – Manly P. Hall, **The secret teaching of all ages**, p. 8. وهذا مشابه لتسليم "إنانا" حبيبها "دموزي".

تخفيه عن مَرْأى الناس، فوضعته في صندوق، وحملته إلى أختها "برسيفونة" سيّدة العالم السفليّ لتعتني به. وعندما شبّ، تعلّقت "برسيفونة" به، فتخاصمت الأختان عليه. فأمر "جوبيتر" أن ينقسم عام "أدونيس" ثلاثة أقسام: الأوّل يمضيه مع "فينوس" (٤ أشهر)، والثاني مع "برسفونة" (٤ أشهر)، والثالث (٤ أشهر) يختار هو مكان إمضائه، فاختار أن يمضيه في العالم.

وكانت هواية "أدونيس" الصيد، وكانت "فينوس" تراقبه من غير أن يكترث لها. وتمكّنت، في النهاية، من أن تشدّه إلى حبّ شهوانيّ جسديّ معها. وفيما كان يصطاد، جرحه خنزير بريّ في فخذه، قرب خصيتيه. فنزلت إليه في "بيبلوس"، وتحوّلت دماؤه إلى شقائق نعمان[1].

وفي عرض آخر للأسطورة أنّ الإله "أريس"، إله الحرب، غار من حب "عشتروت" ("فينوس") لـ"أدونيس"، فتقمّص هو شكل خنزير بريّ، وقتله في منطقة "أفقا"، وسال دمه ممتزجًا بنبع نهر "أدونيس" (نهر "إبراهيم" اليوم). وحزنت عليه "عشتروت" ("فينوس")، وبكت وناحت، ثمّ نزلت إلى العالم السفليّ لتنقذه. فعقدت مع "برسيفونة" اتفاقًا على أن يقيم معها في مملكة الأرض ستّة أشهر، ثم يقيم الستّة الأشهر الأخرى مع "برسيفونة"، في مملكة الموت[2]. ويبدو أنّ القصة الثانية أقرب إلى المفاهيم الفينيقيّة، وأكثر تلاؤمًا مع الاحتفالات التي كانت تقام له.

للنار". فعشتار هي عينها "إنانا"، والخنزير البري كان رمزًا من رموز "عشتار". ففي القصتين تسلّم إلهة الخصب "دموزي" ("أدونيس") حبيبها للموت. (فراس السواح، **لغز عشتار**، ص ٣٠٢)

١ – Ovide, **Nouvelle traduction des metamorphoses**, tr: M. Fontanelle, A. Lille, MDCCLXVII, T. 2, p. 104 – 126. وقارن: James Frazer, **The golden bough**, p. 286

٢ – خزعل الماجدي، **الآلهة الكنعانية**، ص ٩٠

واحتفالات "أدوني" مهمّة في فينيقية. وكانت تقام، كما ذكرنا، في أوّل الربيع[1]، في الشهر الذي تتحوّل فيه مياه نهر "أدونيس" حمراء، بسبب ذوبان الثلوج، وجرفها الرمال معها نحو البحر، عبر النهر. فقد ظنّ عامة الناس أنّ هذه دماء الإله الذي قتله الخنزير، وشقائق النعمان هي دمه الذي يتفتّح[2]. وكان موكب الناس يندب وينوح، وسط الحان النايات التي يعزف عليها الرجال والنساء. وكانوا يغسلون تمثال الإله بمياه عذبة مخلوطة بالزيت، ويحيطونه بكساء أحمر، ويرسلون في الهواء روائح الورد، كأنّهم يحرّكون بها حواسّه، لينهض من الموت، ويواكب هذا الأناشيد والأغاني[3]. ويرافق هذا تقديم الفواكه، واحتفالات جنسيّة تقيمها بغايا المعبد[4]. وفي "بيبلوس" كان على الناس، رجالاً ونساءً، أن يحلقوا شعور رؤوسهم. أما النساء اللواتي كنّ لا يرغبن في حلق شعورهنّ، فكان عليهنّ أن يمارسن البغاء المقدّس، ويقدّم المال الذي يجنينه للمعبد[5].

ولا بدّ من أن نذكر هنا أنّ قبرص الفينيقيّة حلّت فيها عبادة "أفروديت" محلّ عبادة "عشتروت"[6]؛ كما نشير إلى أنّ البغاء المقدّس كان منتشرًا بكثرة، ولا سيّما في مدينة "كيثيرا" القبرصيّة، وكذلك على جبل "إريكس"، حيث كانت آلاف البغايا من بغايا المعبد ينتظرن البحارة لممارسة البغاء المقدس[7].

---

١ – يرى "فرايزر" أنّ احتفالات "أدونيس" كانت تقام في الشهر الذي يحمل اسمه، أي في شهر تموز (.Op. cit، p. ٢٨٥)، ويبدو أنّ بعض المناطق كانت تحتفل به في الصيف – وهي المناطق التي يشير إليها "فرايزر" –، وأخرى تحتفل به في الربيع. (فراس السواح، لغز عشتار، ص ٣٠٦)

٢ – جان مازيل، تاريخ الحضارة الكنعانية الفينيقية، ص ٣٤

٣ – James Frazer, **The golden bough**, p. 285

٤ – خزعل الماجدي، الآلهة الكنعانية، ص ٩٠

٥ – Op. cit. p. 289

٦ – جان مازيل، الحضارة الكنعانية الفينيقية، ص ٣٤

٧ – المرجع نفسه، ص ٣٥

٤ – عيد "فَرْك الكروم" (أسطورة إنجاب "إيل" الآلهة): تُدعى الآلهة إلى احتفال يُقام في الهيكل، بحضور ملك المدينة وملكتها، وفي خلاله تُشَذّب الكروم – لذلك يسمى "عيد فَرْك الكروم –، وهو تمثيل للموت والانبعاث، خلاله تتجدّد قوى "إيل" التناسليّة، بعد أن طعن في السنّ؛ وهذا رمز لعودة قوى الخصب والحياة إلى الطبيعة، وإلى عودة الدفء والحرارة إلى الأرض. وفي أثناء الاحتفال، يطبخون جديًا بلبن أمّه، من أجل تكريس "عيد البواكير" (بواكير الثمار، وبواكير الحملان والجديان والحيوانات)، وهو موافق لأوائل الربيع، حين تبدأ الطبيعة بإنضاج أولى الثمار بحرارة الشمس التي تبدأ بالتزايد.

وفي هذا الاحتفال أيضًا، تُعرض فتاتان تمثّلان الإلهتين "عشيرة" ("إيلات")، و"عشتارة" ("عشتروت")، وسط أغانٍ وأناشيد تصدر عن الحفل، ويكون هدفها دَرّ الحليب في هاتين الإلهتين لتُرضعا الآلهة. ويرمز هذا إلى تدفّق القوى الإخصابيّة والحياتيّة في الطبيعة.

ويظهر الإله "إيل"، يمثّله أحد الأشخاص، فترغب فيه الفتاتان اللتان تمثّلان الإلهتين، وتعرضان عليه هذه الرغبة، فيقبل بها؛ ومن خلال العناقات والقبلات الممثَّلة، يولد الإلهان "شهار" (السحَر)، و"شاليم" (الغسق) اللذان يرضعان من ثديي المرأتين. وبأمر الإله "إيل"، يتحوّلان إلى نجمين سماويّين، أحدهما يظهر فجرًا ("شهار")، والآخر يظهر عند أوّل المساء ("شاليم").

ويبدأ هذان الإلهان بتقبيل المرأتين اللتين تمثّلان الإلهتين وبعناقهما، فتلدان نسلاً من الآلهة التي لا تشبع، ويخلق "إيل" القفر (الصحارى)، وتصل هذه الآلهة إلى فلاح، وتطلب منه الطعام والشراب فيحملهما إليها. وهذه الآلهة قاتلة في جوهرها[1].

---

١ – خزعل الماجدي، **الآلهة الكنعانية**، ص ٥١ – ٥٢

ونظنّ أنّ هذا الاحتفال قد انحسر تدريجيًّا مع المرحلة الفينيقيّة التي راجت فيها طقوس "أدونيس" واحتفالاته، وكذلك عبادته، لأنّ احتفالات "أدونيس" تعبّر عن ظهور الخصب في الطبيعة، كما أنّ جيل الآلهة الإيليّة قد انحسر في المرحلة اللاحقة كما ذكرنا.

٥ – إسرارية "أدونيس": تندرج كلّ الأفكار الدينيّة والفلسفيّة القديمة في شقّين أساسيّين: الأوّل رمزيّ، والآخر ميثولوجيّ[1]. وبناء على هذا، فإنّ الإسراريّات القديمة كانت تنسل من هذين المحورين، بحيث تعكس رموزها، وحكايات ميثولوجياتها، نظامَ الكون والوجود بصور رمزيّة تمثيليّة.

وقصّة "أدونيس" ذكرناها قبل قليل. وقيل إنّ ولادته كانت في ٢٤ كانون الأول[2]. كما ذكر العهد العتيق الاحتفالات التي كانت تقام له[3]. ويبدو أنّ هذه الطقوس الأدونيسيّة كان يُحتفَل بها في كهف يُدعى "كهف الولادة" بـ"بيت لحم".

و"أدونيس" إله خُنثويّ، يمثّل قوّة الشمس التي يدمّرها في الشتاء مبدأ البرد المرموز إليه بالخنزير البريّ، وهو من مخاليق الطبيعة. وبعد أشهر في مملكة الموت، ينهض منتصرًا على موته، في الخامس والعشرين من شهر آذار، وسط هتاف أتباعه وكهنته: "لقد قامَ!" وفي هذا المجال نشير إلى أنّ "أدونيس" وُلد من شجرة مرّ، ومنها يُصنع المر الذي تُدهَن به جثث الموتى قبل دفنهم، فالمرّ يرمز إلى الموت[4].

١ – Clovis Karam, **La symbolique des archétypes dans la mythologie phénicienne**, p. 10

٢ – Manly P. Hall, **The secret teaching of all ages**, p. 87

٣ – حزقيال/ ٨: ١٤

٤ – نشير هنا إلى أنّ المجوس قدّموا للمسيح، عند ولادته، من بين الهدايا مرًّا، في إشارة منهم إلى موته الآتي.

وفي احتفالات "أدونيس" الإسراريّة كان طالب الأسرار يمرّ بموت هذا الإله (بشكل رمزيّ)، فيمثّل هذا الموت تمثيلاً. ثمّ يقيمه الكهنة المُسرّون من موته، ليدخل حال الافتداء التي تجعلها الآلام ممكنة. ونشير هنا إلى أنّ كثيرًا من المفكرين كانوا يرون "أدونيس" إلهًا نباتيًا في الأساس، مرتبطًا مباشرة بنضج الثمار، وتفتّح الزهور. من هنا، كان القدماء، في طقوسهم، يزرعون بذورًا في أوعية ملئت بالتراب، ويتركونها لتنبت في خلال الأيام الثمانية القادمة. وعندما تموت هذه البذور، لافتقارها إلى التربة الكافية للنموّ، كانت تُعتبَر رمزًا لموت "أدونيس"، ثمّ تُلقى في البحر مع تمثال الإله[١].

إنّ الرمز الأعمق لإسرارية "أدونيس" هو مسألة الحياة والموت. وفي الواقع تمحورت كلّ أعمال الطبيعة حول هذه المسألة، ومثلها دورات الفلك. و"أدونيس" هو القوّة الحيويّة في الطبيعة، تموت مع موت حرارة الشمس في الفصول، وتنبعث مع عودتها؛ ومثل هذا روحُ الإنسان التي تغرق في الملذّات الطبيعيّة، وتنسى أعماقها وأصولها، فتموت في هذه الملذّات، لأنّها تبتعد عن النور الذي يضيء سبيلها من أجل أن تصل إلى المعرفة السامية. وفي الواقع، فإنّ كلّ الإسراريات تهدف، بشكل أو بآخر، إلى هذه المسألة؛ فالرموز التي تظهر قيمتها في إيصال الإنسان تدريجيًا، مرحلةً بعد مرحلة، إلى هذا النور الذي يشرق من داخله، وينتقل عبره إلى الخارج، فيرى بعين جديدة، كأنّها العين الثالثة التي تنفتح فيه، وتتغلغل في الجواهر التي لا تراها عيناه الأخريان.

إنّ إسراريّة "أدونيس" هي الإسراريّة التي تنقل مشروع انتصار الحياة على الموت، في إطار الصراع الطبيعيّ. وقد حلّ فيها "أدونيس" محلّ "إيل"، ثم محلّ "بعل"، في الطقوس التي كانت مكرّسة لهما، شيئًا فشيئًا.

---

١ – Manly P. Hall, **The secret teaching of all ages**, p. 89

وهنا نشير إلى أنّ مدرسةً لفلسفةِ الدين قد قامت في "فريجيا"، وهي بلدة تقع في الجزء الغربيّ الوسطيّ من "أناتولية" التركيّة اليوم، وقد ركّزت هذه المدرسة على حياة "أتيس" وموته، و"أتيس" هذا إله مشابه لـ"أدونيس" الفينيقيّ؛ وقد اعتبره بعض المفكّرين "أدونيس" نفسه.

وُلد "أتيس"، كما قيل، في التاريخ نفسه الذي ولد فيه "أدونيس"، أي في الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني، منتصفَ الليل. كما مات مثل "أدونيس". وفي رواية أخرى مشهورة أنّه خصى نفسَه تحت شجرة صنوبر، حيث لم يلبث أن مات. ثمّ أخذت أمّه "سيبيلا" جثّته إلى كهف، وبقيت هذه الجثة هناك، من غير أن تُتْلَف أو تتحلّل. ونقل "أتيس" خلوده إلى الشجرة التي مات تحتها، وأخذت أمّه معها الشجرةَ، عندما نقلت الجثّةَ إلى الكهف. وظلّ "أتيس"، ثلاثةَ أيام، في قبره، داخل الكهف؛ ثمّ نهض من موته في صباح ربيعيّ، فانتصر بقيامته على الموت، وهكذا يُصَوَّر بالنسبة إلى كلّ مَن كانوا يُسارّون.(١).

وكانت أسرار طقوس "فريجيان" التي نقلها بعض المؤرّخين تُدعى "أسرار أمّ الآلهة"، وفيها تُقطَع شجرة صنوبر، يضعون في داخلها صورةُ شابّ. وفي احتفال الأسرار، يأكل المُسارّ من حوض خشبيّ، ويشرب من صَنج. وبعد أن يُعمَّد بدم ثور (الثور رمز القوة الذكورية والفحولة الجنسية) يُغذّى بحليب فقط، ويرمَز بهذا إلى طفولته، فهو لا يزال طفلاً في الفلسفة والمسارّة، وقد وُلد حديثًا من كُرَةِ المادّة. وترمز "سيبيلا" الأمّ إلى قوى الكون المُحيِيَة، في حين يرمز "أتيس" إلى الذكاء الروحيّ المعلّق بين عاملي الألوهية والإنسانية/ الحيوانية (ومثله رمز "أدونيس" في الإسراريّة السابقة).

وتعطي "سيبيلا" في هذه الإسراريّة ابنَها "أتيس"، لشدّة محبّتها له، قبعةً نجميّة، ترمز إلى القوى الفلكيّة؛ لكنّ "أتيس (الذي يمثّل الإنسان)، وقد وقع في حبّ حوريّة (ترمز إلى

١ – Loc. Cit.

النزعات والميول المادية التي تشدّ الإنسان إلى أسفل)، يتخلّى عن ألوهيّته، ويخسر قواه الخلاّقة. وهو بهذا يصير رمزًا للضمير الإنسانيّ الطامح إلى استعادة القبّعة النجمية المفقودة، لأنّه يرغب في استعادة قواه الروحية الأساسيّة[1].

٦ – خاتمة: هكذا نجد أن الميثولوجيا الكنعانيّة تصبّ في المسار نفسه الذي تصبّ فيه الميثولوجيات السابقة، كما نجد مسألة الحياة والموت ودورتهما محورًا أساسيًا فيها. لهذا السبب نرى أنّ أصلها جميعًا واحد هو الأصل الأتلانتيكي الذي انتشر في المنطقة، ولا سيّما أن الميثولوجيا الكنعانيّة شبيه جدًّا بأختيها السومرية والبابلية، كما رأينا.

١ – Ibid, p. 90

الفصل الثامن

الميثولوجيا اليونانية والإسراريات

١ – مقدمة: تمثّل الميثولوجيا اليونانيّة قمّة التطور الذي بلغه الفكر الميثيّ وترميزُه. ففي اليونان، تمّ تحديث النظرة إلى الآلهة، وفلسفتُها بطريقة أو بأخرى، لتصير أكثر توسيعًا وتفصيلاً. والإسراريّات التي انتشرت آنذاك تعكس هذا الواقع، كما سنرى من خلال إسراريّة إيلوزيس.

واللافت أنّ الشعر اليوناني قد نقل هذا التحول الميثولوجيّ، بدءًا بـ"هزيود"، ومرورًا بـ"هوميروس"، و"باندار"، و"أريستوفانس"، وغيرهم. ولمّا كانت هذه الميثولوجيا شبيهةً، إلى حدّ كبير، بالميثولوجيّات السابقة عليها، كما سنرى، فإنّ اليونان أسبغوا عليها مسحة فلسفية، جعلتها أكثر تفصيلاً واتساعًا، ما سمح لهم بتفسير الظواهر الكونيّة، والطبيعيّة، والبشريّة، بشكل مُرمَّز أوسع وأدق.

٢ – الميثولوجيا اليونانيّة المحوريّة – جيل الجبابرة:

أ – الجبابرة (أو جيل ما قبل الأولمب): يبدأ كلّ شيء عند اليونان بالسديم الأكبر، وهو مماثل للغَمر الذي عرفناه في الميثولوجيّات السابقة؛ والسديم حال من السلب لا حركة فيه، ولا تكوُّن. غير أنّ هذا السديم الأوّل هو بمنزلة الهيولى الأولى التي تحتوي كلّ شيء. لذلك كان فيه "نيكس" إلهة الليل، وأخوها "إيريب"، وكلاهما يمثّل الظلام. فالسديم حال ظلاميّة، لأنّ الوعي، وهو حال من حالات الخلق والفعل، لم ينبثق فيه. وكان "نيكس" في السماء، و"إيريب" على الأرض. ومن هذا السديم المظلم انبثق كلّ شيء. وكانت "هيا" من هذا السديم تهب الحياة لكلّ ما فوقها وتحتها، فهي القوّة العميقة الأوليّة في الوجود. ومن أغوارها العميقة، ولد "تارتار"، وهو الهوّة السحيقة الغارقة في الظلام؛ وقيل إنّ الأرض "غايا" هي التي ولدت السماء والجبال من نفسها[١].

١ – عماد حاتم، أساطير اليونان، طرابلس الغرب: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٨، ص ٥٣

ثم انفصل "إيريب" و"نيكس" تدريجيًّا، فنزل "إيريب"، وحرّر أخته، فتجوّفت، وصارت كرة تطوف في الفضاء؛ وما لبثت أن انشقّت نصفين، ليخرج منها "إيروس" إله الحبّ. وتحوّل القسم الأوّل قبّة الفضاء، هي الإله الأول "أورانوس"، والقسم الثاني تسطّح وكوّن الأرض، وهو الإلهة "غايا". وعلى هذا، فإن الحبّ هو الذي كان في أصل الخلق، وهو الذي يجمع بين الأرض والسماء، فيؤمّن التماسك في الكون[1].

وفي رواية أخرى أنّ السديم ولد "نيكس"، التي ولدت "أثير" (إلهة النور المشعّ والنار النقية)، والنهارَ الذي أضاء. وبهذه الرواية، يكون التكامل بين المتناقضات المتآلفة في الطبيعة هو أساس الكون (الظلام وما يمثّله، والنور وما يمثّله)، والجامع بين كلّ هذا هو الحبّ، لأنّ الرواية تزعم أنّ الأرض خرجت من السديم، بمساعدة "إيروس"، وبمساعدته أيضًا، ولدت قبّة الفضاء.

ومن الفضاء "أورانوس" وُلِدَتْ ستة أزواج من الجبابرة والجبارات (التيتان): "أوقيانوس"، و"كُويووس"، و"كريوس"، و"هيبريون"، و"جابت"، و"كرونوس"، وهم الجبارون، و"ريا"، و"تيميس"، و"منيموسينة"، و"فوبيبه"، و"تيتيس"، وهؤلاء هنّ الجبارات. وكلّ من الجبابرة قوى تحفظ الطبيعة.

فـ"أوقيانوس" هو المياه التي تنتشر في كلّ مكان. يحيط هذا الجبّار بالأرض كلّها كأنّه نهر هائل، بلا شاطئ؛ وهو يملك كلّ الأنهار الأخرى في الأرض. وكانوا يظنّون أنّ الأرض نفسها تقوم على المياه – وهي الفكرة عينها التي نجدها في الميثولوجيّات الأخرى –. كما كانوا يظنّون أنّ هذه المياه الأوليّة كانت في الغرب، خلف أعمدة "هرقل"، في المحيط الأطلسي. و"أوقيانوس" هو منبع كلّ المياه، وأوّل الجبّارين. وزوجته "تيميس" صغرى

١ – بيار غريمال، الميثولوجيا اليونانية، تعريب: هنري زغيب، بيروت: منشورات عويدات، ط ١، ١٩٨٢، ص ٢٢ – ٢٣

الجبّارات، وتمثّل القوى الأنثويّة للبحر. وبذلك يكون للبحر قوّة متناقضة، مزدوجة: مذكّرة ومؤنّثة، يمثّل صراعُهما وتناقضهما كلُّ ما يحصل فيه من عوامل.

و"هيبيريون" هو إله اللهب الكوكبيّ، له ثلاثة أولاد: "هيليوس" (إله الشمس)، و"سيلينا" (القمر)، و"إيوس" (الفجر). وهذا ثالوث الكواكب الرئيسة التي ترتبط بها حركة الخصب والفصول.

أما "كريوس" فتزوج امرأة من غير الجبّارات. و"كويووس" تزوج "فويبيه" إلهة النور، فأنجب "ليتو" الذي كان أحد أصول ذريّة الأولمب.

وتزوج "جابت" "كليمينييه" بنت "أوقيانوس" و"تيتيس"، فأنجبت أربعة أولاد، هم: "أطلس"، و"مينويتيوس"، و"بروميثيوس" و"أبيميتيوس"؛ وكان الاثنان الأخيران من هؤلاء الأبناء صلة الوصل بين الآلهة والبشر. وقيل إنّ "جابِت" هو الذي خلق الفانين، أي البشر.

أما "تيميس" و"منيموسينة"، فجبّارتان تمثّل الأولى قوّة النظام في الكون والتوازن الدائم، والثانية تمثّل قوّة الفكر والذاكرة. وكلتاهما لم تتزوّجا من الجبابرة، بل كان زواجهما من الأولمبيّين الآلهة[1].

وولدت "غايا" (الأرض) ابنًا، من غير أن يقربها أحد، هو "بونتوس" (موج البحر)، وهبته الخلود (لأنّ موج البحر لا يتوقّف، ولا يزول). ومنه وُلد عدد من الشياطين والعمالقة. وكان أوّل أولاده "نيريه" عجوز البحر الذي تزوّج من "دوريس"، وأنجب النيريديّات (بنات الموج)؛ وهو يعرف جميع النبوءات والأسرار، ولا يبوح بها. وكان ابن "بونتوس" الثاني "توماس" الذي تزوج "إلكترا" ابنة "أوقيانوس" الثانية، فأنجب

١ – المرجع نفسه، ص ٢٣ – ٢٥

بناتٍ هنّ: "إيريس" (قوس قزح) رسولة الآلهة، و"آيلّو"، و"أوسيبيتيه"، و"سيلاينّو" (العتمة)، وكلّهنّ يرتبطن بالعواصف، ومسكنهنّ في البحر الأيوبي. وكان ابن "بونتوس" الثالث "فورسيس" هو الذي تحدّرت منه سلالات الغريّات (نساء البحر العجوزات)، في أقصى الغرب المظلم، وشقيقاتهنّ المسخات الثلاثة: "ستينو"، و"أورياليه"، و"ميدوزا"، ومكانهنّ أقاصي الأرض في العتم. لكنّ "بوزيدون" إله البحر الأولميّ تزوّج "ميدوزا"، من بعدُ، فأنجب "بيغاسوس"، و"إيليه"، وهما حصانان مجنّحان، و"كريزايور" والد "جيرتون" العملاق الثلاثيّ الأجساد، وهذا الأخير هو أبو "إيشيدينا" الأفعى التي تزوّجت "طيفون"، أبشع الوحوش الذي يتحدّر من زواج "غايا" الأرض و"تارتار"، وله مئة رأس. ومن زواج "أيشيدينا" و"طيفون" وُلد "أورثروت" الكلب العملاق، و"سربروس" الكلب ذي الرؤوس الثلاثة، حارس مملكة الجحيم التي أدار شؤونها "هاديس" مع جيل آلهة الأولمب، و"ألخيمير" (وهي أفعى بتسعة رؤوس)، و"إيشيدينا" "أبو الهول"، وأسد نميا[1].

وولد "بونتوس" أيضًا "أوريبيه" التي تزوّجت "كريوس" الجبار، كما أسلفنا، وكانت نجمة خالدة ولدت "أسترايوس" الذي تزوّج "آيوس" (الفجر)، فأنجب العاصفة، ونجمة الصباح (الزُهَرَة)، وباقي الكواكب. وتزوّج "بالاس"، ابن "أوريبيه" الثاني، "ستيكسَ"، فأنجبا قوى هي الحسَد، والانتصار، والعنف، والقوة. أما ابنهم الثالث فتزوج بنت "كويوس" "أستريا"، فأنجبت "هيكات"، وهي إلهة جهنميّة، بثلاثة أشكال[2].

وكان الجبابرة قوّة بدائية، خالية من الروح، فظّة، بطّاشة، بعكس الجبارات؛ وقد جعلوا الفكر قوّة منهنّ.

---

١ – المرجع نفسه، ص ٢٧
٢ – المرجع نفسه، ص ٢٨ – ٣٠

إلى جانب الجبابرة، أنجب جماعُ الأرض والفضاء الصقالبةَ العماليق، ذوي العين الواحدة. وأنجب "كرونوس" الجبّار سلالة آلهة الأولمب، و "كرونوس" هو الزمن الذي يطوي كلّ شيء (الحدَثان)، وهذا معنى اسمه باليونانية[1].

وكان الجبابرة كلّهم يخشون "أورانوس" (الفضاء)، لأنّه يحجب عنهم النور، ويسجنهم داخل الأرض في الأعماق. فأرادت "غايا" (الأرض) أن تحرّرهم، فاتّفقت مع "كرونوس"، أصغر أبنائها، على والده، وسلّمته منجلاً؛ وعندما اقترب "أورانوس" منها ليجامعها، سارع ابنه فبَتَرَ خصيتيه، فسال دمه على الأرض، ووُلد منه عمالقة جدُد: الأرينيّون، والميلياديّون وهم آباء حوريّات الدردار[2]، كما ولدت من هذه الأعضاء الجنسيّة المرميّة في البحر "أفروديت" في الزبد الأبيض[3]. ويرمز قطع "كرونوس" لخصيتي والده تحريرَ منابع الحياة الكونيّة، وفتحَ باب الخصب والحياة في الأرض.

وعقابًا على تآمر "غايا" مع ابنها على والده "أورانوس"، وُلِد جَمْعٌ من الجبابرة المرعبين، الذين عاثوا في الأرض فسادًا: "تانات" (الموت)، و"إيريدا" (الفوضى)، و"أباتا" (الخداع)، و"كير" (الدمار)، و"هيبنوس" (النوم والكوابيس)، و"نيميسيدا" (الانتقام والجريمة)[4].

وحكم "كرونوس" العالمَ وحدَه. وكانت زوجته "ريا" قد تنبّأت له بأنّ أحد أولاده سيُطيح به عندما يتزوج[5]، فالتهم أولادَه الخمسة: بناته الثلاثة "هستيا"، و"ديميتيه"، و"هيرا"، وابنيه "هاديس"، و"بوزيدون". أمّا "زوس"، صغيره السادس، فخبّأته أمّه في

---

١ — عماد حاتم، أساطير اليونان، ص ٥٤ (ها)
٢ — بيار غريمال، الميثولوجيا اليونانية، ص ٢٥ — ٢٦
٣ — مرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ١/ ٣٠٦
٤ — عماد حاتم، أساطير اليونان، ص ٥٥
٥ — Padaric Colum, **Orpheus – Myths of the world**, forgotten books, 2008, p. 93

جزيرة كريت، وخدعت والده "كرونوس" إذ دفعت إلى باب هذا الكهف بصخرة لفّتها بخرقة، ليظنّها "كرونوس" ابنه[١]، فنجا "زوس" الذي ربّته الحوريات. وعندما كبر، جرّع والده عقارًا جعله يلفظ كلّ أولاده الذين ابتلعهم، واحدًا بعد الآخر[٢]. ثم شنّ حربًا، مع إخوته، على الجبابرة، فنزل إلى أعماق الظلام، حيث احتجز "أورانوس" أولاده، وحرّر الجبابرة ذوي المئة من الأذرع ليقاتلوا معه، وقدّموا له الصاعقة، عربونًا عن شكرهم، وعلّموه استعمالها. وكان العمالقة الذين حرّرهم "زوس"، على الرغم من قواهم الهائلة، لا يملكون نار الشجاعة، فحمل لهم طعام الآلهة وشرابهم (النكتار)؛ وعندما أكلوا وشربوا، صاروا مستعدّين لمواجهة الجبابرة[٣]. وهكذا ثارَ "زوس" على والده وخَلَعه عن عرشه[٤]؛ وأسر آلهة الأولمب الجددُ الجبابرةَ، وصفّدوهم، وحبسوهم في "التارتار" القاتم، داخل الظلام الأبديّ، عند نهايات الأرض، وجعلوا على بابه "الهيكاتونخير" العمالقة ذوي المئة من الأذرع ليحرسوه، فلا يخرجوا منه بعدُ[٥]، ووضع "بوزيدون" على سجونهم أبوابًا من البرونز. وفي هذا المكان عينه – عند أقاصي الأرض – كان النهار والليل يلتقيان[٦]. وبهذا يمثّل انتصار "زوس" على أبيه ترسيخ النظام النهائيّ للأرض والطبيعة[٧].

وهكذا كان الجبابرة، أو جيل ما قبل آلهة الأولمب، الألوهات التي لا تعود مباشرة إلى "كرونوس"، بل إلى "غايا" و"أورانوس"، أو إلى "غايا" نفسها (التي أنجبت أيضًا من غير جماع)، ومنهم الصقالبة الذين أشرنا إليهم، وقوى طبيعية، كالشمس، والقمر، والعواصف.

---

١ – عماد حاتم، **أساطير اليونان**، ص ٥٥ – ٥٦

٢ – المرجع نفسه، ص ٥٧

٣ – Padaric Colum, **Orpheus – Myths of the world**, p. 93

٤ – بيار غريمال، **الميثولوجيا اليونانية**، ص ٢٦ – ٢٧

٥ – عماد حاتم، **أساطير اليونان**، ص ٥٨

٦ – Padaric Colum, **Orpheus – Myths of the world**, p. 94 - 95

٧ – Daniel Gloor, **Création et mythes de la création**, Gymnase de Nyon, 2004, p. 18

وقام بين "زوس" والعمالقة المزروعين تحت الأرض - وهم يمثّلون البراكين والزلازل - صراع قويّ، لأن "غايا" انزعجت من الطريقة التي عاملهم "زوس" بها. وساعد الآلهةَ بشريٌّ واحد هو "هيراكليس" الذي كان يضرب العمالقة بأسهمه حين يصارعهم إله، فانهزموا[1]. ثم قاتل "زوس" العملاق الرهيب "طيفون" ذي الرؤوس المئة، وراح يحرق رؤوسه بصواعقه، حتى أجهز عليه، وألقى بجثّته في "التارتار" المظلم. وقد ظلّ "طيفون"، على الرغم من اندحاره، يهدّد البشرَ والآلهة من مثواه بالعواصف والخراب[2]. وكان صراع "زوس" الأخير هذا لتثبيت زعامته على عرش جيل الآلهة الثاني، فوق الأولمب.

ومع انتصار "زوس"، سيطر هذا الجيل (جيل ما بعد الجبابرة) على الأرض، وحكموها. وتمثّل صراعات "زوس" مع هؤلاء صراعَ النظام مع الفوضى، وانتصاره عليها[3]. كما نلاحظ في تركيب الميثولوجيا الأولى اليونانيّة أنّ فيها ثالوثًا إلهيًا أساسيًا، يتألّف من "أورانوس"، و"كرونوس"، و"زوس"؛ وهو يمثل، في الظاهر، ثلاثة آلهة لثلاثة أجيال؛ ولكنّه، في الجوهر، إله ثالوثيّ واحد، يوازي مفهوم الله في الديانات التوحيدية[4]. وهذا الأمر مشابه لصورة الله في العهد العتيق، حيث نجد له صورتين مختلفتين إجمالاً بين صوره: إذ تختلف صورة "يهوه"، في الأسفار الخمسة الأولى، عن صورة الله في مزامير داود. ويبدو أنّ هناك إلهين مختلفين في الجوهر: الأول "يهوه"، وهو إله سينائيّ كانت تقدّم له الذبائح البشريّة، وهو يتّصف بالقوة، والقسوة، والعنف، وإله آخر، هو الله الرحوم، الذي عُرف في الأبواب الأخرى. ولكنّ هذا يحتاج إلى دراسة معمّقة لا مكان لها في هذا الكتاب.

---

١ - بيار غريمال، الميثوجيا اليونانية، ص ٣١ - ٣٢

٢ - عماد حاتم، **الميثولوجيا اليونانية**، ص ٥٨

٣ - Daniel Gloor, **Création et mythes de la création**, p. 19

٤ - Ibid, p. 18

ب – **البشر والجبابرة**: وينتسب البشر إلى سلالة الجبابرة، التي منها "جابت" وزوجته "كليمينيه". فهذان ولدا أربعةً: "أطلس" الذي شتم الآلهة وحاربها، فعاقبته بحَمل كرة الأرض على كتفيه، و"مينويتيوس"، و"بروميثيوس"، و"إبيميتيوس". ويقال إنّ "بروميثيوس" هو الذي خلق البشر من الصلصال[1]، وهي الرواية الأشهر التي تزعم أنّ البشر كانوا أربع سلالات متحدّرة من "بروميثيوس":

أ – الأولى هي "السلالة الذهبية" التي عاش المتحدّرون منها بعدل، على الرغم من أنّهم لم تكن لهم قوانين تحكمهم؛ وفي زمانهم لم تعرف الأرض إلا فصلاً واحدًا، هو الربيع. وكانوا يعرفون حياة أجمل من تلك التي يعرفها سواهم؛ وعندما يموتون يغُطّون في سبات عميق، لا ينتهي، فلا يتعذّبون في شيء. وكانوا يحصلون على قُوتهم من غير تعب، ولا كدّ، فلا يحتاجون إلى العمل، أو الزراعة. وكان السلام يسود بينهم. أمّا أرواحهم، فكانت تبقى على الأرض، بعد موتهم، لتُلهِم خلَفهم بالأمور العظيمة التي قاموا بها، وبالفضائل التي عرفوها، فيتصرفوا بعدل وسلام. وهذا العرق كان يعيش قبل جيل الأولمب من الآلهة، مع "كرونوس"؛ ووجودهم محصور بالذكور، فلا إناث بينهم. وقد سكنوا بقرب الآلهة، وكانوا يعيشون مثلهم[2].

ب – والثانية هي "السلالة الفضيّة"، وهي أقلّ نبلاً من السلالة الأولى؛ وقد عَرَفَ زمانُهم الفصولَ الأربعة، والرياحَ القاسية، والأمطار، والعواصف، والثلوج، لذلك بنوا البيوت ليأووا إليها، وكانت حياتهم أطول من حياتنا اليوم، لكنّ طولها لم يكن كافيًا ليُكسبَهم الحكمة الكاملة. وكان الأطفال يبقون مئةَ عام إلى جانب أمّهاتهم، يلعبون بألعابهم؛ وبعد مرور هذا الوقت كانوا يبدأون بالتقاتل. وكانوا يموتون من غير أن يكرّموا

١ – بيار غريمال، المثولوجيا اليونانية، ص ٣٤
٢ – مرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ١/ ٣١٢

الآلهة، لأنّهم لم يتعلّموا تكريمها. ثم زالت هذه السلالة، وانتقلت أرواح بشرها إلى العالم السفليّ، وسمّاهم الناس "أرواح العالم السفلي المبارَكة". هؤلاء انتهى عرقهم بسبب اقتتالهم، ولأنهم لم يكرّموا الآلهة[1]، ما يعني أنّ الفضائل الدينية مهمّة لاستمرار النوع البشريّ.

ج - والثالثة هي "السلالة البرونزية"؛ وكان بشَرُها كبيري الأجساد، ذوي بأس ورهبة؛ وأسلحتهم من البرونز، وحتى أحصنتهم كانت منه. وكانوا يشهرون أسلحتهم على بعضهم، ويتقاتلون باستمرار. لذلك عندما ماتوا انتقلوا إلى العالم السفليّ، من غير أن يتركوا أسماءً يعرفهم بها الآخرون. هذه السلالة هي التي يتحدّر منها أبطال القتال في حرب طروادة، وقد مات منهم كثر (آشيل، هكطور...) أما الباقون الأحياء، فقد جعلهم "زوس" يستقرّون في "جزر السعداء" (الإليزيوم)، عند أقاصي الأرض، ويحكمهم "كرونوس" والده الذي حرره ابنه من سجنه في "التارتار"[2].

د - والرابعة هي "السلالة الحديديّة"، وهي سلالة البشر المعروفين اليوم. هؤلاء لا يعرفون العدالة التي سادت "السلالة الذهبيّة"، ولا بساطة "السلالة الفضيّة"، ولا قوّة "السلالة البرونزيّة" وصلابة أبدانهم؛ كما أنّ عليهم أن يشقوا ليأكلوا، فيشيخوا سريعًا[3].

وفكّر "زوس" في تدمير هذه السلالة الرابعة بالطوفان، وبتسليم الأرض للحوريّات؛ لكنّ "بروميثيوس" كان يعطف عليهم، لذلك علّم رجلاً، هو "دوكاليون"، وامرأة، هي "بيرّا"، أن يصنعا فُلكًا ينجوان به من الطوفان. وأرسل "زوس" الأمطار على الأرض، بعد أن حبسَ كلّ الرياح التي لا تمطر في الكهوف؛ وأمر "بوزيدون" البحرَ بالاتّساع،

١ - المرجع نفسه، ١/ ٣١٣
٢ - الموضع نفسه.
٣ - Padaric Colum, **Orpheus – Myths of the world**, p. 96 - 97

والأنهارَ بالفيضان كثيرًا؛ فأغرق الطوفانُ الأرضَ، ولم ينجُ إلاّ "دوكاليون" و"بيرّا""[1].
وعندما رأى "زوس" أنّ هذين البشريين نجيا من الطوفان، ورأى أنّهما طيّبان، عفا عنهما، فملأ الأرضَ نسلُهما. ومن الملاحظ أنّ هذه القصة شبيهة جدًّا بقصّة "نوح" في العهد العتيق (سفر التكوين)، حيث يُغرق اللهُ الأرضَ بالطوفان، ويُنجّي نوحًا وامرأته وما حمله معه من أزواج من الحيوانات.

وكان "بروميثيوس" يعطف على البشر الذين كان خلقهم، ورأى أنّهم يتعبون جدًّا في الفلاحة للحصول على محصول قليل، وفكّر أنّهم لو حصلوا على عنصر النار الذي تملكه الآلهة لَهانت حياتهم، وتحسّنت محاصيلهم؛ لذلك سرق النارَ من معبد "زوس"، وحملها إلى البشر، فحسّنوا بها حياتهم، وطوّروا محاصيلهم.

أما "زوس" فسامح البشر لحصولهم على النار، ولكنّه لم يسامح "بروميثيوس" سارقها. فأمر بعض العمالقة المحتَجَزين في باطن الأرض بالقبض عليه، وحملوه إلى قمّة جبل القوقاز، وغلّلوه بسلاسل لا تُكسَر، وتركوه للبرد القارس، والشمس المحرقة؛ وأرسل "زوس" نَسره إليه ليمزّق كبده، ولكنّها كانت تنبت مجدّدًا كلّ يوم، فيعود النسر إلى تمزيقها. ومع هذا، لم يصرخ "بروميثيوس" يومًا من الألم، فقد كان يعرف أنّ "زوس" سيطلق سراحه يومًا، لأنّ أحد أبنائه سينقلب عليه ليُطيح به، كما فعل هو بأبيه، وكما فعل أبوه بجدّه، وعندئذٍ لا بدّ من أن يلجأ إليه ليقف إلى جانبه[2]. ثم ما لبث "هرقل" أن أطلق سهمًا على نسر "زوس"، فأرداه، وحرّر "بروميثيوس".

وتمثّل سرقة النار من الآلهة وإعطاؤها للبشر تَطَوُّرَ المعرفةِ في اليونان عمومًا، وفي العالم خصوصًا. فالنار تمثّل الحضارةَ (والتطوّر، والتنظيم) التي تقدّم للناس ترتيبًا لمجتمعاتها،

---

١ — Ibid, p. 97

٢ — Ibid, p. 98 - 99

وتحسّن أوضاعها. أمّا معاقبة "برميثيوس"، فتمثّل الضريبة التي يدفعها الإنسان في سبيل التطوّر والازدهار. و يرمز حَجْبُ "زوس" النار عن البشر إلى حال الجهل الذي يعيش فيه الإنسان قبل التطوّر والتحضّر، حيث تكون حياته صعبة، وظروفه قاسية، بسبب افتقاره إلى الأدوات الكفيلة بتسهيل حياته، في الزراعة، والبناء، والصناعة، كما أنّه يمثّل الشرّ في العالم[1]... وفي الواقع، فإنّ عمل "بروميثيوس"، وردّ فعل "زوس"، يعكسان موقفًا متشائمًا من البشر الذين كان طبعهم مليئًا بالتناقضات، وكثيرًا ما ينجرف مع الخطإ بعيدًا عن الفضيلة، وهو أمر عبّر عنه الفلاسفة اليونان، في كثير من الأحيان. ويمثّل موقف "بروميثيوس"، أيضًا، انفتاحَ البشر في المسائل الدينيّة عينها، بمعنى أنّ المفاهيم الدينيّة تتحوّل وتتطوّر (ممثلة بـ"بروميثيوس")، في حين أنّ "زوس" هنا يمثّل الموقف التقليديّ الذي يتمسّك بهذه المفاهيم. غير أنّ سقوط "بروميثيوس" يرمز إلى أن البشر لا يجوز أن يتخلّوا عن التمسّك بالمعتقدات الدينيّة التي من شأنها أن تُعتق روحَهم وتنمّيها.

أما خَلق المرأة التي تمثّلها "باندورا"، فقد جاء بطلب من "زوس" نفسه الذي أمر "أثينا" إلهة الحكمة، و"هيفستوس" إله الدروع والحديد، بأن يصنعا كائنًا مجهولاً؛ فكان هذا الكائن "باندورا" ذات الجمال، والذكاء، والإقناع؛ ولكنّ "هرمس" وضع في قلبها الخداع، والمكر، والكذب، والحيلة؛ فقدّمها "زوس" إلى "إبيتيميوس"، وكان في الأرض جرّة مقفلة، تحوي جميع الشرور، فتَحَتْها "باندورا"، فخرجت تلك الشرور، وانتشرت، فخافت، وعادت وأقفلت الجرّة، فبقي الأمل في الأسفل[2].

---

١ – مرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينيّة، ١/ ٣١٥

٢ – Daniel Gloor, **Création et mythes de la création**, p. 19. وقارن: بيار غريمال، الميثولوجيا اليونانية، ص ٣٥

٣ – جيل آلهة الأولمب:

أ – آلهة الأولمب الرئيسة: كانت آلهة الأولمب الذَّكَريّة الأساسيّة ثلاثة، هي: "زوس" إله السماء، وهو الإله الذي يسطع أحيانًا، ويمطر أخرى[1]، و"بوزيدون" إله البحر والمياه، و"هاديس" إله العالم السفليّ. ويقال إنّ "زوس" قد قسم هذه الممالك عليه وعلى إخوته عن طريق الاقتراع[2]؛ أما الأولمب فللجميع. ويمثّل هذا الثالوث طبقاتٍ أساسيّةً في الحياة: السماء (العالم الأعلى)، والجحيم (العالم السفلي)، والمياه بينهما (لأنّ الغمر يحمل الكون كما كانوا يظنّون، وبالتالي فهو المياه التي تحيط بالأرض).

والأولمب هو جيل الآلهة الذي يتربّع، في قمّته، "زوس" على عرشه، وحوله أخته زوجته "هيرا" التي تمثل الاتحاد المخصب بين العاصفة والأرض الأمّ[3]، وإلهة الزواج، وأبولون" الذي يمثّل مظهر الدين القانونيّ[4]، وهو مرتبط بالقدرة على التنبّؤ والسحر[5]، وهو الذي كشف للبشر الطريق التي تقود من الرؤية التنبئيّة إلى الفكر[6]، وهو ابن "زوس" من زوجته "ليتو"، و"أرتيميدا" أخت "أبولون"، ربة الوحوش الكاسرة المولعة بالصيد، وحامية الحيوانات، و"أفروديت" إلهة الخصب والحب، والعذراء الأبدية[7] التي تُلقي الشهوة في قلوب البشر والحيوانات، و"أثينا" ابنة "زوس" إلهة الحكمة القوية، وممثّلة العقل العمليّ، و"بوزيدون إله المياه، وسواهم. وكانت الأورات الجبارات يرفعنَ غمامة

---

١ – مرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ١/ ٣٠٥
٢ – المرجع نفسه، ١/ ٣٠٨
٣ – المرجع نفسه، ١/ ٣٤٢
٤ – المرجع نفسه، ١/ ٣٣٣
٥ – المرجع نفسه، ١/ ٣٣٧
٦ – المرجع نفسه، ١/ ٣٣٨. وفي هذا المجال نقول إنّ المقولة المحفورة على معبد دلفي تعني أنّ الذكاء، والعلم، والحكمة، هي صورة الرصانة، وهي شعار الكمال الروحي.
٧ – أصل هذه الإلهة شرقيّ، لأنّ لها صفات "عشتار" البابلية و"إينانا" السومرية، و"إيزيس" المصرية أنفسهنّ.

قائمة، تحجب باب مدخله؛ وفوق هذا الجبل السماءُ الزرقاءُ الرائعة التي يتدفّق منها النور الذهبيّ، حيث لا أمطار، ولا برد أو ثلج[1]. و"زوس" يحفظ نظام الكون وأعرافه[2]. إنّه يمثّل قوّة النظام التي تحافظ على التوازن الكونيّ.

وفي أعماق الأرض، حيث الظلام الأبديّ، والعذاب والعويل، تترامى مملكة "هاديس" أخي "زوس"، وزوجته "برسيفونة". ويقود إلى هذه المملكة نهر الستيكس القارس البرد، ويجري فيه نبع "ليتا" الذي تحمل مياهه نسيان كلّ ما في عالم الأرض والحياة، ويحرس مدخلَ هذه المملكة "سربروس" الكلبُ الرهيب ذو الرؤوس الثلاثة.

وبالقرب من عرش "هاديس"، يجلس "مينوس" و"رامادانت" قاضيا المملكة، و"تانات" إله الموت المجنّح - لأنّه يتنقل سريعًا إلى أيّ من الأحياء ويسرقه، وهذا هو سبب الجناحين -. وفي هذه المملكة أيضًا "إمنوس" الرهيب الذي يغرّ الناسَ، ويشرب دمهم، ويلتهمهم،؛ ومثله "لاميا" التي تخطف الأطفال، و"هيكاتا" التي تسيطر على الأرواح الشرّيرة مع كلابها الرهيبة، وتخطف الناس[3].

وأبناء "كرونوس" الإناث، سلالة الأولمب، منهنّ "هستيا"، و"ديميترا" (التي قامت على قصتها أسرار إيلوزيس"، ولنا عودة إليها)، و"هيرا". أما "هستيا" فتولّت المنزل، وهي ذات بكارة أبديّة. وأما "ديميترا" فتولّت الأرض المزروعة، وارتبطت بالخصب، وهي أم "برسيفونة" التي خطفها "هاديس". وأما "هيرا" فإلهة الزواج.

إلى هذا، كان ثمّة مجلس من الآلهة يعاونون زوس في حكمه، يتألف من اثني عشر إلهًا: ثمانية بينهم من أبناء "زوس"، هم: "أفروديت"، و"أبولون" أجمل آلهة الأولمب،

---

١ - بيار غريمال، الميثولوجيا اليونانية، ص ٥٩
٢ - المرجع نفسه، ص ٦٣
٣ - عماد حاتم، أساطير اليونان، ص ٦٩ - ٧٠

و"أرتيميس"، و"هيفاستوس"، و"آثينا"، و"آريس"، و"هرمس"، و"ديونيزيوس". واللافت أنّ "هاديس" و"بوزيدون" لم يكونا من آلهة السماء، بل من مجال الأرض: فالأول ربّ العالم السفلي (الأرض السفليّة)، والثاني ربّ المياه والمحيطات (الأرض العليا).

ب - **بعض علاقات الآلهة ببعضها**: بالعودة إلى بعض تلك الآلهة، فإنّ "زوس" قد تزوّج من "آيو" الحسناء الأرضيّة، فطاردتها زوجته "هيرا"، فحوّلها "زوس" إلى بقرة ليخفيها عنها. ولكنّ "هيرا" اكتشفت ذلك. وبعد أنّ عانت "آيو" مُرّ العذاب، ردّها "زوس" إلى شكلها عند نهر النيل، فولدت "هرقل" أعظم أبطال الإغريق[١].

ومن أبناء "زوس" أيضًا "هرمس" الذي صار رسول الآلهة، يتنقّل سريعًا بحذائيه المجنّحين من الأولمب إلى أيّ مكان في الكون، وترمز عصاه ذات الحيّتين المذهّبتين إلى السلام. وهو حامي الدروب والمعابر والمسافرين، ومرافق الأرواح لتدخل مملكة الموتى؛ كما أنّه إله التجارة، وموزّع الأرزاق. وهذا الإله هو الذي وضع الموازين والأعداد، وعلّم البشرَ الأبجديّة. وهو ربّ البلاغة والمكر في آن[٢].

ومن أبناء "زوس" أيضًا "آريس" إله الحرب. ووالده يكرهه جدًا بسبب تعطّشه للدم. ووَلدا "آريس" هما "ديموس" (الجهل)، و"فوبوس" (الرعب).

و"أفروديت" زوجة "آريس"، تنصره أحيانًا في معاركه[٣]. وهي إلهة الجمال، والخصب، والشباب الخالد، ولدتها أمواج البحر في قبرص[٤]. أما "أدونيس" حبيبها فكان ابن ملك قبرص الرائع الجمال.

١ - المرجع نفسه، ص ٣٢ - ٣٣
٢ - المرجع نفسه، ص ٩٥
٣ - المرجع نفسه، ص ١٠١
٤ - المرجع نفسه، ص ١٠٢

و"ديونيزيوس" ابن "زوس" من "سيميلا" ابنة "قدموس" ملك طيبة. خاطَه "زوس" إلى فخذه ليحميه من المخاطر، لأنّ "ديونيزيوس" كان، في طفولته، ضئيل الجسم، صغيرًا. وعندما اكتملت قوّته، أخرجه من فخذه؛ ثم حماه "هرمس" من الموت، وأرسله إلى وادي نِسيسْك لتربيه الجنيات هناك؛ فشبّ، وصار إله الخمر الذي يمنح الناسَ السعادةَ، والخصبَ، والخير، وهو يعلّمهم أيضًا زراعةَ الكرمة، وصناعة النبيذ[1].

وبكلمة، فإنّ الرؤية الدينيّة اليونانيّة القديمة متشائمة في جوهرها، لأنّها تنظر إلى الوجود البشريّ معجونًا بالهموم والآلام؛ فلسنا نجد بشريًا لم يُرسل إليه "زوس" شحنة من الكوارث والمصائب. كذلك، لم يكن الموت عندهم راحةً، أو حياة أبديّة أخرى، بل كان عذابًا أبديًا في مملكة العالم السفليّ (مملكة "هاديس")، حيث البرد والرعب والظلام الأبديّ. والموت مقرّر للبشر منذ ولادتهم، لأنّهم معجونون به. وهم يُعطَون وقتًا يُمضونه في الحياة، قبل أن يواجهوا مصيرهم. وهم ألعوبة في يد الاقدار، لا يملكون أن يمسكوا بقراراتهم.

أمّا العدالة في المجتمع البشريّ، فأساس الحياة، لأنّها تعكس النظام الكونيّ الذي يحافظ على الاستمرار، وهي تُمَثَّل في "زوس" نفسه. فأوّل واجب للإنسان إثبات شرفه أمام الآلهة (وهذا هو مبدأ الخير). ومن الضروريّ، لكي يكون الشرف صحيحًا، الابتعاد عن الغرور، لأنّه يعرّض القيم إلى السقوط[2].

ج – "أفروديت" و"أدونيس":

ج – ١ – أفروديت و"أدونيس"/بين سورية واليونان: يمكننا أن نقول إنّ الإلهة "عشتارة" الفينيقية" هي التي غدت "أفروديت" اليونانيّة، بعد أن أخذ اليونان عبادتها عن جزيرة قبرص التي

---

١ – المرجع نفسه، ص ١٣٢ – ١٣٥. وقارن: Padaric Colum, **Orpheus – Myths of the world**, p.118-121

٢ – مرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ١/ ٣١٩ – ٣٢٠

أنشأ السوريون أولى حواضرها، وأسّسوا فيها عبادة "عشتارة"... معبدها في "بافوس""(١).

أمّا "أفروديت" اليونانية، فهي زوجة "آريس" إله الحرب. كما ذكرنا، وابنة "زوس". ولدت قرب جزيرة كيثارا من أمواج البحر، بين الزبد، محمولة على صَدَفَة، وحملها النسيم العليل إلى جزيرة قبرص، فربّتها الأورات(٢). وقد أنجبت ابنها "أدونيس" من "هرمس" (وكان هذا الإله يمثّل الخصب كما أسلفنا)، وسلّمته لحوريّات كريت لتربيته في الأحراش؛ فنشأ محبًّا للصيد. وفيما كان يصطاد خنزيرًا بريًّا هائلاً، أصابه بجرح قاتل. فندبته "أفروديت"، وناحت عليه، وتجرّحت قدماها بالحجارة والأشواك، عندما هرعت إلى جسده النازف؛ فرقّ قلب "زوس" عليها، وأمر "هاديس" بأن يسمح لـ"أدونيس" بالعودة إلى عالم الأحياء نصف عام يقضيه مع "أفروديت"، ويعود إلى عالم الموتى نصف العام الباقي(٣).

وفي الواقع، يمكننا أن نقول إنّ هتين الشخصيّتين: الإلهة ونصف الإله، هما إله واحد في أقنومين، أكثر منهما إلهين منفصلين، وهما مقدرة إلهيّة واحدة، لا مقدرتان اثنتان(٤).

ج – ٢ – بعض احتفالات "أدونيس" اليوناني: في مصر (الإسكندرية)، كانوا يقيمون احتفالات "الأدونيّا" صيفًا، في الشهر الذي يحمل اسم هذا الإله (تموز). ولعلّه بهذا التوقيت مرتبط بإله القمح القتيل. وكانوا يسحبون تمثال "أدونيس" على أحد الألواح، ويغطّونه بوشاح أرجوانيّ، ويسحبون قربه تمثالاً لـ"فينوس" (أفروديت)، ويرشّون عليه الطيوب، ويحيطونه بالفواكه وأغصان الأشجار المثمرة، ويعلّقون عليها سلالاً صغيرة،

---

١ – فراس السواح، لغز عشتار، ص ٣٠٠
٢ – عماد حاتم، أساطير اليونان، ص ١٠٢
٣ – المرجع نفسه، ص ١٠٨ – ١٠٩
٤ – فراس السواح، لغز عشتار، ص ٢٧٣

فيها بعض تراب الأرض الذي يذرون فيه حبوبًا تنبت بسرعة. ويسير الموكب الجنائزيّ وراء التمثالين المحمولين، ثمّ يُرمى بهما في البحر. ويبدو أنّ هذه الاحتفالات نفسها كانت تُقام في اليونان في منتصف فصل الصيف.

٤ – أسرار "أورفيوس" وطقوس "باخوس" و"ديونيزيوس":

أ – "أورفيوس": قيل إنّ "أورفيوس" كان شاعرًا من تراقية، ورجلاً إغريقيًا عظيمًا، ما لبث أن حوّله الناس إلى إله[1]. وهو في الميثولوجيا ابن "أبولون"، معروف بعزفه الساحر على القيثار. وكان مغرمًا بـ "يوريديس" زوجته. لكنّ أفعًى لدغتها في أحد البساتين، وانتقلت فورًا إلى العالم السفليّ؛ فانقلبت حياة "أورفيوس" ظلامًا ومرارةً – مع أنّه شاعر الآلهة المتنقّل – ولم يعد قادرًا على تذوُّق طعم النوم أو الطعام؛ فقرّر النزول إلى عالم الموتى للعودة بها. وعندما وصل إلى باب المملكة، منعه الحرس من الاقتراب، فراح يعزف على قيثاره. وسمع "هاديس" و"برسيفونة" عزفه الساحر، وسمعا أغنيته التي يطلب فيها تخليص حبيبته، فسمحا له بالدخول. ورأى "أورفيوس" "يوريديس"، وكانت عاجزة حيث هي عن الاقتراب منه، حتّى سمح لها "هاديس" بذلك، وقرّر أن يسمح لهما بالعودة معًا إلى عالم الأحياء، بشرط ألاّ ينظر أيّ منهما إلى الوراء في الطريق؛ وقفلا عائدين. وعندما قاربا الوصول، التفت "أورفيوس" ليقول لزوجته إنّه تمكّن أخيرًا من العودة بها، فسقطت عائدة إلى مملكة الموتى.

ورجع "أورفيوس" القهقرى ليعود بها، ولكن عبثًا. وعاد إلى دنيا الأحياء صِفرَ اليدين، وظلّ يبكيها... ولكنّ مجموعة من النساء السيكونيّات قطعنَ رأسه، ورمين به

١ – Manly P. Hall, **The secret teaching of all ages**, p. 75

وبقيثارته إلى النهر[1]. وفيما كانا يطفوان في المجرى، أرسل القيثار ألحانًا، فأجاب الرأس مغنيًا. وعندما بلغ مملكة الموتى، اجتمع "أورفيوس" بحبيبته، ولم يعد بإمكان آلهة الغضب أن تعذّبه بالذكريات[2].

ويبدو أن "أورفيوس" كان مؤسّس اللاهوت القديم عند اليونان آلهه الناس، وعلّم الأخلاق؛ كما علّمهم طقوسهم، وكثيرًا من أسرارهم، وكانت حكمته ينبوعًا ثرًا، غرف منه "هوميروس"، وكذلك "فيثاغوروس"، و"أفلاطون". وهو مؤسّس النظام الميثولوجيّ الذي استعمله لنشر فلسفته، وهي فلسفة تعود في جذورها إلى البراهمة على الأرجح.

و"أورفيوس" هذا كُرّس في الإسراريّة في معابد مصر، لأنّه اكتسب معرفة واسعة بالسحر وعلوم الفلك والطبّ، بالإضافة إلى العلوم الباطنية. وكلّ هذا أسهم في معارفه[3].

وكانت علاقة الحب بينه وبين "يوريديس" الميتة الحزينة الرائعة التي طبعت قصّته، وهي التي طبعت شكل الطقس الأورفيّ. وقد ذكر "أفلاطون" في "جمهوريته" أنّ الروح التي كانت في "أورفيوس"، بسبب قدره التاعس، وبسبب بعض أيدي النساء، قد اختارت أن تعود إلى الحياة بشكل بجعة، على أن تعود إلى جسده هو عبر رحم امرأة. وقد أُلقي برأسه، بعد تمزيقه مع قيثاره، في نهر "هيبروس"، فانتقل منه إلى البحر، حيث كان مصدر وحي لسنوات كثيرة، ورأسه معلّق على صخرة في أخدود. وبعد أن سُرق قيثاره من نعشه، ومات السارق، أخذته الآلهة، وحوّلته إلى مجرة.

---

١ – قال بعضهم إنّ صاعقة قتلته، وقال آخرون إنّه انتحر بسبب عجزه عن تخليص حبيبته من أسر العالم السفليّ. لكنّ أشهر الروايات كانت تلك التي رواها أفلاطون في "جمهوريته" ومفادها أنّ نساءً سيكوتيات كان قد امتنع عنهنّ مزّقنه أربًا.

٢ – Padaric Colum, **Orpheus – Myths of the world**, p. 114 - 117

٣ – Manly P. Hall, **The secret teaching of all ages**, p. 95

اعتُبر "أورفيوس" سيّد الموسيقى؛ فقد عزف على قيثاره ذي الأوتار السبعة موسيقى خلبت لبّ الآلهة، ما دفعها إلى التمثّل بقوّته. فعندما كان يلمس أوتار قيثاره، كانت الوحوش والطيور تتجمّع حوله. وفيما كان يهيم في الغابات، كانت الأشجار العظيمة العميقة الجذور نفسها تخرج من الأرض لتتبعه. لقد كان "أورفيوس" واحدًا من الخالدين الذين كرّسوا أنفسهم ليَحْظى البشر بحكمة الآلهة. فمن خلال أسرار موسيقاه، كان ينقل الأسرار الإلهيّة للبشر، حتّى إنّ عددًا من الكتّاب اعتبر أنّ الآلهة نفسها، على الرغم من محبّتها له، خافت من أن يُطيح بمملكتها، لذلك كانت مكرهةً على تدميره[1].

ومع الوقت، اقترن "أورفيوس" بعقيدة، وصار رمزًا لمدرسة الحكمة اليونانية القديمة. هكذا أُعلن ابنًا لـ"أبولون" الذي يمثّل الحقيقة الإلهية الكاملة، ولـ"كاليوب" إلهة الإيقاع. بمعنًى آخر، "أورفيوس" هو العقيدة السرّيّة ("أبولون") التي تنكشف عبر الموسيقى ("كاليوب"). أما "يوريديس" حبيبته، فتمثّل الإنسانية التي تحتلّها المعرفة الخطأ (وهو ما ترمز إليه لسعة الأفعى التي قتلتها)، واحتُجزت في عالم الجهل (العالم السفليّ). وفي هذه الحكاية الرمزية، "أورفيوس" هو اللاهوت الذي ينتصر عبر الموت، لكنّه يعجز عن الانبعاث، لأنّه يحجب الثقة عن الذكاء الفطريّ في الروح الإنسانيّة. وترمز النساء السيكونيّات اللواتي قَتَلْنَ "أورفيوس" إلى الآراء اللاهوتيّة المتضاربة التي تدمّر جسد الحقيقة، لكنّها لا تتمكّن من تحقيق هذا إلاّ إذا سلخت "أورفيوس" عن مزماره، وبالتالي حرفت اللاهوت المتماسك عن خطّه وتماسكه. أمّا رأس "أورفيوس"، فيرمز إلى العقائد الباطنيّة في علمه؛ فهذه العقائد التي تبقى حيّة، وتستمرّ في فعلها وتأثيرها، حتّى بعد أن يفنى الجسد (أي فكرة اللاهوت المتماسك). والقيثار، بدوره، يرمز إلى تعاليم "أورفيوس" السريّة. أمّا الأوتار السبعة، فترمز

١ – Ibid, p. 75

إلى الحقائق السبع التي تشكّل مفاتيح المعرفة الكونيّة. وتمثّل تفاسير موت "أورفيوس" المختلفةُ النيّاتِ الخبيثة المختلفةَ المستعمَلَة لتدمير تعاليمه: فالحكمة يمكن أن تموت بعدّة وسائل، في آن. وحكاية تقمّص "أورفيوس" جسدَ بجعة بيضاء تعني أنّ الحقائق الروحيّة التي بشّر بها لن تموت، وستستمرّ من خلال تعليم المسارّين، عبر الزمن. أمّا البجعة نفسها، فرمز المسارّين أنفسهم، كما أنّها رمز القوّة الإلهيّة في الكون[1].

وكان المسارّون اليونان المعروفون باسم "الأورفيّين"، في خلال ممارساتهم الإسراريّة، يدخلون في مقايضة مع الآلهة، وذلك بتطهير نفوسهم من كلّ شغف يمكن أن يعيق تطوّرهم، أو يعيق خيوط النور الإلهيّ الذي يدخل كلّ روح مؤهّلة لقبولها فتتطهّر. وكانت سلسلة من الامتحانات توصل المسارّ إلى معرفة الأسرار، فيبلغ أعلى درجات الكمال[2].

ب – "باخوس" و"ديونيزيوس": تتمحور الطقوس الباخوسيّة (وهي طقوس رومانيّة تالية للطقوس اليونانيّة، منبثقة منها) حول قصّة "باخوس" الشابّ ("ديونيزيوس" أو "زاغروس") الذي مزّقه الجبابرة (التيتان) إربًا. وقد تمكّن هؤلاء من تمزيقه، بعد أن أغروه بصورته في مرآة. وبعد أن مزّقوه غلَوا أعضاءه في الماء، ثمّ شوَوها. لكنّ "بالاس" أنقذ قلب الإله المقتول، فتمكّن "باخوس" (أو "ديونيزيوس") من التجسّد مجدّدًا، بكامل جلاله وعظمته. وبعد أن رأى "جوبيتير" (أو "زوس") جريمة الجبابرة، قتلهم بصواعقه، وأحرق أجسادهم، حتّى صارت رمادًا. ومن رمادهم التي حوت قسمًا من جسد "باخوس" (لأنّهم التهموه)، خُلِق الجنس البشريّ[3]. هكذا اعتُبر أنّ في كلّ قسم من حياة البشر جزءًا من حياة "باخوس". لهذا السبب، حرّمت أسرار "إيلوزيس" التي

١ – Ibid, p. 76

٢ – Caillot, R. C, **Annales maçonniques**, Paris: Chez Caillot, 1807, T. 1, p. 18 - 19

٣ – هذا في الميثولوجيا الرومانيّة، لأن البشر في الميثولوجيا اليونانيّة خُلقوا بطريقة أخرى، كما رأينا، من "بروميثيوس".

ستتكلم عليها بعد قليل الانتحار، وحذّرت منه. فكلّ من يريد تدمير نفسه، يتجرّأ على تدمير "باخوس" داخله، لأنّ كلّ جسد بشريّ ضريح لـ"باخوس"، ويجب أن نحافظ عليه بعناية.

ويمثّل "باخوس" الروح العقلانية للعالم السفليّ. إنّه زعيم الجبابرة مكوّني الدوائر الأرضية. وكان الفيثاغوريّون يدعونه "الرحّالة التيتانيّ"، أو الرحّالة الجبّار. هكذا فإن "باخوس" هو الفكرة الكليّة لدائرة الجبابرة، وللجبارة أنفسهم (آلهة الأجزاء)، والوسيط الناشط الذي من خلاله تتشكّل الروح العقلانية في نظام هذه الفكرة الكليّة. وتعني الحالة الباخوسيّة وحدةَ الروح العقلانيّة البشريّة، وقد تشتّتت عبر الخَلْق، وأضاعت وعيَها بذاتها الأحَديّة الجوهر. وتمثّل المرآة التي نظر فيها "باخوس" إلى صورته – وهي ما كان سببًا في سقوطه – عالمَ الوهم الواسع. فعندما رأى "باخوس" (الروح الرحّالة) ذاته أمامه، قبِل بصورتها على أنّها شبيهة بذاته الحقيقيّة، ما يعني أنّ الفكرة العقليّة قبلت بانعكاسها، أي بالوجود اللاعقليّ. وبقبوله بهذا الوجود غرس في ذاته رغبةَ أن تصير مثله: صورة معقولة. لهذا السبب، قال القدماء إنّ الإنسان لا يمكنه أن يعرف الآلهة بالمنطق والعقل، بل بأن يعرف بوجودها داخل ذاته[1].

وبعد أن نظر "باخوس" إلى نفسه في المرآة، وتبع انعكاسه في المادّة، تشظّت روح العالم العقلانيّة، وتوزّعت مع الجبابرة في أنحاء الدائرة الأرضيّة، وهي الطبيعة الأساسيّة. إلاّ أنّ القلب، أي المصدر الأول، لم يتمكّنوا من تقسيمه. وأخذ الجبابرة جسد "باخوس" المقطّع، وغلَوه بالماء، وهذا يرمز إلى الغوص في العالم الماديّ، وبالتالي إلى ذوبان المبدإ الباخوسيّ في شكل. ثمّ شُويت قطع الجسد من بعد، وأُكلت، ليرمز هذا إلى صعود الطبيعة البشرية لاحقًا خارج الشكل.

---

١ – Ibid, p. 77

ولمّا رأى "جوبيتر" أنّ الجبابرة يورّطون الفكرة العقلانية الإلهية بتقطيع أوصالها في أقسام العالم الأسفل، دمّرهم، على أمل أن تضيع الفكرة الإلهيّة تمامًا. ومن رمادهم صنع الجنس البشريّ الذي كان الهدف منه الحفاظ على الفكرة الباخوسيّة العقليّة، أو تحريرها من عالم الجبابرة. وبما أنّ "جوبيتر" هو صانع الوجود البشريّ، فهو الأقنوم الثالث في عمليّة الخلق، وكذلك إله الموت "بلوتو"، لأنّ الموت موجود فقط في دائرة العالم الأسفل. والتحلّل موجود لكي يليه الانبعاث نحو مكان أرقى للذكاء والشكل العقلانيّين. وصواعق "جوبيتر" تصوير لقوّته التدميريّة التي تسبّب التحلّل، فهي تكشف عن الغاية من الموت الكامنة في إنقاذ الروح العقلانيّة من قوّة الطبيعة اللاعقلانيّة الملتهمة.

والإنسان، في الميثولوجيا الرومانيّة، كائن مركّب، تتألف طبيعته السفلى من أشلاء الجبابرة، وطبيعته السامية من لحم "باخوس" المقدّس؛ لهذا السبب يستطيع أن يعرف وجودًا عقلانيًا (باخوسيًا)، أو لاعقلانيًا (وجود الجبابرة). وعدد الجبابرة اثنا عشر، يمثّلون الأبراج الفلكيّة الاثني عشر، وهي القوى الفلكيّة التي انحرفت، لانغماسها وتورّطها في العالم الماديّ. وبهذا يمثّل "باخوس" الشمسَ التي تقطّعت بسبب الأبراج المذكورة (١٢ برجًا = ١٢ قسمًا)، والتي، منها، تشكّل جسد العالم. وعندما خُلقت الأشكال الأرضيّة بأشلاء "باخوس" المقطّعة، ضاع معنى الوحدة، وتكرّست الفرقة. أمّا قلب "باخوس"، فهو مركز الروح العقلانية[١].

وبعد أن توزّعت الروح العقلانيّة في الخلق والبشر، تشكّلت الأسرار الباخوسيّة، من أجل أن تخلّص الروح العقلانيّة من طبيعة الجبابرة اللاعقلانيّة. ويقوم هذا الخلاص على رفع الروح من مستوى الفرقة، إلى مستوى الوحدة. وقد جُمعت أشلاء "باخوس" من زوايا الأرض، وعندما اكتمل جمعها، انبعث الإله.

---

١ — Ibid, p. 78

وفي التكريس الباخوسيّ، يمثّل المسارّ شخصيّة "باخوس" نفسه، يحيط به كهنة يمثّلون دور الجبابرة، ويُقتَل تمثيليًا، ثم يُبعَث في احتفال يعكس الفرح. وكان التكريس يتمّ، في هذه الإسرارية،كلّ ثلاث سنوات. وكانت تنقسم الأسرار درجتين. وكان المسارّون يتجمّعون في خلالها، مكلّلين بأغصان الآس والبلاب، وهما نبتتا "باخوس" الإلهيّتان. وقد قيل إنّ ولادة هذا الإله كانت على جبل "زلميسوس"، في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني. وقيل إنّه حوّل الماءَ خمرًا، وقام بأعمال عظيمة لمصلحة البشر، ثم قتله الجبابرة. وانبعثَ من الموت في الخامس والعشرين من شهر آذار. وفي أسراره كانوا يضعون صورة طفل لتمثّله[1].

ومثلما يمثّل "أبولو" الشمس، كان "باخوس" يمثّل القوّة الشمسيّة، لأنّ انبعاثه كان يتمّ بمواكبة "أبولو". ويمثّل استخراجَ أقسام "باخوس" المؤسّسة من أقسام الجبابرة التي أسّست العالم قيامةَ "باخوس"، وإلى هذا يرمز الدخان والسخام المتصاعدان من جثث الجبابرة المحترقة. ويُرْمَز إلى الروح بالدخان المتصاعد من نار الأسرار، وهذا الدخان يمثّل أيضًا ارتفاع الروح عن الكتلة البشرية المادية.

لقد كانت الطقوس الباخوسيّة، والطقوس الديونيزيوسيّة متشابهة، فالإلهان متماثلان. وفي أسرار "أيلوزيس" التي سنعرض لها الآن، كانوا يحملون تمثال "ديونيزيوس"، ولا سيّما في الأسرار الصغرى. وبما أنّ "باخوس" كان يمثّل روح الدائرة الأرضيّة، فقد كانت له أشكال مختلفة، و"ديونيزيوس" هو شكله الشمسيّ. وكانت مدرسة الأسرار الباخوسيّة والديونيزيوسيّة تتشكّل من مسارّين يعملون معًا لتطوير معارفهم السريّة المقدّسة.

---

١ — Ibid, p. 77

ج – أسرار إيلوزيس (وسيريس) أو كبرى مدارس الأسرار اليونانيّة والرومانيّة:

أ – أصل هذه الأسرار: أكثرُ الباحثين على أنّ اليونان قد أخذوا التكريس عن المصريّين[1]، وأخذها الرومانُ عن اليونان[2]. من هنا كانت احتفالات إيلوزيس وطقوسُها تستعيد الاحتفالات المصريّة التي عرفوها في معابد "أيزيس" و"أوزيريس"، والّتي كانت تقوم على عناصر الفكر والحكمة، الأمر الذي أكّده "فيثاغورس" في أعماله[3].

وفي هذا المجال، اعتبر أكثر المؤرخين أنّ "داماريوس"، وهو رجل يونانيّ طلب أن يُسارّ في مصر، حَمَلَ احتفالاتِ تكريم "أورفيوس" معه من مصر، وخصّصها لتكريم إلهة الحصاد[4]. ويعود تأسيس هذه الأسرار إلى "تريبتوليموس" اليونانيّ الذي أراد أن يتعلّم، فذهب إلى مصر، وقُبِل هناكَ تلميذًا للأسرار. غير أنّه، في خلال امتحان التكريس للدرجة الثانية، ذُعِر، وانسحب من امتحان بحيرة النار التي يُغمَس فيها المُسارّ. وفي هذه الإسرارية يظهر الضعف البشريّ، والخشية من الموت، بمواجهة الثقة العمياء، والإخلاص التامّ، والانصياع الكامل للأوامر السماويّة. نتيجة لهذا الحدث، وبحسب قوانين الإسراريّة المصريّة، بات على "تريبتوليموس" أن يمضي باقي حياته في ظلمة السراديب التي اقتيد إليها. ولكنّ فضائله الكبيرة والنادرة، من جهة، وحاجة كهنة "إيزيس" لإرسال مشرّع ومعلّم إلى اليونان التي كانت لا تزال بربريّة، من جهة أخرى، جعلتهم يتجاوزون هذا القانون. وهكذا، حمل "تريبتوليموس" معه من مصر إسراريّة مهمّة[5]، وبعد عودته إلى إيلوزيس، راح يطبّق الدروس المهمّة التي تعلّمها في مصر، وعلّمهم الحصاد، فتغطّت سهول إيلوزيس بالسنابل، وازدهر حصادها ومحاصيلها.

١ – Caillot R. C. Annales maçonniques, T. 1, p. 11

٢ – Ibid, p. 12

٣ – Ibid. P. 16

٤ – Ibid, p. 30

٥ – Ibid, p. 32 - 33

لكنّ هذا المسارَ أضاف إلى عمله الفاضل أمرًا آخر: فقد غيّر أسس معبد إيلوزيس، وشارك بعضَ أتباعه معارفَه التي حصل عليها من مصر، وقنّع إسراريّته بالرموز، كما فعل معلموه[1].

ب – قصة "ديميترا" و"برسيفونة": تقوم أسرار إيلوزيس على قصّة "ديميترا" وبرسيفونة. وهذه القصّة مفادها أن "هاديس" إله العالم السفلي ("بلوتو" عند الرومان) اختطف "برسيفونة" ابنة الإلهة "ديميترا"، حين كانت تقطف الزهور في سهل "نيز". وظلّت أمّها تبحث عنها تسعةَ أيام، من غير أن تذوق خلالها النكتار (رحيق الآلهة). ثم أعلمها إله الشمس ("هيليوس") بالحقيقة، وهي أنّ "زوس" قرّر تزويج "برسيفونة" من أخيه "هاديس". فتوجّهت "ديميترا"، في هيئة امرأة عجوز، إلى إيلوزيس، وعندما سُئلت عن هويتها قالت إنّها "دوسو" التي هربت من اللصوص، بعد أن أجبروها على الذهاب إلى جزيرة كريت. ودعتها بنات الملك "سيليه" للاعتناء بابن الملكة الذي يدعى "ميتانير"، فقبلت. وعندما دخلت إلى القصر، بقيت صامتة مدة من غير كلام، حاجبةً وجهَها، إلى أن تمكّنت إحدى الخادمات من إضحاكها. ورفضت تناول الخمر، ولكنها شربت شراب السَيسون بدلاً منه، وهو خليط من الشعير، والماء، والنعناع البريّ. ولم تُرضع "ديميترا" الطفلَ "ديموفون" (ابن الملكة)، بل دلكت جسمه برحيق الآلهة، ثمّ خبّأته بين ألسنة النار.

ونما الطفل، وراح يشبه الآلهة أكثر فأكثر، لأنّ "ديميترا" أرادت أن تجعله خالدًا. إلا أنّ الملكة "ميتانير"، عندما رأت ابنها بينَ ألسنة النار، بدأت تنتحب، فكشفت لها "ديميترا" عن نفسها إلهةً، وردّت لها ابنها الذي خسر الخلود، وعاد فانيًا. وأمرت أن يقام لها معبد كبير، تُلقَّن الناسُ فيه شعائرَها؛ وتركت القصر.

---

١ – Ibid, p. 34 - 35

وعندما انتهى بناء المعبد، حجزت "دميترا" نفسها فيه، هاجرةً الأولمب، وأرسلت جفافًا ضرب الأرض. وعبثًا حاول "زوس" إقناعها بالعودة إلى جبل الآلهة، فقد ظلّت تأبى، وتمنع العشبَ عن الأرض. حينها طلب "زوس" من "هاديس" أن يعيد "برسيفونة" إلى أمّها، فأعادها مرغمًا؛ لكنّه جعلها تبتلع حبّةَ رمّان اضطرّتها أن تعودَ إليه أربعة أشهر كلّ عام. وعندما عادت "برسيفونة" إلى أمّها، رضيت الأم بالعودة إلى الأولمب، ورفعت الجفاف عن الأرض، فعاد إليها العشب، وولد لـ"برسيفونة" طفل إلهي. ولكنّها قبل عودتها إلى جبل الآلهة، علّمت "تريبتوليموس"، و"ديوكليسوس"، و"إمولوبيسوس"، و"سيليه"، شعائرَها العليا، وأرسلت "تريبتوليموس" ليعلّم الإغريق الزراعة[1].

يقول "مرسيا إلياد" إنّ في قصّة "دميترا" دعوةً إلى تعلّم الأسرار التي تطهّر الروح بالنار (وهي تعاليمها السريّة)، فيعود الإنسان إلهًا كما كان، لأنّ روحه هي الإله الذي يجب أن يصل إليه، وعندما يصل إليه يبلغ الخلود[2].

ج – إيلوزيس: التاريخ – المعبد – الكهنة وضباط الاحتفال: إيلوزيس مدينة صغيرة، تبعد قليلاً عن أثينة"، وفيها يقوم معبد إيلوزيس المشهور الذي تقام فيه احتفالات الأسرار[3]. وكان المسارّون في هذا المعبد قسمين: الأول منهم لا يعرف أكثر من كلمات السرّ والإشارات، أما الثاني فهو المطّلع على جوهر الأسرار. وهذا القسم الثاني من المسارّين يتميّز بشيمه العالية، ويُسمَح له بالدخول إلى عمق الهيكل، حيث يحصل على الأنوار[4].

أمّا سكان إيلوزيس، فقد ظلّوا، مدّة طويلة، يستأثرون بمعبد إيلوزيس وبأسراره. ومع احتلال "إيريكتس" ملك أثينة لإيلوزيس، اختلطت تلك البلدة الصغيرة بدولة الفاتحين

---

١ – مرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ١/ ٣٦٠ – ٣٦٢
٢ – المرجع نفسه، ١/ ٣٧٠
٣ – Caillot R. C, Annales maçonniques, T. 1, p. 50 - 51
٤ – Ibid, p. 36

وحضارتهم، وسُمح لها أن تحتفظ باحتفالاتها الخاصة، وبأن يظلّ الكهنوت محصورًا بأسرار "أومولقوس" ملك أيلوزيس. ومنذ تلك المرحلة، صارت أسرار إيلوزيس ملكًا لشعب مينيرفة. وسُمّيت احتفالات إيلوزيس وإسراريّتها باسم "سيريس" أيضًا، إلاّ أنّ الاسم الأول أكثر شهرة. ومع الوقت، صارت أسرار إيلوزيس (و"سيريس") أهمّ ما في عبادة الآثينيّين.

وظلّ اللاهوت محصورًا بالملوك وأسرهم، في خلال الحكم الملكيّ بأثينة. ثمّ صار الحكم جمهوريًا، فاستلم إدارةَ الأسرار أحدُ القضاة، وحمل لقب "الحاكم الأوّل" Archonte – roi. واقتسم العملَ اللاهوتيّ ومهامّه أربعةٌ:

١ – **الكاهن الأعظم Hyérophante**: وقد سمّوه أيضًا "النبيّ"، لأنّه يعني: مَن يكشف الأمور المقدّسة، أو "قائد المسارّين". وهو سيّد الأسرار، وشخصيّة مقدّسة، تلامس شخصيّة الآلهة، ويتولّى منصبه مدى الحياة، ويُمنع عليه التلفّظ باسم الإله الأكبر، ويُكسى برموز الألوهة، ويغطّى بالأرجوان، ويلبس إكليلاً، ويُرسل شعرَه، ويجلس على عرش، ويعاونه عدد من الوزراء الذين يسمّون "مفسّري الأسرار (أو المرشدين)"[١].

وكان الكاهن الأكبر يلقّن المسائلَ المقدّسة، وهو مواطن أثينيّ، متقدّم في العمر أو كهل، يحتفظ بمركزه مدى الحياة، مكرّسًا حياته في الهيكل، ويعيش في تقشّف، وفي أكثر الأحيان لا يتزوّج. ولكنّ بعضهم كان متأهلاً، لذلك كان شرط قيادتهم الأعمال الإسراريّة أن يبتعد عن أيّ اتصال جسديّ بزوجته، في خلال ممارسة الأسرار. وكان تكريسه كاهنًا يتمّ عبر طقوس تطهيريّة خاصّة، يُغمّس، في خلالها، في مياه البحر. ويُفترَض أن يكون قدوةً من الناحية الأخلاقيّة. ولأنّ الظروف المطلوبة في الكاهن قاسية، لم يكن ممكنًا أن يرث منصبه.

١ – Ibid. p. 39 - 40

هذا الكاهن الأكبر كان يمثّل خالقَ الكون في الاحتفالات الإيلوزيسية. ووحدَه كان له حقّ الدخول إلى أعماق الهيكل، إلى رواق الأسرار، وقدس الأقداس. وكان يظهر شكله للمُسارّ مرةً واحدة في خلال الإسراريّة، مكللاً بالضوء. ووحدَه كان يحقّ له أن يكشف للمسارّ الأمور الباطنية، وأن يعلنه مسارًّا أنهى تكريسه. كما يحقّ له أن يرفض من يراه عاجزًا عن كتم الأسرار. وكان واجبه أن يُشرف على تعليم المرشّحين للإسرارية الذين كانوا يقسّمون مجموعاتٍ، ليتلقّوا التعليم التمهيديّ من حفظَة الأسرار. أما اسم الكاهن الأكبر الحقيقيّ فلا يُلفَظ البتة، كما سبق أن أشرنا[١]، تمامًا كأسماء أصحاب المناصب الأربعة الأساسيّة في الطقوس الاحتفالية.

٢ – حامل المشعل Dadouque: وهو الشخص الذي تكون مهمّته حمل المشعل المقدس، وعلى صدره صورة شمس ذهبيّة، وتكون عصبةُ رأسه معقودة مع شعره الطويل بشكل إكليل. أمّا ثوبه، فيشبه ثوب الكاهن الأعظم. وهو يمشي على رأس حاملي المشاعل الآخرين. وكان حامل المشعل يُنتخَب مدى الحياة. وكان يحقّ له بالزواج، وغالبًا ما يكون منصبه وراثيًّا[٢].

٣ – المنادي المقدّس Hyérocerycе: وكان يُعطَى بزينة الإله "عطارد"، ويلفظ العبارات المقدّسة، ويسهر على صحّة الأسرار، عن طريق إبعاد الجهّال عن معبد إيلوزيس.

وكانت وظيفته تشمل، أيضًا، إدخال المرشّحين للإسراريّة إلى المعبد، والمحافظة على الصمت العميق فيه. وكان يحمل عصًا نُقش حولها ثعبانان، وعلى رأسها جناحان – وهي عصًا خاصّة بالإله "عطارد".

---

١ – Dudley Wright, **The Eleusinian mysteries and rites**, London: The theosophical publishing house, no date, p. 38 - 39

٢ – Ibid, p. 42

٤ – المساعد في المذبح **Epibome**: وكان جبينه يحمل هلالاً من فضّة، وهو يساعد الكاهن الأعظم في مهامّ وزارته.

وكان هؤلاء الأربعة جميعًا يلبسون أردية أرجوانيّة، وعلى رأسهم أكاليل من الصنوبر أو الآس، وعلى أكتافهم عُلّق مفتاح(١).

وكان عدد من الكهنة، من الدرجة الثانية، يعاون هؤلاء الأربعة، يُدعى بعضهم "حَمَلَة المشاعل" Iacchogogues، مهمّتهم محصورة بالعبادة. وهناك أيضًا "حاملو النار" Pyrophores، (أو الطاهرون)، ومهمتهم الاهتمام بالطقوس السريّة(٢).

إضافةً إلى هذا، كان ثمّة كاهنات ترئسهنّ امرأة من الفيليديّين، وظيفتهنّ الاهتمام بالاحتفالات الأقلّ أهميّة، ويدعين "النحلات" Mélisses، في حين تُدعى رئيستهنّ "الكاهنة الكبرى" Hyérophantide؛ وهي تشارك في الإسراريّة مع الكاهن الأكبر، كما سنرى. ولا يحصل على هذا المنصب إلا النساء ذوات الحظوة الخاصّة.

وكانوا يختارون الكاهنات من أسرة "أومولفوس" أيضًا؛ والكاهنة الكبرى تصير كذلك مدى الحياة. وكان يُسمح لها بالزواج. وفي تكريسها كاهنةً، كان يؤتى بها عاريةً إلى ضفّة ماء مقدّس، وتغمّس يدها اليمنى فيه، ثم يعلنها الكاهن الأكبر كاهنة مقدّسة، مكرّسة لخدمة الهيكل. وكانت وظيفته الإشراف على إعداد النساء اللواتي سيُكرَّسْنَ كاهنات؛ وكانت تحضر الاحتفالات وتشارك فيها، ولها دور في تكريس المسارّين الذكور.

ويمكننا إضافة أربع مواطنين إلى المناصب التي ذكرنا، الاثنين الأخيرين منهم يجب أن يكونا من الإيمولفيديّين والسيريسيّين، والأربعة يتقاسمون وظيفة الحاكم الأول،

---

١ – Caillot R. C, Annales maçonniques, T. 1, p. 40 - 42

٢ – Ibid, p. 42 - 43

ويدعون "مفتّشين"[1] (Pimenètes). وكان الشعب ينتخب كلّ عام عشرة أشخاص لترؤّس الذبائح، كلّ منهم يدعى "كاهنًا" Hiérophoé.

وكانت ميداليّات إيلوزيس تمثّل "دميترا" (و"سيرسيه") إلهة الحصاد على عربة يجرها تنّينان من طرف، ومن الطرف الآخر خنزير بريّ. وقد تمّ تكريس الأمبراطور الروماني "أدريانوس" في أسرار إيلوزيس.

أما معبد المدينة فقد دُمّر، للمرّة الأولى، في خلال الغزو الأثينيّ، فأعيد بناؤه. ودمّره ثانية إكزرسيس، وأعيد بناؤه، ولكن مُنع الميديّون والفرس من دخوله منعًا باتًّا[2]. وعندما جاء "بريكليس" أراد حماية المكان الذي تمارَس فيه أسرار "دميترا" (صار اسمها مع الرومان "سيرسيه"، وصار اسم ابنتها "برسيفونة" "بروميتيه")، فأعاد بناء المعبد، مستعينًا بأشهر البنّائين. وكان المعبد بشكل مستطيل (مربّع طويل)، يبلغ طوله ٣٦٣ قدمًا، وعرضه ٣٠٧ أقدام؛ وهو من المرمر، موجّه نحو الشرق، تزيّن واجهته الرئيسة عشرة عواميد مسنّنة، هي صالةُ استراحةٍ رائعةٌ؛ وكانت عواميد عشرة أخرى تسند البناء، من الجهات الأربعة، ويحيط به سور مرمريّ أبيض، يجتمع في باحته الكبيرة المسارّون في الأسرار الصغيرة، قبل انتهاء إسراريتهم.

وكان المعبد قسمين: الأوّل هو "الحجرة الروحية" Nef، والثاني هو المعبد. وكانت الحجرة الروحية من أكبر معالم اليونان القديمة؛ وتتألّف من صفوف عواميد بعضها فوق بعضها الآخر. أمّا المعبد الذي لا يحقّ لغير الكاهن الأعظم دخوله، فيفصله عن الحجرة الروحيّة صفّ من الأعمدة، ويحاط بحجابات أرجوانيّة. وفوق سقف المعبد نافذة كبيرة. وكانت حدائق رائعة تتراءى خلف الهيكل، تحيط بها أسوار طويلة، تعبرها سواقٍ ومجاري مياه[3].

١ — Ibid. p. 48 - 49

٢ — Ibid. p. 50 - 51

٣ — Ibid. p. 51 - 57

د – احتفالات إيلوزيس: يبدو أنّ هذه الأسرار كانت، في الأساس، تقوم كلّ ثلاث سنوات[١]، ثم صارت تقام، في المرحلة الرومانيّة، كلّ عام. واحتفالات إيلوزيس بدأت، على الأقلّ، منذ ثمانمئة عام قبل الميلاد، واستمرّت في المرحلة الهلّينيّة[٢]. وسنعرض لهذه الاحتفالات كما عُرفت في صورتها الأولى.

وكانت هذه الطقوس تفرض على المسارّ السريّة التامة، وإلا تعرّض لانتقام إلهيّ. وقد انقسمت الأسرار قسمين: الأسرار الصغرى، والأسرار الكبرى. وتتألف الصغرى من درجة واحدة، في حين تتألّف الكبرى من درجتين اثنتين، فيكون مجموع درجاتها ثلاث درجات.

وقيل إنّ الأسرار الصغرى تأسّست عندما طلب "هرقل" أن يُسارّ، وكان آنذاك في أثينة، وقد خضع لشروط الإسراريّة، مع أنّه لم يكن أثينيًا، لأن التكريس ممنوع على غير الآثينيّين، وكان "هرقل" قد رُفض في المرة الأولى للجرائم التي ارتكبها، ولكنّه عاد فقُبل فيما بعد[٣].

وكانت "برسيفونة" في الأسرار الصغيرة تسمّى "فيريفانا"، وفي الأسرار الكبيرة تسمى "كور"، لأنّ أحدًا في تلك الأسرار كلّها، على ما يبدو، لم يكن يسمّى باسمه الحقيقيّ. وكان على المرشح للإسراريّة أن يتعلّم عددًا من المعارف الدينية، قبل أن يُسارّ في الأسرار الصغيرة، ليتمكّن من فهم الأمور التي ستُكشَف له معانيها في الأسرار الكبيرة. وهو يمثّل هنا "برسيفونة" نفسها[٤].

١ – Dudley Wright, **The Eleusinian mysteries and rites**, p. 27

٢ – Jeremy Naydler, **The elusinian mysteries and other mystery religions**, in: Rosicrucian Digest, N. 2, 2009, p. 28

٣ – Dudley Wright, **The elusinian mysteries and rites**, p. 28 - 29

٤ – Jeremy Naydler, **The elusinian mysteries and other mystery religions**, p. 28 - 29

وكان هدف الأسرار الصغرى الشرح الباطنيّ لظروف الروح غير الطاهرة التي في الجسد، والغارقة في المادّة الطبيعيّة. وكانت الأسرار الكبرى تعلّم أنّ الروح غير الطاهرة هذه تقيم في مملكة الموتى (مملكة "هاديس" أو "بلوتو")، حيث تعاني البؤس من أجل أن تتطهّر من أدرانها العالقة بها؛ في حين أنّ الروح المطهّرة تقيم في النعيم (الفردوس)، وتحمل قوّة إلهيّة. وبهذا كانت الروح في الإسراريّة الكبرى تُصَوَّر متسامية نحو حقائق الرؤيا العقليّة.

وكانت الأسرار تُصَوِّر، بطريقة دراميّة، المجتمعَ المدنيّ وتأسيسه، والثواب والعقاب، وتنقل المسارّ من مفهوم تعدّد الآلهة، إلى مفهوم الإله الواحد الذي كان السرّ الأكبر في الإسراريّة الكبرى. وكان الطقس الإسراريّ يتمّ، في الهيكل الإيلوزيسيّ، من خلال رموز وصور حيوانية، لا يفهمها إلا المسارّون[١]. وقد ذكر "أرسطو" أنّ الهدف من تعلّم تلك الأسرار ليس فقط اكتساب المعرفة العقلية، بل كان، أساسًا، تجربة محوّلة، لها تأثيرات عاطفية قويّة، وبالتالي اختبار مشاعر جديدة ذات تأثير مغيّر في حالة العقل والفهم[٢].

وكانوا يحتفلون بالأسرار الصغرى بين التاسعَ عَشَرَ والحادي والعشرين من آذار؛ وهي كالأسرار الكبيرة، يقوم بها المسؤولون عينهم. وكانت الأسرار الصغرى تبدأ بتضحية لـ"ديميترا" و"برسيفونة". والهدف منها كان وضع المسارّ في حالة من التطهُّر؛ وتتضمّن عددًا من الإرشادات والتحضيرات للأسرار الكبرى.

وكانت قيادة جميع الاحتفالات حكرًا على أسرتي "أومولفوس" و"كيريسيس" العريقتي النسب في إيلوزيس، وتعودان بنسبهما إلى ما قبل احتلال أثينة للمدينة. وقد

١ – Dudley Wright, **The elusinian mysteries and rites**, p. 30

٢ – Jeremy Naydler, **The elusinian mysteries and other mystery religions**, p. 29

بقيت كهنة إيلوزيس تتحدّر من هاتين الأسرتين[1].

أما الأسرار الكبرى فكان احتفالها يبدأ في الخامس عشر من أيلول، ويمتدّ حتى الثالث والعشرين منه. وفي ما يأتي عرض للاحتفالات خلال أيامها:

١ – كان اليوم الأول من الاحتفالات يُدعى "التجمّع"، لأنّ كلّ مَن أنهوا الأسرار الصغرى يجتمعون ليحتفلوا بالأسرار الجديدة. وكانت أثينة تعرف، خلال هذا اليوم، احتفالاتٍ دينيّةً خاصّة، يقودها كهنة، تُقدَّم خلالها ذبائح، وتُرفَع الصلوات. ثمّ يأمر الكاهن الأكبر الناسَ بغَسل أيديهم في مياه مقدّسة، مخصصة لهذا. وكان "المنادي المقدس" يدعوهم إلى حفظ الأسرار التي سيرونها، وإلى احترامها، ويأمرهم بالصمت في أثناء الاحتفال.

وكان المقبولون للأسرار الكبرى يجتمعون خارج الهيكل، يقود كلاًّ منهم مرشد mystagogue يأمره بالصمت. وفي نهاية الاحتفال، كانوا يطهّرون باحتفال النار. وكان على النساء أن يسبلْنَ شعورهنّ على أكتافهنّ، ولا يتبرّجنَ البتّة.

٢ – وكان اليوم الثاني عنوانه: "إلى البحر المقدّس"؛ وفيه يذهب المسارّون جميعًا إلى البحر، أو إلى بحيرتين مخصّصتين لطقس التطهّر. وكان هذا اليوم مكرّسًا لـ"زُحل"، وهو كوكب يرمز إلى العقل الخالص. ويسبق التطهّرَ بالماء اعترافٌ؛ ويكون عدد الغَمْسات في الماء بحسب الذنوب. ولا يُعتبَر التطهّر منتهيًا إلاّ بعد أن يُرَشّ على الماء دمُ خنّوصٍ (خنزير صغير) مأخوذٍ من أجل التضحية، لأنّ على كلّ واحد من الحاضرين أن يحمل خنّوصًا مطهّرًا يُضَحّى به في اليوم الثاني. وكانوا يضحّون بالخنزير لأنّه يرتبط بحقول الذرة. وكان بعضهم يضحّي بثور أمام معبد الإله "زوس".

---

١ – Dudley Wright, **The elusinian mysteries and rites**, p. 33

٣ – وفي اليوم الثالث، كان أيّ نوع من الملذات، حتى البسيطة منها، ممنوعًا. وكان الجميع يصوم حتّى حلول الظلام، ثم يشترك في أكل حلوى مصنوعة من الحبوب، والذرة المجفّفة، والملح، والرمّان، والخمر المقدّس، مع الحليب والعسل. ويُعتبَر هذا اليومُ يومَ الحِداد، وهو مخصّص لذكرى حزن "ديميترا" على ابنتها "برسيفونة".

٤ – وفي اليوم الرابع، كان الحدَثَ الرئيسَ الموكبُ الاحتفاليُّ الذي يتقدّم، حاملاً سلال "ديميترا" (سلال "سيريس")، ويصيح الجميع: "عاشت "سيريس" (أو "ديميترا")". وتحمل النساء هذه السلال التي تحتوي على سمسم، وحزمة صوف، وحبّات الملح، والذرة، والرمّان، والقصب، وأغصان اللبلاب، ونوع من الحلوى، وأحيانًا أفاع. والحلوى المذكورة فيها بذر خشخاش، لأنّ "ديميترا"، عندما وصلت إلى اليونان، أُعطيَت بعض حبّات الخشخاش ،حتى تتمكّن من النوم. وكان الجميع يحمل تمثالاً لـ"برسيفونة" في يدها غصن خشخاش، ويحيطونه بعرانيس الذرة.

٥ – واليوم الخامس كان "يوم المشاعل"، وذلك لأنّ كلّ من يُسارّون كانوا يسيرون ليلاً، اثنين اثنين، حول هيكل إيلوزيس، يقودهم "حامل المشعل" نفسه. وكانوا يلوّحون بالمشاعل، وينقلونها من يد إلى يد، ليمثّلوا هَيَمان الإلهة في خلال بحثها عن ابنتها، حين دلّها نور مشعل توقَّدَ من نار إتْنَة.

٦ – واليوم السادس كان يُدعى "إيكوس"، وهو اسم آخر للإله "ديونيزيوس" (أو "باخوس")، الإله الذي واكب الإلهة في بحثها عن ابنتها؛ وكان يحمل مشعلاً في يده، ويحمل الجميع تمثالاً لهذا الإله، مرفوعًا على عربة يجرّها ثور أو أكثر، وتنطلق المسيرة من معبد "إياكوس" بأثينة، نحو إيلوزيس، عبر الممرّ المقدّس، يصحبها حمَلة المشاعل، وسواهم ممّن يُعيَّنون لذلك.

ويُعتبر اليوم السادس ذروة الاحتفال، إذ يجتمع المحتفلون، حاملين التمثال وأغصان

الآس، متراقصين في الطريق، مرتّلين، ومنشدين، وعازفين على بعض الآلات الموسيقيّة. وفي الطريق، تتمّ عدّة وقفات في أماكن مختلفة، معيّنة، قرب بيت "بيتالوس" الذي استقبل الإلهة "ديميترا"، عندما جاءت تبحث عن ابنتها، كما قيل، فعلّمته زراعة التين – وقد صار التين عندهم شجرة مقدّسة. ويمرّ الحشد بجسر فوق نهر "سيفيستوس (قيل إنّ "هاديس" ("بلوتو" الروماني) قد نزل منه إلى العالم السفليّ مع "برسيفونة"). وعند كلّ معبد يمرّون به، يقدّمون الذبائح، ويرفعون الأناشيد، والصلوات، والرقصات الاحتفاليّة. ثمّ يدخلون معبد إيلوزيس من المدخل المقدّس، ويكون الليل قد حلّ، فتُضاء المشاعل التي يحملها الحشد، وتصير المسيرة عندئذٍ مسيرة "ليل المشاعل"؛ وكانوا يظنّون أنّ للزفت والصمغ اللذين تتكوّن منهما مادة الاشتعال في المشعل قدرةَ إبعاد الأرواح الشريرة. وكانوا يعتبرون "إياكوس" ابنًا لـ"ديميترا". كما كان الحشد يحمل عددًا من الشعارات الرمزيّة، ويبلغ عدد المحتفلين حوالي أربعين ألفًا أحيانًا. وكانت هذه الشعارات مَهاويَ من السعَف، ترمز إلى مهواة "إياكوس" المقدسة، وهي تستعمل في فَصل القمح عن القشرة، وتُعتبَر رمزًا للقوة التي تفصل الفاضل عن الشرير. كما كانوا يحملون ضفائر من القصب، وسلالاً ترتبط بعبادة الإلهة وابنتها.

وكان على المحتفلين أن يسيروا مسافة اثنين وعشرين كيلومترًا. وكان يُسمَح للنساء اللواتي يُرِدنَ أن يركَبْن عربةً بدفعِ جزية لقاءَ ذلك، تبلغ ثمانية آلاف دراخما. وعندما يبلغ الحشد معبد إيلوزيس، يضع الأشياء المقدسة عند الأكروبوليس.

٧ – وفي اليوم السابع، كانوا يحملون تمثال الإلهة "ديميترا"، عائدين إلى أثينة. وكانت تتخلّل المسيرةَ احتفالاتٌ خاصة، ووقفاتٌ عديدة، في أماكن مختلفة. أمّا الذين يبقون في إيلوزيس، فيخصّصون الوقتَ للرياضة، في حين يبدأ المرشّحون للإسراريّة، في الليلة اللاحقة، تهيُّأهم لتلقّي الأسرار الكبيرة، ويُحظَر عليهم أن يجلسوا ليرتاحوا مطوّلاً في خلال المسيرة، فعليهم أن يقلّدوا الإلهة الباكية في خلال بحثها عن ابنتها.

٨ – وكان اليوم الثامن يدعى "أبيدوريون"، لأنّ "إيسكولابيوس" القادم من أبيدوريوس إلى أثينة طلب أن يُكرَّس، فكرّروا له الأسرار الصغرى، ليتمكنوا من تعليمه الأسرار الكبرى؛ وصار تكرار هذه الأسرار، قبل البدء بالأسرار الكبرى، تقليدًا؛ كما كانوا يقبلون في هذا اليوم أيّ مرشّح جديد، مؤهّل لها. أمّا السبب الثاني لتكرار الأسرار الصغرى في هذا اليوم، فهو أنّهم كانوا يعتبرونه رمزًا لسقوط الروح في مدار القمر، وتكرار الأسرار يرمز إلى طلب الروح وداع كلّ ما هو ذو طبيعة سماويّة، لتغرق في نسيان تامّ لطبيعتها الإلهيّة وطُهرها، وتدخل في ظلام الجهل والخطإ الجسديّين. وفي هذا النهار، كانوا يبدأون بتضحية مقدّمة لـ "دميترا" و"برسيفونة"، وهي ذبيحة حيوانيّة. غير أنّ هذه الذبيحة كانت تشترط طريقة دقيقة جدًّا لتنجح، وتصير مقبولة.

٩ – وكان اليوم التاسع "يوم الأوعية الأرضيّة"، لأنّ من عاداتهم فيه أن يملأوا إبريقين نبيذًا، فيوضَع الأوّل في شرق المذبح، والثاني في غربه. وبعد قراءة عدد من الصلوات، يُلقى الإبريقان أرضًا، ليختلط نبيذاهما. وكانوا يتلون صلاتين: أولاهما موجّهة إلى السماء، وهي صلاة المطر، في حين أنّ الأخرى كانت موجّهة إلى الأرض، وهي صلاة الخصب. وكانت العبارة التي يستعملها الكاهن الأكبر لإعلان اختتام الاحتفال هي: "راقبوا، وأعرضوا عن الشرّ" conx om pax؛ وقيل إنّها مصريّة الأصل، استُعمِلت لإعلان اختتام طقوس "إيزيس".

١٠ – وفي اليوم العاشر كان أغلب الناس يعودون إلى منازلهم[١].

هـ – **إسراريّة إيلوزيس:** كان الشرط الأول على المرشّح للأسرار أن يكون حرّ النسب، أثينيًّا. ولكنهم قبلوا في الأسرار أحيانًا بعض العبيد، أو بعض الأجانب إذا قدّمهم أثينيّ للإسراريّة. وكان الرجال والنساء على السواء، ومن مختلف الأعمار، يُقبلون ليُسارّوا؛

١ – راجع في كل هذا: Ibid, p. 48 - 61

وكان يمكن للأب أن يطلب تكريس ابنه، منذ طفولته، ولكنه يُكرّس في أسرار الدرجة الأولى فقط، وينتظرون أن يبلغ مرحلة معيّنة من النضوج، ليتمّموا تكريسه، فالإسرارية تتألّف من ثلاث درجات، كما ذكرنا: الدرجة الأولى في الأسرار الصغرى، والدرجتان الثانية والثالثة في الأسرار الكبرى.

وكان من الممكن لطالب الأسرار أن يُكرّس في شهر آذار، في الدرجة الأولى، إذا قُبل، خلال احتفالات الأسرار الصغرى؛ وتكون صعوبات التكريس فيها أقلّ بكثير من تلك التي في الدرجتين الثانية والثالثة المخصصتين للأسرار الكبرى. وكان على المسارّ في خلالها أن يحافظ على طهارته تسعةَ أيام، قبل الاحتفال، وفي كلّ يوم، يلبس تيجانًا وأكاليل زهر، ويرفع الصلوات، ويقدّم الذبائح. وكان المرشد، يهيّؤه، مباشرةً قبل الإسرارية، ويعلّمه قصة "ديميترا" و"برسيفونة"، وطبيعةَ التطهُّر، بالإضافة إلى بعض الطقوس الضروريّة الأخرى، كما يعلّمه أيّ الأطعمة يُسمَح له بتناولها، وأيّها يُمنَع عنه؛ ونوعَ الأضاحي. ولا يُقبَل في الإسرارية أحد قبل هذا التحضير. واللافت أنّ هذه الدرجة الأولى لم تشتمل على عقائد سريّة، بل إنّ التعليم كان يتمّ من خلال تأمّل الأغراض المقدسة، في خلال الاحتفالات التي يقودها الكاهن الأكبر. ولكنّ الكتمان كان مطلوبًا بإلحاح. وكانت الاحتفالات التي تجري في الليل تترك في المسار انطباعًا قويًا بالأمل في حياة آتية. وكان الصوم عن الطعام والشراب أمرًا أساسيًّا؛ غيرَ أنّ المسارّ لم يربطها بالتكفير عن الذنوب، فهي في هذه الدرجة إعادة تصوير لحدث حصل في حياة "ديميترا"، وهدفه جعل الجسد أطهر. وعند مدخل المعبد، كانوا يضعون أوانيَ فيها ماء مقدّس، كما أسلفنا. وفي حال كان المسارّ كثيرَ الآثام، كان يحتاج إلى يومين، أو ثلاثة إضافيّة، ويُدهَن بالزيت، أو يُغمَّس مرارًا بالماء، قبل الاحتفال[١].

---

١ - Ibid, p. 63 - 70

وفي خريف السنة نفسها، متى وافق الكاهن الأكبر، يحقّ لطالب الأسرار أن يتقدّم ليُكرَّس في الدرجة الثانية، ويتلقّى الأسرار الكبرى (واسمها "الميستا" Mysta)، أما المسارّ فيها فيدعى "الروحاني" Myste[1]). وبعدها، ينتظرون مرور عام كامل ليتمّ تكريسه في أسرار الدرجة الثالثة (واسمها "الإيبوبتا" Epopta، أي درجة المسارّ الكامل)، وعندئذٍ يرى ويسمع كلّ ما يحصل داخل المعبد. ولكن، حتّى في هذه الدرجة، كان قسمٌ من الاحتفال لا يراه غير الكاهن والكاهنة الأكبرين، في المكان المخصّص لهما من المعبد.

وكان جوهر الإسراريّة أن تستعيد الروح ما خسرته بفعل سقوطها، فترتفع، لتدخل في تواصل مع الآلهة. وكان المسارّ يحاول أن يقلّد ولادة الإله من خلال حركات رمزية. وكان يُفترَض فيه أن يختبر نوعًا من التجدّد، ويدخل في حال وجود جديد، فيحصل على النور والمعرفة، بعد أن كان جاهلاً، لا يرى غيرَ القشور. كلّ هذا بشرط أن يُقسم على الكتمان. وكان نصّ القسَم يُتلى بصوتٍ عالٍ داخل الهيكل، وفيه: "إنّ القانون يعاقب بالموت كلّ مَن يُفشي الأسرار"[2]. كما كان كلّ من يتسلّل إلى الهيكل، من غير المسارّين، يعاقبه القانون بشدّة[3].

وكان المرشّحون للإسرارية يمضون اليومين اللذين يسبقان تكريسهم في الوحدة، والتأمّل، والصوم[4]؛ وهذا يرمز إلى انسحابهم من عالم المادّة. وكان الصوم مطلوبًا، خوفًا من اختلاط الأشياء النظيفة المطهَّرة بغير النظيفة.

---

١ – Caillot R. C, **Annales maçonniques**, T. 1, p. 60

٢ – Dudley Wright, **The Eleusinian mysteries and rites**, p. 76

٣ – قيل إن المرشح، بعد أن يَطَّهَّر بالماء، كان يضع رجله فوق جلود الذبائح الدامية، ويقسم على كتم الأسرار.
(Caillot, R. C, **Annales maçonniques**, T. 1, p. 59)

٤ – Ibid, p. 57

وكانوا يكتبون على ألواح عند مدخل المعبد أنواع الأطعمة الممنوعة، ومنها أنواع من الأسماك (كالأسماك الصافرة، والسرطانات، والبوري، وسواها). وكان إعداد المرشّحين يقوم به الكاهن الأكبر عادةً، إلا أنّ تكاثُر أعداد المرشّحين للأسرار اضطرّهم إلى إشراك المرشدين في هذا. وفي خلال الاحتفال، كان على المرشّح أن يتفوّه ببعض الكلمات التي يتعلّمها مسبقًا.

وكان قبول المسارّين، في الدرجة الثانية، يتمّ في اليومين السادس والسابع من احتفالات الأسرار الكبرى التي تكلّمنا عليها. وكان المسارّون يقادون إلى الهيكل، معصوبي الأعين، ويبدأ الاحتفال بالصلوات والتضحيات التي يقوم بها "الحاكم الثاني" 2ème Archon، والمُسارّ متوّج بأغصان الآس؛ وعند دخوله، يغسل يديه بالماء المقدّس. وكانوا يستعملون في التطهير، أيضًا، الملحَ، وأوراق الغار، والشعير، وأكاليلَ الزهور. وكان هذا الاحتفال الاستهلاليّ يُقام في البهو الخارجيّ للمعبد، لأنّ المعبد يكون مقفلاً. وكان منادٍ يتقدّم، ويقول: "أيّها الجاهل، ابتعد من هنا، يا مَن ليس طاهرًا، ويا مَن روحُه لـمّا تتحرّر من الاثم"[1]. وللتأكّد من أنْ لا دُخلاءَ بين المسارّين، كانوا يطرحون أسئلةً خاصة، ليُجيب المرشّح عنها. ثم يغمسون أيديَهم، مجدّدًا، بالماء المقدّس، ليجدّدوا عهدهم بالكتمان.

ويخلع المرشّحون للإسرارية، بعد هذا، ألبستهم، ويلبسون جلودَ أيائلَ فتيّة[2]، فيتمنّى لهم الكهنة التمتّع بكلّ السعادةَ والغبطة التي ستحملها لهم الإسرارية، ويتركونهم وحيدين. ويغرق المكان، لدقائق، في ظلام تامّ؛ ثمّ تُسمَع أصوات بكاءٍ وندب، وقصف رعود هائلة تهزّ المكان، وتضيء الظلمةَ، من آن إلى آخر، لمعاتُ البروق، وتعكسُ بعضَ

١ – Dudley Wright, **The Eleusinian mysteries and rites**, p. 81

٢ – ذكر بعضهم أنّ المسارين كانوا يقتربون من باب المعبد، في أوّل الأمر، عارين تمامًا، ثم يُلبسونهم جلود الأيائل. (Caillot, R. C, **Annales maçonniques**, T. 1, p. 72)

أضواء النار البعيدة ظلالاً مرعبة، وتظهر من كلّ مكان أشباح، في تردّد أصوات الندب. وفي خلال هذا، تدفع كلّ مسارّ يدٌ لا يراها، وتشدّ شعرَه، ويُضرَب، ويُلقى أرضًا. ثمّ يبدأ ضوء خفيف بالظهور من بعيد، ويتراءى له مشهد مخيف، إذ تُفتح أبواب الجحيم، ويلوح عالم الموتى، بكلّ ما فيه من ألم ومآسٍ. بعد هذا يُسمَع صوتُ الكاهن الأكبر - الذي يمثّل قاضيَ الأرض - شارحًا لهم معنى ما يحصل أمامهم، مهدّدًا المسارّين ومتوعّدًا بعقاب إلهي لمن لا يحافظ على الأسرار. وكثيرًا ما تظهر قطرات عَرَقِ المعاناة على وجوه المسارّين، لهول ما يمرّون به؛ كما يُسمَع صوت كلاب تنبح، وتظهر أشكال شيطانيّة.

وأخيرًا، تُقفَل أبواب الجحيم فجأةً، ويتغيّر المشهد، فيظهر أمام المسارّين داخلُ المعبد، غارقًا في النور، وفي وسطه تمثال الإلهة "ديميترا"، مرصّعًا بالأحجار الكريمة، وتُسمَع أصوات موسيقى سماويّة رائعة، وتفوح روائح العطور، وتظهر لهم أرض معشوشبة جميلة، يمرح فيها المباركون[1].

وفي خلال التكريس، يطرح الكاهن الأكبر على مَن يُسارّ مجموعة أسئلة يجيب عنها كتابةً. وتُكشف الأسرار المقدّسة لهم من كتاب يُدعى "بتروما" Petroma، يُحتفَظ به بين حجرين مثبتين ببعضهما بالإسمنت.

وكان قبول الطلاب في الدرجة الثالثة يتمّ في ليل اليوم السابع من احتفالات الأسرار الكبيرة. وهي تُدعى، كما أسلفنا، "الإبوبتا" Epopta، أي درجة المسارّ الكامل. وكان يتعلم عددًا من الإشارات والكلمات، قيل إنّها تؤمّن لروحه السعادة الأبديّة إذا لفظها وقام بها قُبيْلَ الموت[2]. ولهذا كان المسارّ، بعد عدد من الاحتفالات الخاصّة، يدخل صحن الهيكل pronaos، ويُسأل عند الباب أذاقَ ثمرَ "ديميترا"؟ وكان عليه أن يجيب: "لا!

١ – Dudley Wright, **The Eleusinian mysteries and rites**, p. 82 - 83
٢ – Ibid, p. 85

لقد أكلتُ من "الطبْل"[1] وشربتُ من "الصَّنج"[2]، وحملتُ "الجرّة"[3]، وانسللتُ إلى الفراش." فتُفتح له طريق الدخول. وما إن يعبر المسارّ إلى الحَرَم المقدّس حتى يصرخ الكاهن الأكبر: "ابتعدوا من هنا، أيّها الجهّال الذين دنّست أرواحهم الجريمة."[4]

ويشكّل الاحتفال الذي يمثّل اقترانَ "زوس" و"ديميترا" أبرزَ مراحل التكريس، وهو زواج الآلهة. وفي خلال هذا الطقس، كان الكاهن والكاهنة الكبيران ينزلان إلى كهف (أو غرفة سفلية)، حيث يبقيان مدّة؛ ثم يعودان إلى الحشد محاطَين بألسنة النار، ويقول كبير الكهنة، بصوتٍ عالٍ، وهو يُظهِر للمُسارّين قرنَ ذرة: "لقد أنجبت "أوبريمو" Obrimo المقدّسةُ الطفلَ المقدسَ "أوبريموس": لقد حملت القويّةُ القوّةَ." وكان المشهد دراميًا ورمزيًا، حيث لا شيءَ فيه ماديّ. وكانت المشاعل تُطفأ، والحشد ينتظر بشوق عودةَ الكاهن والكاهنة الأكبرين من الكهف المظلم (أو الغرفة المظلمة)، لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ خلاصهم مرهون بهذا الاتحاد. وكان عرنوس الذرة، وما يرمز إليه، أهمّ الرموز في الإسراريّة، لذلك تُرِك إلى الدرجة الثالثة الأخيرة. أمّا الاسم "أوبريمو" فهو اسم الإلهة الأفعى المقدسة[5].

وفي نهاية التكريس، يتناول المسارّ الكامل طعامَ الشعير الممزوج بالنعناع البريّ، كطقس يرمز إلى تواصله مع "ديميترا". وبعد أن يتناول الطعام، يكرّر مع الكاهن الأكبر: "لقد صمتُ، وشربتُ "السَّيسون"[6]. لقد أخذتُ "السفَط"، وبعد أن تذوّقته، وضعته

---

١ – هو وعاء خاص بأكل المسارّ منه، يشبه شكله الطبلَ.

٢ – هو صَنج يوضع فيه شراب يشربه المسارّ.

٣ – هي جرّة طينيّة، فيها بذور الخشخاش، والقمح، والعسل، والزيت.

٤ – Caillot, R. C, **Annales maçonniques**, T. 1, p. 70 - 71

٥ – Dudley Wright, **The Eleusinian mysteries and rites**, p. 88

٦ – "السيسون" شراب مصنوع من الشعير، والماء، وبعض المواد الطبيعيّة الأخرى.

في السلّة المقدّسة calathos، ثمّ أخذته مجدّدًا، ورددْتُه إلى "السفَط"."[1] وكانت هذه هي العبارة السريّة للدرجة الثالثة. وفي نهاية التكريس، كان المسارّ الكامل يجلس في مقعد مربع، وحوله الكهنة يقومون برقصات شعائريّة خاصّة، كما كان عليه أن ينسخ قوانين الإسرارية وقواعدها، ويوقّع على قسمه العظيم ألاّ يبوح بالأسرار التي تعلّمها[2]. ويبدو أنّ التكريس، في الدرجة الثالثة، كان يشمل خمس مراحل من التطهّر، مستوحاة من أنواع الرياضيّات الخمسة: الحساب، وعلم الهندسة، وعلم مقاييس الأحجام stéréométrie، والموسيقى، وعلم الفلك. وكان للتكريس رسمٌ يبلغ خمسةَ عشرَ دراخما، بالإضافة إلى تكاليف تكريم الرسميّين المشتركين في الاحتفال من هدايا وغيرها...

و – معاني رموز التكريس: الجسد سجن الروح، فقصاصها أن تتّحد به؛ والحياة ،كما نعرفها، هي الموت. هذا هو جوهر الأسرار[3]. من هنا، فإنّ اختطاف "برسيفونة" إلى العالم السفليّ يرمز إلى هبوط الروح في الجسد. والغرض من كلّ إسراريّة هو ربط العالم الأرضيّ بالعالم الروحانيّ.

على المسارّ أن يواجه الشياطين والأشباح، ما يرمز إلى المصاعب التي تحاصر الروح في اقترابها من الآلهة. لذلك، لا بدّ للمسارّ من الثبات أمام كلّ المسوخ والحيوانات الخطرة التي يواجهها في الجحيم. إنّ الحقيقة التي تنقلها أسرار إيلوزيس هي أنّ الرجال الحذرين، الذين يدرّبون أنفسهم بجدّية على الاهتمامات الإلهية، هم أكثر يقظة من الرجال الذي تسيّرهم الأشياء الماديّة، فهؤلاء في حالة سبات، تضلّلهم أحلامهم. هؤلاء عندما يموتون يبقون في هذه الحال، لكنّ رؤاهم ستكون أصعب بكثير ممّا رأوا في خلال التكريس. إنّ مَسحَ "ديميترا" "ديموفون" ابن الملكة بالرحيق الإلهيّ، ووضعَه بين ألسنة النار لتهبه

١ — Ibid, p. 90. وقارن: مرسيا إلياد، تاريخ الأفكار والمعتقدات الدينية، ١/ ٣٦٦

٢ — Caillot, R. C. **Annales maçonniques**, T. 1, p. 78 - 79

٣ — Dudley Wright, **The Eleusinian mysteries and rites**, p. 94 - 95

الخلود، هو رمز الإسراريّة التي تجعل الإنسان خالدًا، لأنّها ترفع طاقته الروحية، شيئًا فشيئًا، من خلال تعلّم الأسرار. وخروج الطفل من النار، وفقدانه لخلوده نتيجة خوف أمه رمز للإنسان الجاهل الذي يبتعد عن الإسراريّة، متمسّكًا بجهله. لهذا فإنّ قصة "دميترا" دعوة لتعلّم الأسرار التي تطهّر بتعاليمها السرية (وهذا هو رمز النار)، فيعود الإنسان إلهًا كما كان، لأنّ روحه هي الإله الذي يجب أن يصل إليه، وعندما يبلغه يبلغ الخلود.

وهذه الأسطورة، أيضًا، ضربٌ من تفسيرِ خلقِ الحبوب (ممثّلة بالقمح) بموتِ إلهة (هي "دميترا"). أمّا "برسيفونة"، باختطاف "هاديس" لها ونزولها إلى العالم السفليّ، فتمثّل الموت. ولهذا الموت نتائج على البشر، لأنّ "برسيفونة" أُعيدَت إلى الحياة. فالإنسان زائل، في الأساس، ولكنّه يمكن أن يستعيد حياته وخلوده (معرفته بالروح الخالدة التي فيه) عن طريق تعلّم الأسرار. وبما أنّ "دميترا" صارت وسيطًا بين الأولمب والعالم السفليّ، فقد تدخّلت في مصائر البشر، وهي تمثّل الإسراريّة التي تخلّد المسارّ. إنّ هذه الإسراريّة تكشف عن الاتصال الوثيق بين الحياة والموت، وقرب العالم المعروف من العالم الإلهيّ[1].

لقد كان المصريّون ينظرون إلى المادّة على أنّها طين، ويسمّونها ترسّبات الحياة الأولى. لهذا كان المرشّح للأسرار الإيلوزيسيّة يُلطّخ بالطين، وكان هذا موضوع التطهُّر وسببه. ويعني هذا أنّ الروح تعيش محتجَزة، طالما أنّها في حالة عبوديّة للجسد، ولهذه الحياة. من هنا كانوا يعلّقون أهميّة خاصة على التكريس والإسراريّة، لأنّهما يقوّيان في الإنسان الإرادةَ، ويُبعدانه عن الاثم والجريمة، ويضعانه تحت رعاية الآلهة، فيدفعانه إلى الفضيلة، ويؤمّنان له موتًا هادئًا؛ في حين أنّ غير المكرَّس يبقى خارجًا، في الظلام.

لقد كانت الأسرار الصغرى ترمز إلى حال الروح في عبوديّتها للجسد، ثم إلى تحرّرها من هذه العبوديّة، وإلى بساطة الفضائل المطهِّرة (النزول إلى مملكة "هاديس"

---

١ – مرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ١/ ٣٧٠.

والعودة منها). أمّا التعاليم، فلم تشمل مفاهيم عقائديّة، بل كانت تقوم على مفهوم واحد، هو خلود الروح الذي يبدو أقدمَ من أسرار إيلوزيس. وهم يركّزون على معجزة التجدّد، لا على خلود الإنسان. ومن البديهيّ ألا يتمكّن بعض المرشّحين للإسراريّة من فهم أغوار عدد من التعاليم الباطنيّة، بل إنّ كثيرًا منهم كان يستوعب ظاهرها من غير أن يستطيع الولوج إلى جوهرها، ويبقى عند مستوى الثواب والعقاب الآتيين[1]. وقصة "برسيفونة" نفسها كانت مزيجًا من مجموعة أقاصيص لاهوتيّة، وطبيعيّة، وماديّة.

لقد كان للتعاليم مستويان: أرضيّ، وفوق - أرضيّ (روحانيّ). و"برسيفونة" نفسها ترمز إلى حياة الفانين وموتهم. وكانت اليمامة مقدّسة بالنسبة إليهم، لأنّها ترمز إلى الأمّ الكبيرة، أمّ الإله "عطارد". وقد جاء في بعض الشروح أنّ "برسيفونة" ابنة الأرض الخصبة (التي تمثلها "ديميترا") هي البذار؛ والأرض تفرح لمرأى النبات والزهور؛ لكنّ هذه تذبل وتموت في الشتاء، والبذار تختفي سريعًا عن وجه الأرض عندما تُنثَر في الثرى، لأنّها تصير ملكًا لمملكة العالم السفليّ المرعبة. وعبثًا تبحث عنها الأمّ؛ لذلك تبكي الطبيعة لهذه الخسارة، وتُحتضَر. غيرَ أنّ هذه البذور تطوّر نفسها سرًّا، بعيدًا عن عيون الأرض، ثم تنبثق مجددًا، وتعود البهجة إلى الأرض، لاستعادتها ابنتها المفقودة. وفي الواقع، اعتُبرت "برسيفونة" معلّمة الزراعة والنظام.

ويرمز دخول الكهف في الإسراريّة (لأنّ الكاهن والكاهنة الأكبرين يدخلانه كما ذكرنا) إلى الدخول في الحياة الدنيويّة، من خلال نزول الروح في الجسد. وخوفًا من أن يتعرّض جمال "برسيفونة" للعنف، تنقلها أمّها سرًّا إلى صقلية، وتضعها في بيت بناه الصقالبة، وتقوم بنفسها برحلة إلى معبد "سيبيلا" أمّ الآلهة، كما جاء في الرواية الرومانيّة.

---

١ - Dudley Wright, **The Eleusinian mysteries and rites**, p. 100

هنا نجد السبب الأوّل في نزول الروح، وتركها الحياة المقدّسة، وهذا ما يرمز إليه انفصال "دميترا" عن "برسيفونة"[1].

أمّا الأيام التسعة للاحتفال بالأسرار، فترمز إلى نزول الروح من مسكنها السماويّ، فهي تمرّ في نزولها بثماني كرات: كرة العصمة التامّة، والكواكب السبعة، متقمّصةً جسدًا آخر، ومستعملةً طاقاتٍ مختلفة في كلّ كرة، إلى أن تصير في المرحلة التاسعة على اتصال بالعالم الأرضيّ، وتتقمّص جسدًا بشريًا.

وترمز "دميترا" وتأسيس الزراعة إلى تحرّك العقل نحو مملكة التجدّد، وهي أعظم ما يمكن أن تحصل عليه طبيعة ماديّة من زينة. فمن غير العقل ودوره، لن يكون في كُرَة المادّة شيء غير اللامنطق، والحياة المتوحشة.

وقيل إنّ مُسارّي الدرجة الثالثة كانوا يتعلّمون أنّ الآلهة زائلة، وأنّها تتعرّض، في خلال حياتها، للنزوات والشهوات المضلّلة التي يتعرض لها البشر؛ ويتعلّمون أن يبحثوا عن المبدإ الأسمى – عن خالق الكون الذي تخترق فضيلته كلّ ما في الوجود، ويحكم الكون بقوّته. وهكذا يرى المرشّح للأسرار الأشياء مقنّعة، في حين أنّ المسارّ الكامل يراها على حقيقتها، من غير أقنعة، أو يرى ما وراء هذه الأقنعة؛ فهو، عندما يُنهي مراحل الإسرارية، يعطى الرؤيا الكاملة. وقد رأى بعضهم أنّ الهدف من الإسراريّة هو إظهار أحديّة الله[2].

والسريّة المطلوبة في هذه الاحتفالات الإسراريّة سببها أنّ الجهّال لا يجوز أن يشاركوا المسارّين في معرفة طبيعة "برسيفونة" و"دميترا" الحقيقية، لأنّهم، متى عرفوا أنّهما زائلتان، تركوا عبادتهما.

١ – Ibid, p. 103

٢ – Loc. Cit.

أخيرًا، نشير إلى أنّ الحريّة، في ظلّ الاحتلال الرومانيّ، لجأت إلى أسرار إيلوزيس، لتعبّر عن نفسها، وهي أسرار يونانيّة الأصل (لأن "ديميترا" و"برسيفونة" إلهتان يونانيّتان)، ولكنّها تعود بجذورها إلى أبعد الأزمان، إلى قدامى المصريّين، التي انتقلت إلى معابد "إيزيس" و"أوزيريس" وطقوسها[1].

٥ – **خاتمة**: أخيرًا، يمكننا أن نقول، بعد هذا العرض، إنّ الميثولوجيا اليونانية كانت تتلاقى مع الميثولوجيات السابقة التي عرضنا لها في نقاط كثيرة، ما يدفعنا إلى القول إنّ هذه الميثولوجيات تتحدّر كلّها من أصل واحد، هو الأصل الأتلانتيّ الذي تكلّمنا عليه.

من جهة أخرى، فإنّ هذه الميثولوجيات كلها تحتوي على مستويين من الدلالات: الأول يقوم في عقل أغلب العامة، فهو يُظهر التعدديّة، ويأخذ القصة بمعناها المباشر؛ في حين أنّ الثاني لا يتوقف عند ظاهر القصة، بل يدخل إلى معانيها الخفيّة، حيث تصير العلاقات القصصيّة والشخصيات رموزًا عميقة، ولكنّ الوصول إلى هذا المستوى من الفهم لا يتمّ إلاّ عن طريق الإسراريّة التي تكشف الطريق أمام المسارّ للولوج إلى أسرار الآلهة. بمعنى آخر، فإنّ الإسراريّة هي ما يمكن أن نسمّيه "مفتاح الآلهة".

---

١ – Caillot, R. C, **Annales maçonniques**, T. 1, p. 25

خاتمة واستنتاجات

بعد هذا العرض، يمكننا أن نستنتج عددًا من الأمور:

أولاً: أنّ الميثولوجيا لم تكن مجرّد قصص خياليّة، نسجتها عقول الناس عن الآلهة، بمقدار ما أنّها كانت قصصًا رمزيّة، تحتوي على مفاهيمَ عميقة وفلسفيّة، ترتبط بأسرار الطبيعة، والإنسان، والروح، والمجتمع... ولكنّ هذه المفاهيم لا تنكشف إلاّ لمن يستطيع أن يقرأ معالمها. بمعنًى آخر، إنّ هذه القصص تُقرأ على مستويين:

– الأوّل ظاهر: وهو للعامّة، يفهمون منه ما يربط الآلهة بحياتهم، وبعدد من العوامل الطبيعيّة، والكونيّة، وسوى هذا.

– والثاني فلسفيّ – باطنيّ، لا يفهمه إلاّ الذين ارتقى عقلهم ليصلوا إلى هذا المستوى، وهُيِّئوا لمثل هذا الغرض.

من هنا، لم تكن الآلهة الميثولوجيّة مجرّد قصص وهميّة، خارقة، نُقلت للبشر، بمقدار ما أنّها ترميزات عميقة لأغراض مهمّة، تفسّر الكون، والإنسان، والروح، والطبيعة، والمجتمع، وتنظّم العلاقات بين البشر، على أساس معيّن. وهي موجّهة للنخبة التي تستطيع أن ترى جوهرها، وللآخرين من خارج هذه النخبة لكي يأخذوا بظاهرها، ويقتدوا بتعاليمها.

فقد اعتبر القدماء أنّ الله (الذي تتوزّع صورته على الآلهة ظاهريًّا) أعطى الإنسانَ مؤشّراتٍ يقتفيها لتدلّه عليه إذا تبعها. لكنّ الإنسان أضاع "الكلمة المقدّسة" حين صار يجهل معناها (وهذه هي دلالة اسم الله السريّ، مثلاً، في العبريّة). لذلك، على الإنسان أن يقرأ العلامات – الرموز التي تقوده، مجدّدًا إلى الله. وبما أنّ الله روح، لا يجوز أن يصنع الإنسان لله أشكالاً مادّيّة، بل يعبده كروح مجرّدة، من هنا أهميّة الرموز في العبادات القديمة والحديثة[1].

---

١ – Max Handel, **Ancient and modern initiation**, e-book, www.abika.com, p. 4

ثانيًا: أنّ هذه الميثولوجيات كانت تتشابه كثيرًا في جوهرها، بل إنّ جوهرها يكاد أن يكون واحدًا، كما تكشف الملاحظة الدقيقة؛ لهذا نجد قصصًا مشتركة بينها، كقصّة الطوفان، وكقصّة نزول "إينانا"/ "عشتار"/ "عشتارة"/ "أفروديت" إلى العالم السفليّ، وعودتها، وارتباط هذا بالطبيعة؛ وقصّة القتال بين آلهة العَمَاء الأولى أو آلهة التكوين (على أشكالها) وآلهة الجيل المتحدّر منها، وغير هذا.

ونجد الكثير من هذه القصص تحدّر إلى "العهد العتيق"، ولا سيّما التوراة، كقصّة طوفان "نوح" ونجاته منه، وغير هذا من قصص ممّا يحتاج بدوره إلى دراسة خاصّة به.

ثالثًا: إنّ تشابه هذه القصص، في نواحٍ كثيرة، يعني أنّ أصلها واحد، على الأرجح، وهو، عندنا، أصل أتلانتيّ، يعود إلى قارّة أتلانتيس المفقودة التي ذكرها "أفلاطون" في بعض محاوراته، للأسباب التي ذكرنا في دراستنا، تحدّرت إلى السلالات الحاكمة في مصر، وربّما إلى بعض السلالات الحاكمة الأخرى في بقايا بعض الممالك الأتلانتيّة غير المصريّة، ثمّ انتقلت إلى الشعوب الأخرى، عن طريق المصريّين، والسومريّين، والحضارات التالية لهم، يدلّ على هذا مسألة الطوفان التي رَمَزَتْ إلى غرق العالم، وعودته إلى الحياة، من خلال زوج من البشر أعاد السلالات البشريّة لتأهل الارض.

وفي هذا المجال، نجد العهد العتيق يصوّر "نوح" ينجو من الطوفان في فُلكه الذي يجمع اثنين من الأنواع تشكّل نواةَ الكائناتِ الجديدة. وفي العهد العتيق، أيضًا، "موسى" ينجو مع شعبه من ملاحقة فرعون عبر المياه التي شطرَها. وكِلا الحدَثَين يرمزان إلى حدث طبيعيّ واحد في الجوهر: خروج الإنسانيّة الفتيّة من قارّة أتلانتيس التي غرقت في البحر، للعودة إلى دورة الحياة الطبيعيّة[1].

---

١ – Ibid, p. 5

رابعًا: أنّ بعض المستنيرين المسؤولين عن صيانة المعرفة العميقة المُختزنَة في الميثولوجيا قد أسّسوا مدارسَ للأسرار، بدءًا بالمصريّين (طقوس "إيزيس")، وصولاً إلى اليونان فالرومان (طقوس "إيلوزيس" و"سيريس")، وكرّسوا فيها مجموعة قليلة دعي أفرادها "مُسارّين" لأنّهم تمرّسوا في الولوج إلى جوهر الأسرار المرتبطة بالآلهة، ودلالاتها الخفيّة، وعرفوا أسرار ظواهر الكون، والروح، والطبيعة، من خلال طقوس معيّنة، اعتُبِرَت ضربًا من العمادة السريّة التي طهّرت عقولهم، وسمحت لها بالانفتاح على النور، لتلقّي المعارف الحقيقيّة المخبّأة داخل معابد الأسرار. لذلك كان تحضير طالب الأسرار يستغرق وقتًا، كما رأينا، حتّى يصير جاهزًا نفسيًّا وروحيًّا لتقبّل الأسرار، وذلك من خلال سلسلة كشوف معرفيّة مقنعة؛ وحين يصير جاهزًا تمامًا لقبول المعارف، يُكشَف له الغرض من تكريسه الحقيقيّ[١]. ومن هذه المعارف القديمة نسلت مدارس الأسرار الحديثة، كالماسونيّة، والصليب الورديّ، والمارتينيّة، والإيزوتيريّة، وغيرها في أيّامنا؛ ومنها، كذلك، استوحَت طرُق التكريس التي تعتمدها، وطبيعة الترميز. وعليه، فإنّ هذه المدارس قد حافظت على معارف القدماء من مستنيرين وفلاسفة، وكان هؤلاء يجتمعون سرًّا لعبادة إله واحد[٢]، جزّأته الميثولوجيا إلى صور متعدّدة.

خامسًا: أنّ الميثولوجيات لم تكن تؤمن بتعدّد الآلهة، كما يبدو في ظاهرها، بل كانت تؤمن بإله واحد، في الأساس، ظهر مفهومه للمرّة الأولى مع "أخناتون"، الفرعون الغامض الذي علّم "موسى"، كما يشير "فرويد"، ولكنْ تُرِك مفهوم التعدّد لغير المسارّين من الناس ومن بعض الكهنة الثانويّين، وهو مفهومُ ظاهرِ الميثولوجيا، خوفًا على أن تنتقل الأسرار إلى الجهَلَة، ومَن لا يمكنهم استيعاب دلالات جوهرها، فيسيئوا إليها، ويشوّهوا دلالاتها، وتتغيّر، بالتالي، معانيها الفلسفيّة والطبيعيّة والروحيّة العميقة.

---

١ – Un vétéran de la maçonnerie, **Manuel maçonnique**, p. 13

٢ – Ibid, p. 12 - 13

وهذا الإله الواحد ظهر في مرحلة لاحقة، مع العبريّين، وتجلّى في "يهوَه" الذي تداخلت صوره وطبيعته من باب إلى باب، ومن إله معيّن إلى إله آخر، ولكنّه حمل اسمًا واحدًا. ويمكن لدراسة معمّقة أن تكشف عن أنّ صور هذا الإله العبريّ لم تكن واحدة، في العهد العتيق، وتختلف بين صوره التي ظهرت في التوراة (الأسفار الخمسة الأولى من العهد العتيق)، وبين صوره التي ظهرت في "المزامير"، مثلاً – وهي بدورها جزء من العهد العتيق –، حيث انتقلنا من إله "غضوب"، "حقود"، يقود الجيوش، ويعاقب الخلَف على أخطاء السلَف، إلى إله محِبّ، وَدود، لا تشبه صورته الإله السابق!

أخيرًا، يفتَح هذا البحث الباب أمام دراسة طبيعة التكريس في بعض الجمعيّات السريّة، من أجل إظهار ما تحدّر إليها من رموز وطقوس من العهود القديمة، تُظهر مدى مطابقتها أو مشابهتها لطرق التكريس التي كانت قائمة في مدارس الأسرار. وفي الواقع، لا بدّ من العودة إلى ما عدنا إليه، من أجل التعرّف إلى أصليّة بعض تلك الجمعيّات، لأنّ عددًا منها تأسّس حديثًا، وهو لا يُعَدّ أصيلاً، كما لا يُعَدّ مُعتمِدًا على جوهر ما كان في تلك التعاليم، ما من شأنه أن يسيء إليها كلّها، وإلى ما تنقله من معارف.

المصادر والمراجع

١ - المصادر العربية

أ - الكتب المقدسة:

- الكتاب المقدس: العهد العتيق
- القرآن الكريم

ب - المصادر العربية:

- البيروني، أبو الريحان: في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، حيدرآباد: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٨

٢ - المراجع العربية

- حاتم، عماد: أساطير اليونان، طرابلس الغرب: الدار العربية للكتاب، ١٩٨٨
- السواح، فراس: دين الإنسان، دمشق: دار علاء الدين، ٢٠٠٢
- شلبي، أحمد: أديان الهند الكبرى، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط١١، ٢٠٠٠
- طوق، بولس: النار والنور في الفكر العالمي، بيروت: دار نوبيليس، ط٢، ٢٠٠٠
- الماجدي، خزعل:
  ١ – الآلهة الكنعانية، عمان: دار أزمنة، ط١، ١٩٩٩
  ٢ – إنجيل بابل، عمان: الأهلية للنشر، ط١، ١٩٩٨
  ٣ – متون سومر، عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٨
- مبيض، يسر محمد سعيد: اليوم الآخر في الديانات السماوية والديانات القديمة، قطر: دار الثقافة، ط١، ١٩٩٢

٣ - المراجع المعربة

- إلياد، مرسيا: تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، تعريب: عبد الهادي عباس، دمشق: دار دمشق، ط١، ١٩٨٧
- بارندر، جفري: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، تعريب: إمام عبد الفتاح إمام، الكويت: سلسلة عالم المعرفة (١٧٣)، ١٩٩٣

ـ روتّن، مارغريت: تاريخ بابل، تعريب: زينة عازار وميشال أبي فاضل، بيروت: منشورات عويدات، ط٢، ١٩٨٤

ـ شابيرو، ماكس ورودا هندريكس: معجم الأساطير، تعريب: حنا عبود، بيروت: دار الكندي، ط١، ١٩٨٩

ـ غريمال، بيار: الميثولوجيا اليونانية، تعريب: هنري زغيب، بيروت: منشورات عويدات، ط١، ١٩٨٢

ـ فرويد، سيغموند: موسى والتوحيد، تعريب: جورج طرابيشي، بيروت: دار الطليعة، ط٤، ١٩٨٦

ـ فريشاور، بول: الجنس في العالم القديم، تعريب: فائق دحدوح، دمشق: دار علاء الدين، ط٢، ١٩٩٣

ـ فريك، تيموتي، وبيتر غاندي: متون هرمس، تعريب: عمر الفاروق، القاهرة: المشروع القومي للترجمة (عدد ٣٥٧)، ط١، ٢٠٠٢

ـ كونتينو، جورج: المدنيات القديمة في الشرق الأدنى، تعريب: متري شماس، بيروت: المنشورات العربية (سلسلة ماذا أعرف)، لا تاريخ

ـ لا مؤلف: الأفستا، تقديم: خليل عبد الرحمن، دمشق: روافد للثقافة والفنون، ط٢، ٢٠٠٨ الثقافة، ط١، ١٩٩٢

ـ لا مؤلف، ديوان الأساطير: سومر وأكاد وآشور، تعريب: قاسم الشواف، بيروت: دار الساقي، ط١، ١٩٩٧

ـ لا مؤلف، كتاب الموتى الفرعوني، تعريب: فيليب عطية، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط١، ١٩٨٨

ـ مازيل، جان: تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية، تعريب: ربا الخش، اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٨

ـ هاملتون، فرجينيا: أساطير الخلق، تعريب: أسامة إسبر، دمشق: دار الينابيع، ١٩٩٦

٤ ـ مقالات بالعربية رقمية

ـ لا مؤلف، مقال: أوزيريس، عن موقع: Wikipedia

٥ - كتب بالإنكليزيّة

- Bennett, John, R: **The origins of freemasonary and knights of the temple**, Muskegon, 1907
- Brookbank, F. H: **Legends of ancient of ancient Egypt**, N.Y: Thomas Y. Croell company publishers, no ed.
- Colum, Padaric: **Orpheus - Myths of the world**, forgotten books, 2008
- Forster, Gerry: **The lost continent rediscovered**, U. S: Adventures unlimited press, 2001
- Hall, Manly P: **The secret teaching of all ages**, S. F: H. S. Crocker, company incorporated, 1928
- Jacolliot, Louis: **Occult science in India and among the ancients**, tr: Willard L. Felt, N. Y: Lovell company, 1884
- King, L. W: **Babylonian religion and mythology**, London: Kegan Paul, Trench, Trübner and co, 1899
- Lansdowne, Zachary: **The revolution of saint John**, Boston: the esoteric quarterly, 2008
- Pinck, Geraldine: **Handbook of Egyptian mythology**, California: ABCClio's, 2002
- Ramaswamy, Shumati: **The lost land of Lemuria**, London: University of California press ltd, 2004
- Scott-Eliot, W: **The story of Atlantis and Lemuria**, U. S: the theosophical publishing house ltd, 1st. ed, 1896 & 1904
- Sibley, W. G: **The story of freemasonaty**, Ohiyo: the lions paw club, 1913
- Singleton, George W: **The Egyptian mystery school of On (Annu)**, enlightenment publications inc, 2004
- Steiner, Rudolph: **Egyptian myths and mysteries**, N. Y: anthroposophic press inc, 1971
- Tsarion, Michael: **Atlantis alien visitation and genetic manipulation**, California: Angels & work publishing, 1st. ed. 2002
- Vail, Charles H: **The ancient mysteries and modern masonry**, N.Y: Masony publishing and Masonic supply co, 1909
- Wright, Dudley: **The Eleusinian mysteries and rites**, London: The theosophical publishing house, no date

٦ - كتب بالفرنسية

- Caillot, R.C: **Annales maçonniques, Paris: chez caillot**, 1809
- Delaage, Henri : **Doctrines des cocietes secretes**, Paris: E. Dentu, 1852
- Dubreuil, J. P: **Histoire des franc-maçons**, Bruxelles: H. I. G. Librairie éditeur, 1833.
- Gloor, Daniel: **Création et mythes de la creation**, Gymnase de Nyon, 2004
- Karam, Clovis : **La symbolique des archétypes dans la mythologie phénicienne**, Lyon, 1984
- Lewis, H. Spencer: **Manuel rosicrutien**, Villeneuve: éd. Rosicrutiennes, 3ème éd,1965

- Ovide, **Nouvelle traduction des metamorphoses**, tr: M. Fontanelle, A. Lille, MDCCLXVII
- Papus, **La science des nombres**, Paris: la diffusion scientifique, 1ère éd.
- Sans auteur, **Esprit du dogme de la franche - maconnerie**, Bruxelles: H. Tarlier, MDCCCXXV
- Servé, Wishar S: **La Lémurie continent perdu du Pacifique**, trad: inconnue, Paris: éd. Rosicrutiennes, 1974
- Un vétéran de la maçonnerie, **Manuel maçonnique**, Paris: éd. Hubert, 1820
- Weor, Sämuel Aun : **La révolution de bel**, e-book, Colombie, 1ère éd. 1950

٧ – كتب رقمية بالإنكليزية

- Alfred, Ernest & Thomas Wallas Budge: **Legends of the gods**, Forgotten books (www.forgottenbooks. Org), 2008
- Boylan, Patric: **Thoth the Hermes of Egypt**, forgotten books (www. Forgottenbooks. Org), 2010
- Donnally, Ignatius: **Atlantis**, pdf books. Co. za (site: Google)
- Frazer, James, **The golden bough**, project Gutenberg (e- book)
- Griswold, Hervey Witt: **Brahman**, forgotten books (e-book), N. Y: The Macmillan company, 2001
- Handel, Max: **Ancient and modern initiation**, e-book, www.abika.com
- Mackenzie, Donald A: **Egyptian myths and legends**, forgotten books (www. forgottenbooks. Org), 2007
- Plato, **Critias**, e-book: Geutenberg project
- Plato, **Timaeus**, e-book: Geutenburg project
- Singleton, George, W: **The Egyptian school of 0n (annu)**, enlightenment (publications, inc. 2004 (e-book

٨ – مقالات بالإنكليزية

- Guilmot, Max: **The initiatory process in ancient Egypt**, in: Rosicrutian digest, n. 1, 2007
- Naydler, Jeremy: **The elusinian mysteries and other mystery religions**, in: Rosicrucian Digest, N. 2, 2009

٩ – مقالات رقمية بالإنكليزية

- Gee, John: **Prophets- initiation and the Egyptian temple**, in: (site: Google. (Com
- Mulligan, Margie:M, **Pre-dynastic Egyptian mystery school**, in: site: Google
- Popow, Victor: **Ritual - It's importance and meaning**, in: the cornerstone society, www. Cornerstonesociety. Com

١٠ – مقالات رقمية بالفرنسية

- Sans auteur, **mythologie egyptienne**, histoire – fr. Com

فهرس المحتويات

الفصل الرابع: الأسرار والتكريس في بلاد فارس

الفصل الخامس: الآلهة والتكريس في مصر القديمة

الطباعة : دار المكتبة الأهلية

زوق مكايل ـ حارة المير ـ تلفون : ٥٥ـ ٠٩/٢١٤١٤٤ المطبعة : ٠٩/٦٣٦٨٢٠

فاكس : ٠٩/٢١٣١٩٩ ص.ب : ٣٦٩ زوق مكايل

Email: al.ahlia@hotmail.com

هذه الميثولوجيات كلها تحتوي على مستويين من الدلالات: الأول يقوم في عقل أغلب العامة، فهو يُظهر التعدديّة، ويأخذ القصة بمعناها المباشر؛ في حين أنّ الثاني لا يتوقف عند ظاهر القصة، بل يدخل إلى معانيها الخفيّة، حيث تصير العلاقات القصصيّة والشخصيات رموزًا عميقة، ولكنّ الوصول إلى هذا المستوى من الفهم لا يتمّ إلاّ عن طريق الإسراريّة التي تكشف الطريق أمام المسارّ للولوج إلى أسرار الآلهة. بمعنى آخر، فإنّ الإسراريّة هي ما يمكن أن نسمّيه "مفتاح الآلهة".

(المؤلف)

(ألفا لبنان)